العبد

رواية

العبد

رواية

تأليف :

تامر أبو عرب

تصميم الغلاف:

عبد الرحمن الصواف

تحرير أدبي:

سندس الحسيني

مراجعة لغوية:

محمد حمدي

رقم الإيداع: 2016/22454

الترقيم الدولي: 978-977-820-005-8

إشراف عام:

محمد جميل صبري

نيفين التهامي

***

كيان للنشر والتوزيع

٢٢ ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحي الجيزة - الهرم

هاتف أرضي: 0235688678- 0235611772

هاتف محمول: 01001872290-01000405450-01005248794

بريد إلكتروني: kayanpub@gmail.com - info@kayanpublishing.com

الموقع الرسمي : www.kayanpublishing.com

©جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبعٍ أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذنٍ كتابي من الناشر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

العبد

تامر ابو عرب

رواية

إهداء

إلي نرمين ..

-١-

مضت الدقائق كئيبة باردة وأنا أنتظر وصول السيارة التي ستقل جثمان أبي ليوارى الثرى في القرية التي وُلد فيها، وتعيش فيها عائلته بكفر الشيخ، بناء على وصية كان يكررها كلما أصيب بأي نوع من الأمراض، حتى لو كان مجرد نزلة برد. وقفت شاردًا وقد أسندت ظهري على مدخل العمارة، وبدأت الذكريات تمر أمام عيني متسارعة؛ لا أكاد ألتقط واحدة حتى تتداخل معها ذكرى جديدة.

لم يكن بالنسبة لي مجرد أب كما لم أكن له مجرد ابن، كنت الذكر الوحيد على ثلاث بنات، لذلك اعتبرني أحد إخوته الذين تركهم في كفر الشيخ وعاش أغلب حياته بعيدا عنهم، وأحد أصدقائه الذين اضطر تحت ضغوط الحياة للتقليل في مودتهم، بالرغم من أنه دللني كثيرًا، كان يتحول إلى شخص آخر إذا أتيت تصرفًا يهز صورة الرجل الذي رسمها لي منذ كنت في المرحلة الابتدائية، وإذا حاولت أمي تهدئته صرخ فيها:

- هو حتة عيل واحد اللي طلعنا بيه من الدنيا.. عايزاه يخيب ويبقى البنت الرابعة؟

رأيته يبكي أول مرة عندما نجحت في الثانوية العامة بمجموع ٩٩,٤٪، احتضنني بقوة وقال:

- لو مت دلوقتي مش هبقى قلقان على أمك واخواتك لأني سايب لهم راجل ودكتور قد الدنيا.

التحقت بكلية الطب لإرضائه فقط، لأن ميولي كانت تتجه نحو الأدب منذ الطفولة، قرأت روايات نجيب محفوظ وطه حسين ويوسف السباعي وأنا في المرحلة الإعدادية، وكنت أتمنى أن أكون شاعرا أو روائيا أو صحفيا، لكنني لم أجرؤ على مصارحة أبي بهذه الرغبة، لأنني أعرف أنه يعيش منذ سنوات طويلة على أمل أن يراني طبيبا، كغالبية الأسر المصرية التي اختصرت التفوق والنبوغ في دخول كلية الطب.

- البقية في حياتك يا دكتور. والله الوالد كان أكتر من أخ وربنا يعلم أنا كنت بحبه قد إيه.

قطع عم إبراهيم شريط الذكريات الذي كاد ينسيني أن والدي ممدد بالأعلى في انتظار نقله إلى مثواه الأخير، فتنبهت إلى الظرف الذي أقف فيه وأجبت:

- حياتك الباقية يا عم إبراهيم، مانجيلكش في حاجة وحشة.

- كان نفسي أروح معاكم البلد والله، بس انت عارف الحاجة تعبانة ومبقدرش أسيبها لوحدها.

- عارف والله ولا يهمك، كأنك جيت بالضبط.

- طيب شد حيلك يا حبيبي ولو عُزت حاجة كلمني في التليفون على طول.

- إن شاء الله.

احتضنني بقوة وهم بالانصراف وتبعته ببصري حتى خرج من الشارع، وقد كرهت هذا الموقف الذي يجعلني مضطرا لسماع مجاملات كاذبة وتأثر مصطنع بدأ منذ انتشار خبر الوفاة وتوافد المعزين. عم إبراهيم كان بينه وبين والدي ما صنع الحداد

وجمعهما عداء واضح منذ كنت طفلاً، فعم إبراهيم ميكانيكي كسول سليط اللسان، وكثيرا ما تشاجر مع أبي ووصل الأمر أكثر من مرة إلى التشابك بالأيدي بسبب السيارات التي يرصها أمام ورشته وبطول الشارع، حتى لا يجد أبي مكانا يصف فيه سيارته، وهنا تبدأ المعركة التي لا تنتهي غالبا إلا بتدخل الجيران.

في أحد الأيام سألت والدي عن سبب تنقله بين الميكانيكية لإصلاح سيارته، بينما يمكنه أن يستريح ويصلحها في ورشة إبراهيم الموجودة في نفس الشارع، فأجابني بحسم:

- أنا أودي عربيتي للراجل الواطي ده! ده انا ارميها في أقرب خرابة ولا إني أحتاج له.

- يا عم إن كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي.

- إنت فاكر اني لو وديتها له هاستريح؟ ده لكع وبيركن العربية عنده بالشهر والاتنين، وهافضل انا بقى متشحط في المواصلات لحد ما الدكتور إبراهيم يتكرم عليا ويصلح لي العربية.

نفس الأمر تكرر مع عم عطوان البقال، الذي جاءني معزيًا والدموع تملأ عينيه، وهو الذي قاطع أبي تمامًا ولم يعد حتى يلقي عليه السلام، منذ رفض تزويج أختي الكبيرة أميرة لابنه جمال، ووصل الأمر إلى عدم زيارته أبي في مرضه الأخير، ولا أعرف هل يُنسي جلال الموت الخلافات القديمة، أم أن الكذب بات هو الرياضة المفضلة للبشر؟

أنقذتني سيارة دخلت الشارع وعليها لوحات «تحت الطلب جيزة»، فقد كنت على مشارف الغياب عن الوعي بسبب الأفكار المتلاحقة والذكريات المتداخلة، مع الإرهاق وقلة الطعام وكثرة

الدموع التي انهمرت من عيني منذ أسلم أبي روحه بين يديّ، فقد كانت سكرات الموت شديدة جدًا عليه، حتى كادت رعشته الأخيرة التي سكن بعدها للأبد تَخرج بروحينا معًا.

توقفت السيارة أمام مدخل العمارة ونزل منها أحمد زوج شقيقتي الوسطى سحر، ثم هرول نحوي قائلا:

- ماعلش اتأخرت عليك بس دُخت على ما لقيت عربية.

حركت رأسي موافقًا دون أن أتكلم، وسبقته إلى الشقة حيث دخلت الغرفة التي يوجد بها الجثمان الملفوف في كفن نقعه أبي في ماء زمزم عندما أدى فريضة الحج قبل ثلاثة أعوام، ومن فوقه غطاء جديدًا كان في جهاز شقيقتي الصغرى آية، لكن أمي أخرجته حتى لا يُلَف جثمان رفيق عمرها في غطاء قديم، وبرغم أنني لم أفهم منطقها في التعامل مع جسد سيوارى التراب بعد ساعات، فإنني أيضا لم أكن مستعدا للدخول في مناقشات من أي نوع، وهي أيضا كذلك.

وقفت عند الرأس، ووقف أسامة زوج أميرة عند القدمين، وأحمد زوج سحر وعمي شحاتة وابنه هيثم في المنتصف، استأذنَت أمي ودخلت في ثبات، طبعت على جبهة أبي قبلة الوداع ومن خلفها جاءت شقيقاتي الثلاث وفعلن مثلها، وعندما رفعنا الجثمان خرجت منهن صرخات مكتومة، وامتلأت الشقة بأصوات النحيب والصراخ من أمي وشقيقاتي وعماتي وخالاتي، ونساء أخريات لم أرهن من قبل.

نزلنا درجات السلم بحذر خوفا من انزلاق أحدنا، وعندما وصلنا إلى باب العمارة كان سائق السيارة ومعه شخص آخر جاهزين بالصندوق الخشبي، وضعنا الجثمان فيه برفق، وبسرعة

وضعنا الصندوق داخل السيارة، وأعطيت مفاتيح سيارتي لأسامة ليأتي بأمي وشقيقاتي، وصعدت على مقعد مواجه للصندوق، وتحركت السيارة وخلفها عدد كبير من السيارات لأقارب وأصدقاء أصروا على حضور مراسم الدفن في كفر الشيخ.

بعد تحرك السيارة بدقائق اكتشفت أن المقعد الخشبي الذي أجلس عليه غير مريح بالمرة، ويزيد الأمر سوءا رؤوس المسامير البارزة من أطرافه، تأكدت أن الرحلة ستكون شاقة وستُكسر عظامي قبل أن نصل إلى مقصدنا البعيد، لكنني حاولت تناسي ذلك وأخرجت مصحفا صغيرا من جيبي بحثت فيه عن سورة «يس» وبدأت في القراءة:

«يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ...».

-٢-

بعد أن انتهينا من مراسم الدفن وقفنا في صف على مدخل المقابر أنا وأعمامي الثلاثة، وعدد من الأقارب ورجال العائلة، لتوديع المشيعين واستقبال كلمات التعزية، وكنت منذ وصلت إلى القرية قد سلمت نفسي تماما لأعمامي بناء على طلبهم، باعتباري غريبًا لا أعرف عادات وتقاليد المكان، انتظم المشيعون في صفوف وبدأت حفلة احتضان وتقبيل مرفقة بسيل من كلمات المدح في المرحوم وأخلاقه وسيرته ودعوات بالصبر والثبات، ولم أكن أقابل كل ذلك إلا بجملة متكررة:

- شكر الله سعيك. شكر الله سعيك. شكر الله سعيك.

في هذا الوقت لفت نظري في مدخل المقابر حوش ضخم، تتربع أعلى بابه رخامة كبيرة الحجم مكتوب عليها «يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي». هنا يرقد مراد بك عبد القادر. انتقل إلى جوار ربه يوم ١١ أكتوبر ١٩٦٤»، وبجانب الحوش كان هناك قبر آخر قديم مبني بالطوب اللبن لا يرتفع كثيرا عن سطح الأرض لكنه يحظى بشكل مميز أقرب إلى الضريح، وتلتف حوله مجموعة من النساء بصرر وأوان، ومكتوب على جداره بخط رديء «ضريح العارف بالله يوسف عبد الميت».

- عبد الميت؟

سيطرت عليّ غرابة الاسم لدقائق، فأخذت أسلم على

المشيعين دون أن أركز فيما يقولونه ودون أن أرد عليهم، تملكني فضول رهيب لمعرفة صاحب هذا القبر وسبب تسميته بهذا الاسم، وكنت أتعجل انتهاء هذه المراسم المملة لأسأل أحدا من أقاربي عن حكايته التي يبدو أنها ستكون متفردة ومختلفة، كاختلاف وتفرد اسم صاحبها «عبد الميت».

مع آخر مشيع أمسك عمي حسن يدي برفق، وقال:

- تعالى بقي نريح في البيت شوية وناكل لقمة.. وبعدين نبقى نطلع على المضيفة بعد العصر.

وافقت بتسليم من لا يملك خيارًا آخر، وألقيت نظرة أخيرة على الحوش والقبر الملتصق بأسواره متعجلاً كشف هذا اللغز.

في بيت عمي حسن تحلق رجال العائلة حول ٣ طبليات، عليها طواجن الأرز المعمر والبطاطس والفاصوليا الخضراء وأطباق السلطة، وعلى كل طبلية فرخة محمرة وطبق كبير مملوء باللحم، أكل أعمامي بشراهة وشطر عمي شحاتة فرخة نصفين وضع أحدهما أمامي، وقال:

- كل كويس عشان تقدر تقف في المضيفة، اليوم لسه طويل.

حاولت دفع الطعام في فمي أكثر من مرة، لكن فقدان الشهية منعني من تكرار المحاولة، ورغم أن آخر لقمة دخلت جوفي كانت من حوالي ١٦ ساعة فإن الإرهاق كان يعتصر كل عضلة في جسدي، وجعل رغبتي في الراحة تطغى على رغبتي في تناول الطعام.

قمت لغسل يدي ولم تفلح محاولات أعمامي ومطالبتهم لي بإكمال غدائي أمام إصراري على القيام، دخلت الحمام

ووضعت رأسي تحت الماء البارد المندفع من الحنفية، فبدأت الأسئلة تعصف برأس يغمره الماء؛ كيف سأعود إلى المنزل ولا أجد أبي فيه؟ ومن الشخص الذي يمكن أن يحل محله ويصبح وعاء لأسراري وناصحا أمينا لي وقد سبق واستغنيت به عن الأصدقاء؟ وهل ستقبل أمي بالقدوم إلى شقتي أم ستصر على الإقامة في بيتها؟ وإذا أصرت، كيف يمكن أن أطمئن عليها وقد أصبح البيت الذي كان مزدحما بزوج وأربعة أبناء فارغا إلا من آية التي ستتزوج بدورها بعد شهور؟ وكيف سأتحمل الوقوف في المضيفة حتى المساء وأنا متعب من الآن؟ ومن هو عبد الميت وما هي قصته؟

أغلقت الحنفية أخيرا وجففت رأسي بمنشفة كانت معلقة على مسمار خلف الباب، ثم خرجت لأسلم نفسي مجددًا إلى أعمامي يسيّروني كيفما شاؤوا وشاءت تقاليد ما وُجدت إلا لتضاعف لنا العذاب، فبعد فقدان الأعزاء يكون الانفراد بالنفس والتفكير فيما يحمله المستقبل أولى من الوقوف بالساعات لتلقي كلمات إنشائية ومراقبة حزن مُصطنع على وجه من يعرف الميت ومن لا يعرفه، من يحبه فعلا ومن يكرهه، من تأثر لرحيله ومن يتمنى له أن يموت ألف مرة ليذوق العذاب.

في العاشرة مساء عدنا من المضيفة إلى منزل عمي شحاتة الذي أصر على أن أبيت عنده، بينما باتت زوجتي سارة التي لم أرها منذ خرجنا من القاهرة مع أمي وشقيقاتي وبقية السيدات في منزل عمي حسن، دخلنا غرفة كبيرة تلتصق الأرائك بجميع حوائطها فارتميت على أريكة منها وبجانبي هيثم، أقرب أبناء عمومتي إليّ بحكم دراسته في كلية التجارة بجامعة القاهرة وتردده

كثيرًا على شقتنا في الجيزة ومشاركته لي الغرفة عندما كان يبيت.

أما عمي شحاتة حاد الملامح والطباع، يحب أن يقوم بدور كبير العائلة منذ وفاة جدي رغم أن ترتيبه هو الثاني بين إخوته الذكور، إذ يكبره أبي في السن ويأتي بعده أعمامي حسن وعاطف، وفي أثناء توزيع الميراث حدثت مشكلة كبيرة بين أبي وعمي شحاتة، بعد نجاح الأخير في اشتراء نصيب إخوته البنات مقابل أموال زهيدة، وإصراره على اشتراء نصيب أبي في بيت العائلة بنفس الطريقة، باعتباره يقيم في القاهرة ولا يزور القرية إلا في الأعياد والمناسبات.

تنازل أبي عن نصيبه مكرهًا، لعدم رغبته في خسارة شقيقه وإحداث شرخ في العائلة، وإن كانت هذه الواقعة قد جعلته يشعر بغصة دائمة بسبب انحياز عماتي إلى شحاتة في هذه الأزمة، بخلاف الطريقة السيئة التي عامله بها عمي حتى تنازل له عن نصيبه في البيت مقابل ١٠ آلاف جنيه فقط، دفعها له على ٥ دفعات.

جلس عمي شحاتة على أريكة مقابلة وقال لي:

- قعدنا نتحايل على ابوك بعد ما طلع معاش ييجي يبني له حتة بيت هنا ويقعد وسطنا في أواخر أيامه، لكن سبحان الله كل اللي بيسافروا مصر مابيحبوش ييجوا بلدهم غير عشان يتدفنوا فيها، كأن البلد دي اتكتب عليها تكون تُرب وبس.

تجنبت النظر إلى عينيه فتظاهرت بالانشغال بقراءة أمر في الموبايل، ثم قلت:

- الله يرحمه يا عمي، هو كان عايز يموت في الشقة اللي قضى

فيها حياته كلها، وفي وسط الناس اللي بيحبهم ويحبوه.

واصل حديثه كأنني لم أقل شيئا:

- كان نفسي يعيش له يومين وسط اخواته اللي اتحرموا منه طول حياته، لكن هنقول ايه، أمر الله نافذ، وهو الله يرحمه كان حابب الغربة ماعرفش على إيه.

وضعت الموبايل بجانبي، ونظرت إليه في غيظ قائلا:

- كان هييجي يقعد فين هنا يا عمي؟ ما هو ماعادش له حاجة في البلد.

- ماعادلوش حاجة ازاي يعني؟ كان جه قعد معايا هنا في البيت وانا كنت شلته على راسي.

- وليه كان هيسيب مكانه ويقعد عند حد؟ بيته أولى بيه.

- وهو انا حد برضه يا دكتور خالد؟ ده انا أخوه شقيقه واللي هنا كلهم أهله من لحمه ودمه، ولا هو علّمك تكون براوي ومالكش خير في أهلك؟

تدخل هيثم لاحتواء مشادة بدت وشيكة:

- خلاص يا حاج الكلام ده فات أوانه، هو دلوقتي بين إيدين اللي خلقه وماتجوزش عليه إلا الرحمة.

- على رأيك يا بني الله يرحمه ويغفر له، مالوش لازمة الكلام.

حاولت امتصاص غضبي، لأحافظ على صلة الرحم التي حافظ عليها أبي في أشد أوقات غضبه من أشقائه:

- البركة فيك يا عمي، انت دلوقتي في مقام أبويا الله يرحمه واحنا كلنا أولادك.

اعتدل عمي شحاتة في جلسته وانفرجت أساريره بما قلت، فرد:

- طبعا كلكم ولادي، ولو احتجتني في أي يوم وضربت لي هاتف بس هتلاقيني بعد ساعتين زمن معاك وفي ضهرك انت واخواتك.

كان عمي محقا في ما يقوله، فهو رغم كل شيء معروف عنه أنه «صاحب واجب»، فرغم تجاوزه الستين بعامين كان يتكبد مشقة السفر لأي مكان وحل أي مشكلة يتعرض لها أعمامي أو عماتي أو أولادهم أو زوجاتهم، كما يحكّمه جميع أقاربنا بل وبعض العائلات الأخرى للفصل في النزاعات والسيطرة على المشاجرات، يحترم الجميع كلمته ويرضون بحكمه أيا كان، حاولت تغيير مسار الحديث فسألته:

- إلا صحيح يا عمي، مين عبد الميت ده؟

- هو أبوك ماحكاش ليك عنه؟ يا بني ده أشهر حاجة في بلدنا، أشهر من البلد نفسها.

- لا والله ماجاتش فرصة، وانت عارف ابويا ماكانش بيحب يتكلم كتير عن البلد، علشان كان بيفتكرها ويزعل.

- آه.. أومال عرفته ازاي؟

- أبدا شفت تُربته واحنا بندفن ولفت نظري الاسم.

- لا دي حكاية طويلة مش هينفع نفتحها دلوقتي عشان احنا كلنا تعبانين وعاوزين ننام ونريح جسمنا شوية، قوم البس أي حاجة من هدوم أخوك هيثم وارتاح، وأنا هابقى أحكي لك حكايته من طقطق لسلام عليكم.

وجدته حلا مناسبا لأنني أرغب بشدة في النوم والحصول على إجازة قصيرة من الإرهاق الجسدي والنفسي، وفي نفس الوقت

ضمنـت أنـني سـأعرف بعـد سـاعات قصـة الرجـل الـذي شـغلني اسـمه وحكايتـه منـذ رأيـت ضريحـه الغريـب.

-٣-

كان مـراد بـك عـلى فـراش المـوت، بينمـا يجثـو يوسـف عـلى ركبتيـه باكيـا بحرقـة وتخـرج منـه آهـات متتاليـة لا يسـتطيع كبحهـا، يمسـك بيـد سـيدُه يتحسسـها تـارة ويقبلهـا أخـرى، كأنـه يريـد أن يشـبع عينيـه برؤيـة الرجـل الـذي عـاش عمـره كلـه تحـت قدميـه، ويُشـبع جلـده بلمسـه لأطـول فـترة ممكنـة.

فتـح الرجـل السـبعيني عينيـه بصعوبـة وحـرّك شـفتيه بمعانـاة، فانتفـض يوسـف وكأنـه بُعـث مـن جديـد، فهـا هـو مـراد يعـود مـرة أخـرى إلى الدنيـا، ربمـا كان في غيبوبـة مؤقتـة وأفـاق منهـا، وقـد يقـوم بعـد عـدة سـاعات ليتحـرك فى أرجـاء قـصره الكبـير، مسـتندا عـلى عصـاه الـتي كثـيرا مـا أشـبعه بهـا ضربـا، لكـن الخـادم الأمـين مسـتعد لنسـيان كل الإسـاءات السـابقة وتقبـل المزيـد، بـشرط أن يعـود سـيده إلى الحيـاة.

أوقف أفكار يوسف صوت ضعيف خرج من مراد بك:

- يوسف.

- أؤمرني يا سيدي، خدامك.

- قرب مني عايز أقولك على حاجة مهمة.

وقـف يوسـف ثـم ركـع ليدنـو بأذنيـه مـن فـم مـراد بـك، وقـال بصـوت متهـدج:

- نعم يا سعادة البيه.

- مـن سـنة وشـوية حسـيت إن أجـلي قـرب، وسـألت نفـسي يـا تـرى

بعـد مـا أمـوت فلـوسي وأرضي دي كلهـا هـتروح لمـين وأنـا ماليـش ولاد؟ أكيـد هـتروح لـولاد عمـي الـلي عمرهـم مـا ودوني ومسـتنيين مـوتي مـن سـنين، ده غـير خناقـات أبوهـم مـع أبويـا زمـان عـلى ورثهـم مـن جـدي، الـلي ولاده ضيعـوه بعـد كـده.

قاطعه يوسف قائلا:

- ربنـا يديـك طولـة العمـر يـا سـيدي انشـاالله هـم الـلي يموتـوا كلهـم، وانـا كمـان، وانـت لأ.

نفـخ مـراد ونظـر إلى الجهـة الأخـرى، ثـم التفـت إليـه وقـال بنفـاد صبر :

- اسـمعني مـن سـكات وماتقاطعنيـش، أنـا مـش قـادر أناهـد. المهـم اسـتدعيت الأسـتاذ فهمـي المحامـي وطلبـت منـه يكتـب وصيـتي ويسـجلها في الشـهر العقـاري، ووصيـت بنـص الـثروة لملاجـئ الأيتـام والمستشـفيات والخـير، وبالنـص التـاني ليـك انـت بمـا فيهـا السرايـا دي.

انتفض يوسف كأن ثعبانا لدغه!

وقال متلعثمًا:

- بتقـول إيـه يـا سـيدي؟ السرايـا ونـص فلوسـك ليـا انـا؟ هعمـل بيهـم إيـه؟ يـا سـيدي انـا مـش عايـز حاجـة، أنـا عايـزك بـس تقـوم بألـف سـلامة وافضـل خدامـك لحـد مـا امـوت في خـيرك.

أشار إليه ليقترب مجددا:

- اسـمع بـس، إنـت اتولـدت فى السرايـا دي، وأبـوك الله يرحمـه فضـل في خدمـتي وخدمـة أبويـا لحـد مـا مـات، وانـت معايـا بتخدمـني بقالـك أكـتر مـن خمسـين سـنة، حـتى قعـدت تأخـر في

جـوازك لحـد مـا فاتـك القطـر، كان لازم أضمـن لـك تعيـش بقيـة عمـرك مرتـاح، ويـا ريـت لـو تـدور لـك عـلى واحـدة تتجوزهـا وتعمـل عيلـة تمـلا عليـك الدنيـا، بـدل مـا تمـوت لوحـدك زيي كـده. يـا مـا كان نفـسي ربنـا يرزقـني بعيـل يشـيل اسـمي ويورثـني، لكـن آدي الله وآدي حكمتـه.

بـدأ صـوت مـراد يخفـت وعينـاه تـدوران في حركـة غـير منتظمـة قبـل أن يدخـل في غيبوبـة جديـدة، بينمـا كانـت سـعدية الخادمـة تمـارس هوايتهـا الدائمـة في التجسـس عـلى كل مـا يـدور في الـسراي، كانـت تمتلـك حاسـة سـمع خرافيـة أكسـبتها شـهرة كبـيرة في الـسراي وفي القريـة كلهـا، حـتى بـات كل متناجيـين يلتفتـان يمينـا ويسـارًا ليتأكـدا مـن أن أذني سـعدية ليسـتا حاضرتـين.

سـمعت غالبيـة الحـوار الـذي دار بـين البـك وخادمـه، لكنهـا لـم تتمكـن مـن سـماع بعـض فقراتـه بسـبب ضعـف صـوت مـراد، لكنهـا عـلى أي حـال أصبحـت متأكـده أنـه كتـب نصـف ثروتـه بيعـا واشـتراء لخادمـه يوسـف، وبعـد دقائـق كان هنـاك مجلـس حـرب قـد انعقـد في المطبـخ، برئاسـة سـعدية وحضـور إبراهيـم الطبـاخ وسـيد الخفير ويونـس السـفرجي وفـرج الجنايـني وكوثـر وهانـم الخادمتـين.

سـيطر الذهـول عـلى الجميـع وهـم يسـمعون سـعدية تحـكي تفاصيـل مـا دار بـين مـراد بـك ويوسـف، وبعـد أن انتهـت مـن الحكايـة سـاد صمـت قصـير قطعـه يونـس:

- إنـتي متأكـده مـن الـلي بتقوليـه ده يـا سـعدية ولا تكـون دي تهيـؤات؟

أجابه إبراهيم في هدوء:

- يعـني انـت مـش عـارف سـعدية وودان سـعدية؟ مـا دام بتقـول سـمعت يبقـي أكيـد حصـل.

ضرب يونس كفا بكف وقال:

- بـس احنــا عمرنــا مــا ســمعنا إن فيــه بهــوات بيكتبــوا ورثهــم لخدامينهـم أبـدا، الراجـل باينـه مخـه خـف.. واحنـا هنسـكت عـلى كـده؟

أجاب فرج بعدما فرك ذقنه:

- وعاوزنـا نعمـل إيـه إن شـاء الله؟ عـلى رأي المثـل مـن حكـم في مالـه مـا ظلـم، ودي فلـوس البيـه وأملاكـه، يكتبهـا ليوسـف للجـن الازرق هـو حـر.

فعاجله سيد:

- حـر إيـه بـس وزفـت إيـه؟ يعـني أنـا المفـروض بعـد كـده أضرب تعظيـم سـلام ليوسـف وهـو داخـل وهـو خـارج؟ عـلى جثـتي، ده انـا لـو همـوت مـن الجـوع مـش هاعملهـا.

تركـت هانـم الآنيـة الـتي كانـت تغسـلها واسـتدارت موجهـة حديثها لسيد :

- يوسف حاف كده؟ دلوقتي بقى اسمه يوسف بيه.

ضحـك الجميـع بصـوت مرتفـع، فالتقطـت كوثـر طـرف الحديـث وقالـت باسـتغراب:

- يوسـف بيـه؟ قـال بطلـوا ده واسـمعوا ده. المهـم دلوقـتي انتـو هترضـوا تبقـوا خدامـين عنـد يوسـف يؤمركـم ويتأمّـر عليكـم؟

نظـروا لبعضهـم البعـض في حـيرة، كأن سـؤال كوثـر فتـح عليهـم بابًـا كانـوا يتهربـون مـن فتحـه بالمـزاح وإلقـاء النـكات، وبـدأ السـؤال

يتلاعب بأدمغتهم جميعا في وقت واحد، فهل سيحتملون الوضع الجديد الذي يكون فيه يوسف سيد هذا السراي وهو الذي كان حتى اليوم واحدا منهم يسري عليه ما يسري عليهم؟ وإذا لم يحتملوا فما البديل؟ وإن قبلوا فهل يقبل يوسف ببقائهم أصلا وهم سيذكّرونه بماضيه كلما نظر في وجوههم، أم يستبدل بهم خدما آخرين من خارج القرية أو من خارج كفر الشيخ كلها لا يعرفون أصله وفصله، ليمنحوه الاحترام اللازم؟

قطع إبراهيم فترة الصمت الطويلة قائلا:

- ماتستعجلوش خلينا في النهارده ولما ييجي بكرة يبقى يحلها ألف حلال.

بدت علامات الارتياح على وجه فرج، كأن ما قاله إبراهيم أنقذه من بحر الأسئلة الذي كاد يغرق فيه:

- على رأيك يا إبراهيم.. احييني النهارده وموتني بكره، وآهو البيه لسه موجود، لما ربنا يفتكره تبقى تفرج.

ردت هانم في ضيق:

- بيه إيه اللي لسه موجود يا فرج؟ ده حيالله نفس خارج ونفس داخل والسر الإلهي هيطلع كمان كام ساعة، ولا بالكتير كام يوم، لازم نبقوا عارفين من دلوقتي هنعملوا إيه عشان نبقوا عارفين راسنا من رجلينا.

توقف الجميع عن الكلام بعدما سمعوا صوت أقدام يقترب من المطبخ وإذا بالقادم عم يوسف، نظر الجميع إليه في وقت واحد منهم من كان يكتم الضحك، ومنهم من كان يكتم الغيظ، بينما دار يوسف ببصره عليهم وقال:

- متجمعين عند النبي كده ان شاء الله. إيه اللي لم الشامي ع المغربي؟

بادر إبراهيم بالإجابة:

- أبدا يا عم يوسف، أدينا كنا بنتسايروا شوية وبندعوا للبيه بالشفا.

- فيكوا الخير والله. بس يا ريت تكتروا الدعا شوية عشان البيه حالته متأخرة.

فاستجابت هانم فورًا ودَعت:

- ربنا يقومه بالسلامة ويديله طولة العمر قادر يا كريم.

أمّن يوسف على دعائها، ثم وجه حديثه ليونس:

- والنبي روح للحكيم قل له ييجي يطُل ع البيه بسرعة، عشان الغيبوبة جت له تاني بعد ما فاق شوية صغيرين.

رد بتأفف:

- ماشي هاقوم اروح له دلوقتي.

دار يوسف ببصره عليهم مجددا وهو يستغرب تجمعهم وطريقة كلامهم، ونظراتهم التي تحمل كثيرا من التلميحات، ثم أعطاهم ظهره وهم بالخروج، لكن صوت كوثر جاءه كالصاعقة:

- مبروك يا عم يوسف.

استدار يوسف فجأة ناحيتها قائلا:

- مبروك على إيه يا كوثر؟

تجاهلت نظرات زملائها الخمسة التي تكاد تفترسها وقالت:

- عرفنا ان البيه كتب لك نص أملاكه.

توجه يوسف ببصره ناحية سعدية التي هربت بعينيها في وجه كوثر، وقال:

- مش هتبطلي الخصلة السودة دي يا بت؟ إن شاء الله ربنا هيعلقك من ودانك دي في الآخرة.

قالت سعدية:

- واحنا يعني نكره لك الخير يا عم يوسف؟ طب وربنا المعبود كلنا طرنا من الفرحة لما عرفنا الخبر و...

قاطعها يوسف قبل أن تكمل كلامها:

- خبر إيه ياللي ينحش خبرك؟ البيه في غيبوبة وبيخترف بكلمتين، نقوم نمسك فيهم ونعمل هيصة وفرح في الظروف دي؟

لكن فرج غالب رغبته في الصمت، وقال:

- إنت عارف ان البيه مابيقولش حاجة في الهوا يا عم يوسف، وبلاش تعمل علينا الشويتين دول كأنك ماكنتش عارف، ما دام البيه مش عاوز يكتب أملاكه لولاد عمه كان قسمهم بالعدل علينا، احنا كلنا طفحنا الكوتة في خدمته. ليه بقى يكتب لك أملاكه لوحدك.

احمر وجه يوسف وكادت عروق رقبته تنفجر من شدة الغيظ، وحاول تغيير مجرى الحديث:

- طيب يلا قوم بقى روح للحكيم وهاته في إيديك زي ما قلت لك، ومش عاوز الموضوع الأغبر ده يتفتح تاني لحد ما البيه يقوم بالسلامة.

قالها وغادر المطبخ على عجل تاركا الحيرة تعصف بالجميع، لكن يونس لم يترك فرصة للصمت ليخيم على الأجواء فقطعه قائلا:

- راجل زي التعبان. صحيح اللي تحسبه موسى يطلع فرعون.

توجه إبراهيم إلى كوثر في غيظ:

- لازم يعني تنسحبي من لسانك؟ ماينفعش تسيبي الكلمتين في بطنك شوية؟

هزت كوثر رأسها دون أن تتكلم، وردت هانم نيابة عنها:

- هو إيه اللي حصل يعني يا عم إبراهيم، ما هو الموضوع كان كده كده هيتعرف، أهو أقلّه مايبقاش فاكر اننا نايمين على وداننا ويبقى عارف اننا عارفين كل حاجة.

أجابها إبراهيم:

- طيب ياختي انتي وهي، كل واحدة تشوف شغلها، وانت يا يونس قوم يلا نادي للحكيم، وكفاية قوي اللي حصل لحد كده.

قام الجميع إلى عمله ولم يبق في المطبخ إلا إبراهيم الذي أمسك سكينا غرسها في منضدة خشبية أمامه وقال بصوت مسموع:

- يا ترى مخبي لنا إيه تاني يا مراد بيه؟

-٤-

لملم الدكتور شوقي أدواته بعدما كشف على مراد بك، بينما يوسف يترقب في قلق، انتظره حتى وضع السماعة وجهاز الضغط في حقيبته الجلدية، ثم ازدرد لعابه في توتر وسأله:

- خير يا دكتور طمني؟

- للأسف مراد بيه بيحتضر.

- بيحتضر ازاي يعني.

- يعني بيموت، الموضوع كله ساعات، ادعي له ربنا يلطف بيه ويهون عليه سكرات الموت.

انتفض عم يوسف كالمجنون وعلا صوته قائلا:

- بيموت؟ بيموت ازاي يا دكتور؟ وانت دخّلت عدتك ليه؟ اعمل له أي حاجة أبوس إيدك، سيدي ماينفعش يموت.

- أستغفر الله، يا راجل انت بتقول إيه؟ الواحد مننا لما بييجي أجله ولا ألف دكتور يقدروا يقفوا قدام إرادة ربنا.

- طيب والنبي يا دكتور ما تسيبه، خليك جنبه يمكن ربنا يقدرك وتقدر تعمله حاجة.

- يا عم يوسف باقول لك مراد بيه بيحتضر، حرام نبهدله وهو بين إيد ربنا، مافيش في إيدينا حاجة غير اننا ندعي له ربنا يرحمه ويهون عليه وبس.

حمل الطبيب حقيبته وفتح باب الغرفة وانصرف، أسند عم

يوسف ظهره على الحائط بجانب الفراش وخارت قواه حتى جلس القرفصاء ووضع كفيه على رأسه، وصمت قليلا قبل أن يقول بصوت خافت لا يسمعه غيره:

- ماتموتش يا سيدي، سايق عليك النبي ما تموت، أنا ماقدرش اعيش من بعدك ساعة واحدة، ده انا بتاعك وعايش عشانك بس وماعرفش أعمل حاجة غير إني أخدمك وأعيش تحت رجليك، ماتموتش يا بيه، ده انت سيدي وسندي وتاج راسي وماعرفش حد غيرك، لا أب ولا أخ ولا مرة ولا ابن يسألوا عليا، عمري ما زعلت منك مهما عملت، وحتى في عز قسوتك كنت حنين عليا وعارف إنك بتحبني، مين بقى هيحبني من بعدك، مين هيشوفني أصلا وأنا مش مهم لأي حد.

اعتدل في جلسته وسار على ركبتيه حتى التصق بالفراش، والتقط يد مراد بك فوضعها بين يديه وخاطبه وهو يثق أنه سيسمعه:

- إنت جامد قوي يا سيدي، إوعى تخلي المرض يقدر عليك. ده انت لا المصايب هدتك ولا البشوات الكبار قدروا عليك، ولا بتوع التأميم كسروك. قول للموت مش مراد بيه اللي يسيب الدنيا بسهولة كده. لما مراد بيه اللي يموت مين يستاهل يعيش.

شعر ببرودة يد مراد وتسليمه لقدره المحتوم، فوضعها بجانبه في رفق، وأمسك بمنشفة طوح بها في حركات هستيريه:

- امشوا من هنا، مالكوش دعوة بيه، مراد بيه مش هيموت، لو عاوزين تموتوا حد موتوني أنا، موتوا الناس كلها وهو لأ، مراد بيه ماينفعش يموت، يلا امشوا من هنا. امشوا من هنا.

بعدها خارت قواه تماما وسقطت من يده المنشفة، وسقط على الأرض مغشيا عليه.

في قطعة أرض مواجهة للسراي نُصب صوان ضخم على مساحة شاسعة، كان الصوان به مئات المقاعد لكنه بدا شبه خالٍ إلا من عدد قليل من أهالي القرية، وغاب أقاربه عن العزاء تماما، بعدما وصلهم أنه كتب نصف ثروته لخادمه وأوصى بالنصف الآخر لأعمال الخير.

كان يوسف يقف بين الخدم مطأطئ الرأس؛ لا يتصور أنه وضع سيده في التراب بيديه. اضطر للقيام بهذه المهمة الثقيلة بنفسه مع التُربي بعدما غاب كل أقاربه ومعارفه عن الجنازة ولخوفه من أن يتعامل معه التُربي بخشونه تؤلمه.

أما الخدم فكان لا يشغلهم شيء سوى وصية البك ومستقبلهم في السراي، كما كان أهل البلد يتهامسون فيما بينهم عن النعيم الذي ينتظر يوسف بعد طول شقاء، حتى سرح بعضهم بخياله فأكدوا أن يوسف هو من دفع البك لكتابة الثروة باسمه، بعدما خف عقله في أواخر أيامه وبات أقرب الناس إليه وأكثرهم احتكاكا به، بل ووصل الأمر ببعضهم للتأكيد على أن يوسف هو من وضع وسادة على وجه سيده وكتم أنفاسه لاستعجاله إلى تنفيذ الوصية.

يوسف نفسه لم يكن يفكر في شيء إلا في الأيام السوداء التي تنتظره بعد وفاة سيده، والتي زادتها هذه الوصية الملعونة سوادًا، عرف أنه سيصبح مضغة يلوكها أهل القرية والقرى المجاورة في أفواههم، لذلك كان يتجنب النظر في أعين المعزّين كي لا يرى الأسئلة التي تقفز منها والحقد غير المبرر البادي فيها.

في اليـوم التـالي جـاء المحامـي ليعلـن الوصيـة رغـم أن هـذا الأمـر بـات تحصيـل حاصـل، فجميـع الخـدم والمترددين عـلى السراي وأهـالي القريـة والقـرى المجـاورة عـلى علـم بـكل مـا فيهـا، ويحفظونهـا ربمـا أكـثر مـن المحامـي نفسـه.

جلـس المحامـي في غرفـة المكتـب واثنـان مـن أولاد عـم مـراد وثلاثـة مـن أبنائهـم، يعشـمون أنفسـهم بـأن يكـون مـا سـمعوه عـن أمـر الوصيـة مجـرد شـائعة، ووقـف عـم يوسـف قريبـا مـن البـاب يتبـادل النظـرات القلقـة مـع أقـارب البـك، قـرأ المحامـي الوصيـة ليجـن جنونهـم بعدهـا، قـال أحدهـم إن الوصيـة باطلـة وإن مـراد كتبهـا في مـرض المـوت، لكـن المحامـي أكـد أنـه كان في كامـل قـواه العقليـة وهـو يكتـب الوصيـة ويسـجلها، وأن ذلـك حـدث قبـل مرضـه الأخـير بشـهور، فقـام واحـد منهـم إلى يوسـف أمسـكه مـن طـوق جلبابـه بعنـف وقـال في غضـب:

- إنـت يـا معفـن تاخـد نـص تركـة البيـه واحنـا ماناخـدش حاجـة؟ أكيـد انـت الـلي خليتـه يعمـل كـده، انطـق أحسـن لـك وقـول ازاي البيـه عمـل كـده.

لم ينطق عم يوسف بكلمة واحدة فواصل الرجل:

- خرسـت دلوقـتي بعـد مـا مليـت دماغـه بسـمك وكرهتـه فينـا؟ بـس ورحمـة أبويـا لأخـلي أيامـك الجايـة كلهـا سـودة، ومـا هاهنيـك عـلى مليـم واحـد مـن فلوسـنا.

وقف فهمي غاضبا ووجه حديثه إلى الرجل:

- لـو سـمحت يـا كامـل بيـه، ماينفعـش تعمـل كـده، الـلي انـت ماسـكه ده هـو صاحـب البيـت دلوقـتي، واحنـا كلنـا ضيـوف عنـده.

صدمته الكلمة فترك يوسف ونظر إلى المحامي قائلا:

- هي بقت كده؟ ماشي. نتقابل في المحكمة يا أستاذ، ماتفكرش ان الموضوع انتهى كده.

ثم اصطحب أقاربه وخرجوا والشرر يخرج من أعينهم التي لا تشي نظراتها بخير، فنظر فهمي إلى يوسف وحاول طمأنته:

- سيبك منهم يا عم يوسف، ولا يقدروا يعملوا لك حاجة.

- والله يا أستاذ فهمي ما عاوز أي حاجة من الورث ده، ولا عرفت حاجة عن الموضوع غير من البيه امبارح.

- إنت بتقول إيه يا عم يوسف؟ إنت ناسي إني محامي البيه وأكتر واحد عارف هو عمل كده ليه؟ ده غير إني عارف كمان إنك أكتر واحد خدمته وتستاهل تتمتع بخيره، تعالى عشان نكمل الإجراءات وتستلم أملاكك. بص يا سيدي، من النهارده السرايا دي كلها بتاعتك، ده غير المزرعة الستين فدان اللي على حدود البلد، و٣٥ فدان في زمام كفر الشيخ، و٣ عمارات في مصر، واسطبل الخيل، وحوالي ٢٧٠ ألف جنيه في البنك.

- يا سنة سودة، وأنا هعمل إيه بكل ده؟ لا لا لا يا بيه، أنا كفاية عليا ١٠٠ ولا ٢٠٠ جنيه أأمن بيهم نفسي من غدر الزمن، ومش عاوز حاجة من اللي انت بتقول عليه ده.

- هاهاها بقي باقول لك ٢٧٠ ألف جنيه غير السرايا والأطيان والعمارات، وانت تقول لي ١٠٠ ولا ٢٠٠ جنيه؟ إنت صبرت كتير وعمرك ضاع جنب مراد بيه وآن الأوان بقى تعيش لك يومين وتتمتع بفلوسك، وأول حاجة تعملها لازم تتجوز.

- أتجوز ايه بس يا بيه؟ بعد ما شاب ودّوه الكتاب؟ وبعدين

أنا كبرت وبقيت مكحكح، مين هترضى بيا؟

- لأ اتطمن، من ناحية اللي يرضوا بيك فهم بقوا كتير قوي، شاور انت بس على أي بت من بنات البلد، ولا حتى بنات مصر، وانت تلاقيها جاية تركع تحت رجليك، إنت ناسي إنك بقيت من الأعيان ولا إيه؟

- بس قرايب البيه عمرهم ماهيسيبوني في حالي، دول نابهم أزرق ومش هيرتاحوا غير لما يحطوا إيديهم على فلوس البيه كلها، لو وصلت حتى إنهم يقتلوني.

- ولا يقدروا يعملوا حاجة، اسمع كلامي أنا عارفهم، دول بتوع تهويش وجعجعة وبس، وبعدين خلاص ماعادش حاجة اسمها فلوس البيه، كلها بقت فلوسك بالقانون، ولو فكر حد منهم في يوم إنه يتعرض لك ولا حتى يمشي جنب سور السرايا بشرفي هحبسه. ماتقلقش، أنا من دلوقتي المحامي بتاعك، قالها ثم إبتسم وأمسك بيده كتف يوسف وضغط برفق مواصلًا: يعني يا يوسف بيه أنا شغال عندك بمرتب زي إبراهيم وسعدية كده.

- العفو يا بيه ده انت مقامك كبير عندي وربنا اللي يعلم، أهو أنا بقى خايف من سعدية وبقية الشغالين يمكن أكتر من خوفي من قرايب البيه.

- لو تحب نمشيهم من بكرة نعمل كدة ونجيب شغالين تانيين، أهو على الأقل علشان مايبقاش حواليك أي حاجة تفكرك بالماضي وتبدأ تركز في حياتك الجديدة.

- لا يا أستاذ فهمي كله إلا قطع العيش، وبعدين دول عشرة عمر، والعشرة ماتهونشي غير على ابن الحرام.

- أصيـل يـا عـم يوسـف. يـلا أسـيبك دلوقـتي تنـام وتسـتريح، عشـان أنـا كمـان عنـدي بكـرة لفـة كبـيرة هخلـص فيهـا إجـراءات الوصيـة علشـان كلـه يبقـى في السـليم، سـلام عليكـم.

انـصرف المحامي وتـرك يوسـف في حالـة إنـكار كاملـة لـكل مـا يـدور حولـه، لا يريـد أن يصـدق أي شيء ممـا يحـدث، ويتصـور أنـه في حلـم طويـل سـتوقظه منـه عصـا مـراد بـك وهـو يوبخـه عـلى تأخـر الإفطـار.

-٥-

كان عمي شحاتة يروي القصة بتأثر بالغ كأنه يتحدث عن شقيقه أو أحد الأقربين، يتحدث عن أقارب مراد بكراهية شديدة لأنهم ناصبوا يوسف العداء منذ علموا بأمر الوصية، رغم أنهم بالمنطق لم يطلبوا أكثر من تحكيم شرع الله في تركة مراد، يتكلم بإجلال واحترام شديدين عن المحامي لأنه ساند يوسف ودافع عنه في مواجهة خصومه، ويضع هالة من القدسية على يوسف نفسه، كأنه نبي أو قديس لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وبينما عمي مستغرق في حكاياته سمعنا صوت طرقات على الباب، قام هيثم وفتح الباب، وبمجرد ظهور شخصية الطارق انتفض عمي وجميع الجالسين قيامًا في وصلة ترحيب بالضيف الذي يبدو مهما.

- أهلا أهلا يا حضرة العمدة. خطوة عزيزة. اتفضل اتفضل.

هو عمدة القرية إذن، كنت أظن أن كلمة «العمدة» تلك أصبحت من التراث، ولم يعد لها وجود إلا في أفلام الأبيض والأسود، لكن ها أنا ذا أكتشف أن العمدة ما زال شخصية واقعية موجودة وتحتفظ بنفس القيمة والوقار، بل وأقرب إليّ مما أتصور، في قرية والدي، قريتي.

دخل العمدة غرفة الضيافة في منزل عمي، وسط زفة كبيرة من ٨ رجال بدا أنهم من أعيان القرية، لم يكن طاعنا في السن كما

هـي الصـورة الذهنيـة الـتي أحملهـا عـن أي عمدة، تـشي ملامحـه بأنه في الخامسـة والخمسـين تقريبـا، منتصـب القـوام، جامـد الملامـح، حليـق الذقـن والشـارب، تفـوح منـه رائحـة عطـر باريـسي نفـاذة، يرتـدي جلبابـا بلديـا، يحيـط برقبتـه شـال مـن الصـوف، تغطـي كل ذلـك عبـاءة سـعودية فخمـة، وتمسـك قبضتـه اليمـنى عصـا تعلوهـا رأس صقـر تمنحـه هيبـة ووقـارا إضافيـين.

جلـس العمـدة أولا ثـم جلـس الجميـع، وبينمـا أنـا جالس في مـكاني أراقـب هـذا المشـهد الفريـد جـاء عمـي شـحاتة فأخـذني مـن يـدي وأوصلـني إلى حيـث يجلـس العمـدة، وقدمـني إليـه:

- الدكتور خالد ابن المرحوم عبد الله.

سـلمت عليـه في ثبـات وسـلّم هـو دون أن يقـوم مـن مكانـه، ثـم وجـه حديثـه إليّ:

- البقية في حياتك يا دكتور، شد حليك.

- الشدة على الله، سعيكم مشكور.

قلتهـا ثـم حاولـت تـرك يـده والعـودة إلى مـكاني، لكنـه أطبـق عـلى يـدي وواصـل الحديـث:

- المرحـوم والـدك كان راجـل ونعـم النـاس. أي نعـم أنـا شـفته مـرة ولا اتنـين بـس أسـمع عنـه كل خـير، وكفايـة إنـه أخـو شـحاتة.

نظـرت إلى عمـي، لأنـني أعـرف أنـه لا يحـب أن يناديـه أحـد هكـذا باسـمه مجـردا دون أن تسـبقه كلمـة «حـاج»، لكنـني اسـتغربت حـين وجـدت فرحـة طفوليـة ارتسـمت عـلى وجهـه عـلى غـير عادتـه ربمـا مصدرهـا إشـادة العمـدة، ورد منتشـيا:

- ربنا يخليك يا حضرة العمدة ده من ذوقك وكرمك.

هز رأسه، ثم التفت وسألني:

- وانت تخصص إيه بقي يا دكتور؟

- باطنة.

- طيب يبقي أكيد هاحتاجك قريب عشان القولون بعيد عنك مبهدلني، ولفيت على دكاترة كتير بياخدوا الشيء الفلاني ولا حد منهم عمل حاجة، بس اوعى تكون زيهم انت كمان.

ضحك الجميع بصوت واضح ونفاق أكثر وضوحا، بينما اكتفيت بابتسامة باردة سحبت بعدها يدي من يده وعدت إلى مكاني، قائلا:

- ماتقلقش. بيقولوا عليا دكتور شاطر.

- كل الدكاترة بيقولوا على نفسهم كده، بس عمومًا أدينا هنجرب ونشوف.

ثم قام فجأة آخذا طريقه نحو الباب، وخلفه مرافقوه، وقال:

- يلا البقية في حياتكم مرة تانية ومانجيلكوش في حاجة وحشة.

حاول عمي أن يقنعه بالبقاء لدقائق حتى يشرب الشاي، لكنه كان قد خرج فعلا من باب الغرفة وألقى السلام. عاد أعمامي وأولادهم وبقية أقاربنا إلى أماكنهم، وقال عمي شحاتة بفخر:

- شفتم العمدة جه لحد عندي يعزيني في داري، مابيعملش كده مع أي حد، آخره يروح يعزي في مضيفة، لكن شحاتة عنده حاجة تانية.

لم يعجب الكلام عمي حسن فقال:

- إنـت محسسـني انـه الخليفـة العـادل، إيـش حـال لـو ماكانـش حرامـي وبالـع فلـوس وأرض البلـد كلهـا في كرشـه.

رد عمي شحاتة:

- وهـو يعـني كان بيمـد إيـده في جيـب حـد؟ كلـه برضـا النـاس وبمزاجهـم، ده هـم اللـي سـاعات بيتحايلـوا عليـه يشـتري أرضهـم كمـان علشـان يفكـوا ضيقـة.

- وإيـه اللـي بيخليهـم يعملـوا كـده؟ مـش لمـا يمنـع عـن أرضهـم المَيـه؟ ولا لمـا بيكلـم النصابـين شُركاتـه اللـي في بنـك التنميـة عشـان يرفعـوا عـلى الفلاحـين قـواضي بالديـون ويحبسـوهم؟ ولا لمـا يولـع في محصولهـم ويمايـن مـع المأمـور عشـان المحـضر يتقفّـل ضـد مجهـول؟ الفـلاح مـن دول هيعمـل ايـه سـاعتها غـير إنـه يـروح للعمـدة مـبروك ويبيـع لـه الأرض بالبخـس علشـان يرحمـه؟ والنـبي يـا حـج شـحاتة ماتخلينـاش نفتحـوا في كلام مالهـوش لازمـة.

- سـيبك مـن الـكلام ده كلـه، انـت الـلي طـول عمـرك كـده ماتحبـوش لله في لله وكأنـه مولـود فـوق راسـك.

- أنـا باكرهـه مـن عمايلـه السـودة، لكـن انـت بتحبـه علشـان ماجـاش لسـه ناحيـة أرضـك وأمـلاكك.

- ولا يقـدر ييجـي عليهـا لا هـو ولا عـشرة زيـه، أنـا مـش هفيـة، ويـوم مـا حـد ييجـي عـلى أرضي ولا يـدوس لي عـلى طـرف هكسر الدنيـا عـلى دماغـه، إنشـاالله يكـون رئيـس الجمهوريـة مـش حتـة عمـدة. وقفـل عـلى الموضـوع ده بقـى احنـا في عـزا.

شـعرت أن «عبـد الميـت» ليـس الحكايـة الوحيـدة المثيرة في هـذه القريـة، فمـا شـاهدته مـن تصرفـات العمـدة ثـم أحاديـث أعمامـي

عنه لم يجعلني أشعر بأنني في قرية صغيرة محدودة المساحة والسكان، لكن في جمهورية مستقلة لها حكامها وشعبها وهمومها واهتماماتها الخاصة جدا. خلال أربع وعشرين ساعة تقريبا لم أسمع ولو لمرة كلمة انتخابات أو ثورة أو إسلاميين أو إخوان أو عسكر، لم أسمع حتى اسم أي حزب أو جماعة أو حتى شخصية سياسية مشهورة، هنا المسائل محلية بحتة والاهتمام يقتصر على حدود القرية وناسها، وأنا الذي كنت أتصور أنه بعد ثورة ٢٥ يناير صار الحديث داخل كل بيت مقصورا على المسائل السياسية، والتنافسات الحزبية، والاستحقاقات الانتخابية.

قطع عمي حسن فترة الصمت التي سادت الغرفة بسؤال مفاجئ:

- إلا صحيح يا دكتور، ليه ماتجيش تعيش في البلد وتفتح لك عيادة هنا؟ ده لو حد جاله حبة مغص لازم يتبهدل ويروح كفر الشيخ علشان مافيش دكاترة باطنة خالص هنا في البلد، وأهو على الأقل تبقى وسط أهلك وحبايبك.

فاجأتني الفكرة، وقبل أن أنطق بأي كلمة بادر هيثم:

- بقى ده كلام يا عمي؟ يعني الناس كلها بتروح تشتغل وتعيش في مصر وانت عاوز خالد يسيب مصر وييجي يشتغل ويعيش هنا؟

احتد عمي شحاتة على هيثم وقال بغضب:

- وإيه اللي يمنع يعني؟ هي البلد دي مكتوب عليها على طول خيرها يطلع برة وولادها يخدموا الغريب ومايخدموش أهلهم؟ ولا عاوزه يعمل زي أبوه هو كمان ويفضل عايش في مصر طول

حياته ومايرجعش بلده غير علشان يتدفن؟ ده إذا أجيالكم أصلا فكرت تتدفن في بلادها يعني.

دار نقاش طويل بين كل الجالسين الذين انقسموا بين مؤيد ومعارض للفكرة، كل يدلي بدلوه في الموضوع بينما كنت أتابع أنا كل الآراء باهتمام وصمت، كان العرض مفاجئا لكنه لم يضايقني ولم أشعر تجاهه باستنكار أو رفض مبدئي، واستمر الأمر كذلك حتى لاحظ هيثم أنني الوحيد الذي لم يتكلم ويدلي برأيه في الموضوع، رغم أنه يخصني شخصيا، فسألني عن رأيي وما إذا كنت مستعدا بالفعل لترك القاهرة والعيش والعمل في القرية أم لا، لم أكن مستعدا لخوض مناقشة من هذا النوع الآن، فقلت إنه ليس الوقت المناسب لمناقشة مواضيع كتلك، عندها شعر الجميع بإحراج شديد بعدما اكتشفوا أنهم نسوا الرجل الذي لم يستقر في قبره بعد، ودخلوا في نقاشات أخرى جانبية وهامشية.

كان مخرجًا مريحًا أغلق الموضوع مؤقتا حتى أفتحه أنا مع نفسي لاحقا، بعيدا عن هذا الصخب وتلك المؤثرات.

-٦-

كانت أحداث محمد محمود بداية علاقتي بالمستشفيات الميدانية، اتصل بي طبيب زميل دفعة اسمه أشرف مصطفى وطلب مني النزول فورا إلى المستشفى الميداني الموجود في شارع يوسف الجندي، لأن عدد المصابين أكبر كثيرًا من أن يستوعبه الأطباء الموجودون، حاولت إقناعه بأنني لا أتقاعس، لكني طبيب باطنة وهذه النوعية من الإصابات تحتاج جراحين مختصين، لكنه أصر بإلحاح وأكد لي أن المستشفى به أطباء أسنان وأنف وأذن يقومون بعمليات الإنقاذ، فالوضع لا يحتمل رفاهية النظر في التخصص.

وافقت لأنه لم يكن بإمكان أي طبيب يحترم مهنته أن يرفض طلبا كهذا، ونزلت من البيت قاصدا ميدان التحرير. لا أدعي أنني كنت أحد المشاركين الفاعلين في الثورة، لكن الأكيد أنني كنت واحدا من جمهورها، نزلت الميدان أول مرة بعد موقعة الجمل، ما يعني أنني تخلفت عن أهم أيامها في ٢٥ و٢٨ يناير و٢ و٣ فبراير، وبعدما أصبح النزول بلا ضريبة. وبعد نجاح الثورة والتنحي كنت أتابع ما يحدث من اشتباكات وأحداث باهتمام عبر التليفزيون ومواقع التواصل، وأغضب بشدة ممن جعلوا الثورة تنحرف عن مسارها وأهدافها، لكن أخيرا، وبعد دقائق سأكون طرفا في الحكاية بالصدفة، وبصفتي طبيبا لا ثائرا.

وصلت إلى مدخل الميدان من ناحية جامعة الدول العربية لأجد نفسي أمام مشهد سينمائي تماما كالذي أراه في أفلام

الأكشـن الأمريكيـة، سـماء مغطـاة بسـحب كثيفـة تتعانـق فيهـا أدخنـة الغـاز المسـيل للدمـوع وإطـارات الكاوتشـوك المحترقـة، مـع أدخنـة الأخشـاب والأوراق الـتي أشـعلها المتظاهـرون لإضـاءة الميـدان بعـد انقطـاع الكهربـاء عنـه، أمـا الأجـواء فكانـت موحشـة قابضـة تتداخـل فيهـا أصـوات الرصـاص مـع صرخـات الغاضبـين وطرقاتهـم عـلى أعمـدة الإنـارة.

أدركـت أن شاشـة التليفزيـون لا تمنـح المشـهد الجـلال الـذي يسـتحقه، الواقـع يضعـك فـورا أمـام مشـاعر متداخلـة بـين الرغبـة في أن تكـون أحـد أبطالـه، والخـوف مـن أن تكـون أحـد ضحايـاه.

أخرجـت هاتفـي وكلّمـت أشرف لإخبـاره بوصـولي، وصـف لي مـكان المستشـفى فـسِرت تجاهـه ببـطء شـديد رغـم مطالبتـه لي بـالإسراع، فـكل تفاصيـل المـكان تسـتدعي التأمـل، وكل الوجـوه الواثقـة والضاحكـة والمذعـورة والملطخـة بالدمـاء، الـتي قابلتهـا، تقـول كلامـا يجـب الإنصـات إليـه، عرفـت مـكان المستشـفى مـن الزحـام الشـديد حولـه، وقبـل بلوغـه بأمتـار وجـدت مـن يدفعـني بقـوة مـن الخلـف، ثلاثـة شـبان يحملـون صبيـا وحولهـم مجموعـة أخـرى يصرخـون بهسـتيريا لإخـلاء الطريـق، أدخلـوه المستشـفى والـدم يغطـي رأسـه بالكامـل، حيـث لا يكـسر اللـون الأحمـر سـوى بيـاض عينيـه الزائغتـين.

- خَد نُص بلاطة في دماغه. إلحقوه أبوس إيديكم بيموت.

قالهـا أحـد مرافقيـه فـترك كل الأطبـاء الحـالات الـتي بـين أيديهـم، وهرولـوا سريعـا ناحيـة الصـبي المصـاب الـذي لا يتجـاوز السـتة عـشر عامـا، أخرجـت البالطـو الأبيـض مـن حقيبـة ظهـري وارتديتـه سريعـا وبـدأت أطالـع إصابتـه البالغـة، كان أحـد الأطبـاء يحـاول

إزالة الدم للوصول إلى مكان الإصابة، وبعد إزالة جزء منه ظهر مخه من الجمجمة المكسورة.

أدرك الجميع أن الحالة أكبر من إمكانيات مستشفى ميداني، وهموا بطلب سيارة إسعاف تنقله لأقرب مستشفى، هذا ما قلناه لمرافقيه والشباب الملتفين حولنا، لكننا كنا نعلم أنه يحتضر وقد يفارق الحياة قبل أن يصل المستشفى، نظرت إلى أشرف ونظر إليّ دون أن ننطق بكلمة، أمسكت بيد الصبي ووضعتها بين كفّي، وجدت على ذراعه شيئا مخطوطا بالقلم الجاف، رفعت ملابسه وقرأت المكتوب: «أحمد عبد الباري حشاد. شارع السوق القديم بالمطرية. ٠١٢٤٤٣٦٨٧٥».

كنت تعلم أنك ربما تعود لأهلك جثة هامدة وكتبت إلينا ما يساعدنا في الوصول إليهم، فلماذا نزلت يا بُني؟ لماذا لم تترك المهمة لمن هم أكبر سنا وتكتفي بمتابعة الأحداث في التليفزيون كما كنت أفعل أنا حتى قبل دقائق من الآن؟ متى تعلمت أصلا أن الثورة على الظلم واجبة ونُصرة الحق فريضة؟ وما الذي رأيته في سنوات عمرك القليلة يجعل الموت عندك أفضل من مواصلة الحياة على النحو نفسه؟

كان أحد زملائنا يربط دماغه والآخر يطمئن على ضربات قلبه، ناديت على أشرف لأريه المكتوب على ذراع الصبي فوجه حديثه لأحد مرافقيه قائلا:

- سجلوا البيانات بتاعته دي، بس ماتتصلوش بالرقم غير لما الإسعاف تاخده وتعرفوا انتو في مستشفى إيه، علشان ماتبهدلوش أهله على الفاضي.

تعجبت من تعامل أشرف البارد والأوتوماتيكي مع الموضوع،

فقـد كان كلامـه رسـميا مـنزوع العواطـف، رغـم أن الحالـة تجـبرك عـلى التعاطـف معهـا والتأثـر بهـا والبـكاء عليهـا، لكنـني عرفـت سـبب ذلـك فيمـا بعـد. وصلـت سـيارة الإسـعاف وحملنـا الصـبي إليهـا بحـرص وفي غضـون ثـوان كانـت قـد خرجـت مـن الشـارع وغابـت عـن الأنظـار، فجلسـت عـلى مقعـد في جانـب الخيمـة وأفلتـت مـني دمعـة سـارعت بمسـحها، لكـن أشرف كان قـد رآهـا فاقـترب مـني وربـت عـلى كتفـي، وقـال:

- اجمـد اجمـد، انـت لسـه شـفت حاجـة؟ ده احنـا بقالنـا يومـين عـلى كـده.

سـحب مقعـدا ملطخـا ببقـع كثـيرة مـن الدمـاء وجلـس بجانـبي، لـم يهتـم بتنظيـف المقعـد ولـم أهتـم بتنبيهـه، أخـذ يحـكي عـن المواقـف الـتي عاشـها في اليومـين الأخيريـن، عـن الحـالات الـتي أنقذهـا مـن مـوت محقـق، والـتي لـم يسـتطع فماتـت بـين يديـه، تحـدث عـن مشـاعره الـتي تآكلـت مـع كـثرة الدمـاء، وخوفـه مـن التحـول إلى آلـة لا تتأثـر بـأي شيء، وخبرتـه الإضافيـة الـتي اكتسـبها مـن العمـل في المستشـفيات الميدانيـة، والكافيـة لتغيـير نشـاطه إلى طبيـب جـراح بـدلا مـن تخصصـه الأصـلي كطبيـب مـخ وأعصـاب.

لاحظـت امتـلاء الخيمـة بحـالات كثـيرة، فطلبـت منـه القيـام لإسـعاف المصابـين لأننـا لسـنا هنـا لفتـح ألبـوم الذكريـات، ابتسـم ابتسـامة مـن يعاملـني كمسـتجد وقمـت إلى مصـاب يعـرّي ظهـره كاشـفا عـن إصابـات كثـيرة بالخرطـوش، أخرجت حـوالي ١٢ بليـة، بينما هـو لا يهتـم لمـا أفعـل وينشـغل بحـوار ضاحـك مـع صديقـه حـول تقدمـه مـع عـدد كبـير مـن المتظاهريـن داخـل الشـارع، واكتشـافه فجـأة أنـه أصبـح عـلى بعـد أمتـار قليلـة مـن عسـاكر الأمـن، بينمـا

رفاقـه تراجعـوا إلى الخلـف دون أن يلحظهـم ليصبـح وحـده في مواجهتهـم، وهرولتـه إلى مدخـل عمـارة وعـدم معرفتـه بإصابتـه إلا عندمـا شـعر بدمـاء سـاخنة عـلى ملابسـه.

كان يضحـك بصـوت مسـموع هـو وصديقـه، بينمـا الدمـوع تنهمـر مـن عينيـه الحمراوتيـن بصـورة لا إراديـة، بفعـل الغـاز الكثـير الـذي استنشـقه في أثنـاء المعركـة.

- تسلم يا كبير، نجاملك في الأفراح ان شاء الله.

قالهـا مبتسـما بعدمـا أبلغتـه بانتهـائي مـن تضميـد جراحـه، ثـم خلـع صديقـه قميصـا كان يلبسـه فـوق «تي شـيرت» آخـر، منحـه إيـاه ليرتديـه بـدلا مـن ملابسـه الـتي تمزقـت، وقـال لـه:

- خلـلي بالـك بقـى يـا خويـا، مـش هنفضـل طـول الليـل رايحـين جايـين عـلى المستشـفى.

سألت الشاب المصاب مدهوشًا:

- إنت لسه هتدخل تاني؟

- أومال!

قالهـا دون أن ينظـر إليّ ثـم تحـرك مـع صديقـه بخطـوة سريعـة أقـرب إلى الجـري، وذابـا سريعـا وسـط الجمـوع.

مـرت الليلـة سريعـا بفضـل أحداثهـا المتلاحقـة، تـوفي ثلاثـة أشـخاص أمـام عيـني وكنـت شـاهدا عـلى آخـر زفـير لهـم في الدنيـا، بعـد سـاعات قليلة اكتسـبت خـبرة في التعامـل مع المصابـين وخياطة الجـروح، وأصبحـت قـادرا عـلى التفريـق بـين أنـواع الخرطـوش، لكـن التأثـر والتماهـي مـع المصابـين والقتـلى كان يقـل تدريجيـا، فهمـت مـا قالـه أشرف عندمـا رآني أبـكي أول مـرة قبـل سـاعات، وتفهمـت

حركاته الأوتوماتيكية التي كنت أعيبها عليه في السابق، نعم هي ليلة واحدة، لكنها بألف مما تعدون.

- برضه نزلت التحرير؟

جاءني صوت سارة غاضبا عبر الهاتف، كنت قد تركت لها رسالة في مفكرة ممغنطة على الثلاجة تخبرها بمكاني، فبحكم عملي كنت أقضي وقتا طويلا خارج المنزل، وبحكم ارتباطها المبالغ فيه بعائلتها كانت تقضي معظم الوقت في منزل والدها القريب من شقتنا، لذلك كانت هذه هي الطريقة المثلى للتواصل.

أعرف أن هذا الغضب لا يحركه خوفها من تعرضي لمكروه في الميدان، بل مدفوع بكراهيتها الفجة لثورة يناير وميدان التحرير رمزها الأهم، والد سارة هو المهندس عاطف أبو المجد، أحد قيادات الحزب الوطني بمحافظة الجيزة، ويملك مصنعا كبيرا للعصائر بالسادس من أكتوبر، خسر انتخابات البرلمان عام ٢٠٠٠ كمستقل، وبعدها بعامين انضم للحزب الوطني بعدما أدرك أنه الطريق الأقصر للصعود السياسي، وفي ٢٠٠٥ ترشح باسم الحزب لكنه أيضا خسر أمام مرشح الإخوان.

أصيب بصدمة كبيرة وقتها، لكنه تجاوزها سريعا وواصل العمل وتكوين العلاقات والتقرب إلى دوائر صنع القرار، وقبيل انتخابات ٢٠١٠ بقليل ظهر له منافس قوي داخل الحزب، هو كامل طاحون صاحب سلسلة المطاعم المشهورة، والذي سعى بكل قوة ليكون مرشح الحزب على المقعد الذي ترشح عليه حماي في المرتين السابقتين، مستغلا علاقته القوية بأمين التنظيم، لكن المهندس عاطف حسم الأمور تماما لصالحه

عندما تبرع للحزب بمبلغ ضخم رجح كفته ففاز بعدها في المجمع الانتخابي بسهولة، ليخوض الانتخابات وينجح ويحقق أخيرا حلمه الذي تأخر ١٠ سنوات ويحصل على لقب «سيادة النائب».

لكنه لم يكن يعلم أن فرحته لن تدوم طويلا، فبعد دخوله مجلس الشعب بأقل من شهرين اندلعت ثورة ٢٥ يناير، كان يطمئن نفسه في البداية بأنها «هوجة وهتعدي»، وحتى عندما تفاقم الوضع في ٢٨ يناير ظل متماسكا في النصف الأول من اليوم وهو يتابع المظاهرات على الهواء ويؤكد للمحيطين به أن «الريس هيلمها ان شاء الله»، حتى علم من بعض أصدقائه النواب، بعد خطاب مبارك في المساء، أن مسؤولين كبارا أبلغوهم أن المجلس في طريقه إلى الحل، وبذلك ضاع كل الجهد والمال الذي أنفقه في الهواء، وبعدها بلحظات سقط فاقدا الوعي.

تأكدت من خلال الفحص المبدئي أنه مصاب بذبحة صدرية حادة، وطلبت من أبنائه الإسراع بنقله إلى المستشفى لوضعه في العناية المركزة، لكن السير في الشوارع وقتها كان مخاطرة، فأعمال السلب والنهب مستمرة، وأصوات الرصاص مجهول المصدر لا تتوقف، ولذلك أحضر محمود شقيق زوجتي مسدسه المرخص، واتصل بأبناء عمه على الهاتف الأرضي بسبب انقطاع خدمة الهواتف المحمولة، وطلب منهم إحضار أسلحتهم وسيارتين والمجيء لتأمين نقل والده إلى المستشفى.

في هذه الأثناء كنت أجري اتصالات بكل المستشفيات القريبة للبحث عن غرفة عناية مركزة شاغرة نذهب إليها مباشرة، لكن محاولاتي باءت بالفشل، لذلك لم يكن أمامنا خيار سوى الخروج

بحماي المريض والتنقل بين المستشفيات، بحثا عن غرفة عناية تنقذ حياته التي أصبحت على المحك.

كنا نسير في ما يشبه الموكب، السيارة التي أركبها مع حماي وحماتي وولديه محمود وشريف في المنتصف، وأمامنا وخلفنا سيارتان لأبناء عم زوجتي. المشهد من حولنا ينافس كل أفلام هوليوود، غالبية الشوارع يسيطر عليها الظلام الدامس، ألسنة النيران وأعمدة الدخان تخرج من كل المباني الحكومية وأقسام الشرطة، الجو يمتلئ بسحب كثيفة من الغاز المسيل للدموع، وأصوات الرصاص تجعلك تتوقع أن تأتيك رصاصة طائشة من أي اتجاه.

توقفنا أمام مستشفى في المهندسين، نزل محمود ودخل من الباب الرئيس، وبعد أقل من دقيقة خرج مسرعا ليخبرنا بعدم وجود غرف عناية شاغرة، تكرر الأمر بنفس الصورة مع ٤ مستشفيات أخرى، حتى عثرنا أخيرا وبعد أكثر من ساعتين على غرفة في مستشفى خاص صغير بشارع الهرم.

بعد أن استقر الرجل على فراشه دخلت في حوار مع الطبيب المعالج، أكد لي أنه لا خطورة على حياته، وبحلول الصباح ستستقر الحالة إلى حد كبير، لكنه سيحتاج للبقاء في العناية المركزة ٧٢ ساعة على الأقل، تحسبا لأي انتكاسات مفاجئة، ثم تطرق للحديث عن هذا اليوم الصعب الذي لا تريد شمس اليوم التالي أن تكتب نهايته، وعن استقبالهم عشرات المصابين في الاشتباكات رغم رفض إدارة المستشفى، في الواقع لم يكن لديهم خيار آخر أصلا، فمن ناحية ضميرهم المهني لا يسمح بترك المصابين يموتون على أبواب المستشفى، ومن ناحية

أخرى أصدقاء وأهالي المصابين كانوا سيحطمون المستشفى على أدمغتهم إذا هم رفضوا.

في الأسابيع التالية تلقى المهندس عاطف ضربة جديدة من الثورة، مصنع العصائر الذي يمتلكه كان يعتمد بشكل أساسي على تصدير منتجاته للدول العربية القريبة، وبعد وصول الربيع العربي لليبيا وسوريا واليمن انخفضت صادراته بشدة، وأصبح معتمدا على السوق المحلية فقط، وبسبب روح الاحتجاج التي زرعتها الثورة في النفوس نظم عمال مصنعه اعتصاما طويلا أوقفوا خلاله الإنتاج، وطالبوا بزيادة رواتبهم وحوافزهم وامتيازات مادية أخرى استجاب إليها في النهاية مرغما، ومع زيادة التزاماته وتوقف التصدير إلى دول الثورات اضطر لبيع بعض خطوط الإنتاج وتخفيض العمالة، مع دفع تعويضات للعمال الذين قام بتسريحهم.

في غضون شهور قليلة خسر حماي أكثر من نصف ثروته، فضلا عن خسارة نفوذه السياسي ومقعده البرلماني، وكل ذلك جعل كلمة «ثورة يناير» من المحرمات عند أسرة زوجتي، ذكرها غير مسموح إلا بالشر.

- أيوه.. زمايلي كلموني وطلبوا مني أنزل ضروري علشان فيه مصابين كتير وعدد الدكاترة قليل.

قلتها بهدوء محاولا نزع فتيل معركة لست مستعدا لها بعدما أرهقتني الساعات الماضية بدنيا ونفسيا، لكن المحاولة لم تنجح، لأن سارة انفجرت غاضبة وكالت السباب للثورة وبلطجيتها وتمنت الموت لمصابيها والهلاك لمؤيديها، أبعدت سماعة الهاتف عن أذني لأتجنب اللكمات الصوتية القادمة عبرها فلا أكون مضطرا

للـرد، ولكـن محـاولاتي انهـارت بعـد ثـوان فوضعـت إصبعـي عـلى زر إنهـاء المكالمـة، وضغطـت ضغطـة طويلـة عـلى زر إغـلاق الهاتـف وأخفيتـه في جيـبي، عـدت إلى أشرف واسـتأذنته في الانـصراف فوافـق متفهمـا، خصوصـا أن معـدل وصـول المصابـين قـل كثـيرا في السـاعة الأخـيرة مـع تراجـع حـدة الاشـتباكات، سـألني:

- هاشوفك بكرة؟

تجولـت بعيـني في أركان الميـدان واسـتقر بـصري عـلى بقـع الدمـاء الـتي تجلطـت عـلى مقاعـد المستشـفى، تحسسـت بيـدي موضـع الهاتـف المحمـول متذكـرا سـارة والمعركـة الـتي تنتظـرني في البيـت، ثـم نظـرت إليـه مبتسـما واهـتزت رأسي لاإراديـا بإشـارة الإيجـاب.

-٧-

قابلت سارة أول مرة في ساعة متأخرة من الليل في استقبال مستشفى خاص بالمهندسين، دخلت مسرعة مع صديقتها يارا المصابة بآلام حادة ومفاجئة في البطن وطلبت مني فحصها بسرعة، كانت مضطربة وخائفة أكثر من صديقتها المريضة وتلح عليّ لمصارحتها بحقيقة الحالة ومعالجتها سريعا، أيا كانت التكاليف، ونقلها إلى مستشفى أكبر إذا لزم الأمر، بعد الفحص المبدئي طمأنتها بأن صديقتها مصابة بنزلة معوية بسيطة نتيجة تناولها طعاما ملوثا، وأنها ستصبح بخير بمجرد إعطائها بعض الأدوية المطهرة للمعدة والأمعاء.

استمرَّت في متابعة حالة صديقتها حتى تأكدت أنها آخذة في التحسن، هدأت قليلا وسحبت مقعدًا وضعته بالقرب مني وجلست، راقبتُ خلسة حركات عينيها التي كانت تنظر إليّ باهتمام، وتصنعتُ الانشغال بقراءة بعض الأوراق الموجودة أمامي، وعندما يئست في لفت انتباهي بدأت هي في الحديث:

- متشكرة جدا يا دكتور خالد.

نظرتُ إلى بطاقة التعريف المعلقة على صدري ثم نظرت إليها مبتسما:

- على إيه ده شغلي.

- لا بس احنا تعبناك جدا، وكمان قلقناك في وقت متأخر.

- قلقتوني في وقت متأخر؟! ده على أساس إنكم جايين تزوروني

في البيت؟!

أطلقت ضحكة عالية مميزة لفتت انتباه بقية الأطباء والمرضى، ثم انتبهت ونظرت إلى المكان وإلى صديقتها المستلقية على الفراش المقابل، وحاولت إخفاء حرجها والعودة إلى الجدية.

- أصلك مش عارف يارا دي غالية عليا ازاي. دي أقرب صاحبة ليا، تقريبا ماليش صاحبة غيرها.

- هي صاحبتك؟ أنا من كتر قلقك عليها افتكرتها أختك.

- ما هي فعلا أكتر من أختي، انت مش متخيل. إحنا نعرف بعض من ساعة ما كنا في الحضانة، ومافيش يوم تقريبا مش باشوفها فيه، وعمرنا ما زعلنا من بعض مهما حصل.

- ربنا يخليكم لبعض، يا بختها بيكي ويا بختك بيها.

استمرت سارة في الحديث عن علاقتها بيارا، وعن والدها رجل الأعمال المشهور، وعن دراستها وحياتها وأحلامها وخططها للمستقبل، ومواصفات الشاب الذي تريد الارتباط به، دُهِشت من استغراقها في الحكايات لهذه الدرجة، رغم أن معرفتنا لم تتجاوز الساعة، ولا تتعدى علاقة طبيب بمرافقة إحدى مريضاته، رغم ذلك كانت كلما شارفت على إنهاء موضوع بحثت عن موضوعات أخرى تضمن لها استمرار الحديث ومواصلته لأطول وقت ممكن، وحتى عندما كنت أستأذنها لفحص أحد المرضى أو الرد على الهاتف، كانت تعود لتواصل من نفس النقطة التي توقفت عندها بمجرد عودتي.

تحسنت حالة يارا كثيرًا وأصبحت قادرة على السير دون مساعدة، طلبَت من سارة المغادرة إلى بيتها لحاجتها إلى

نـوم هـادئ بعيـدا عـن أجـواء المستشـفى، قاومـت سـارة رغبتهـا بشـدة وحاوَلـت طويـلا إقناعهـا بالبقـاء والصعـود إلى إحـدى غـرف المستشـفى، لحـين الاطمئنـان عليهـا تمامـا وإجـراء كل الفحوصـات اللازمـة، لكـن يـارا صممـت بشـدة عـلى المغـادرة، طلبـت مـني سـارة رقـم هاتفـي للرجـوع إليّ في حالـة حـدوث أي طـارئ لصديقتهـا، أعطيتهـا إيـاه رغـم تأكـدي مـن أن الحالـة لا تسـتدعي كل هـذا القلـق، وتأكـدي أيضـا مـن أن هـذا ليـس السـبب الـذي طلبـت رقمـي مـن أجلـه.

لم أكن مستاءً على أي حال، ولكن لم أكن سعيدًا أيضا.

كانـت الشـمس ترسـل أشـعتها الأولى حـين صعـدت إلى غرفـة الأطبـاء لتغيـير ملابـسي والاسـتعداد للعـودة إلى المـنزل، بعـد سـهرة شـاقة، لكـن طيـف سـارة اسـتقر في عقـلي بشـكل عجيـب وأبى أن يغـادره، لسـت مـن الشـباب المغرمـين بالفتيـات، صعـب جـدا أن أنجـذب لأيهـن، لـم يحـدث ذلـك أصـلا سـوى مـرة واحـدة، زميلـة دراسـة كانـت تكـبرني بعامـين، انجذبـت إليهـا لفـترة لم تتجـاوز فصلاً دراسـيا واحـدا، وانتهـى كل شيء دون حـتى أن أصارحهـا بمشـاعري، ومـن بعدهـا لـم يحـدث أن انجذبـت لأي فتـاة مجـددا، وانحـصرت علاقـاتي بالجنـس الآخـر في إطـار الزمالـة والصداقـة والعمـل.

لكن سارة كانت مختلفة.

أعجبـت بقـوة شـخصيتها وجرأتهـا واعتزازهـا بنفسـها، احترمـت حبهـا لأسرتهـا ودراسـتها وصديقتهـا، أدهشـتني قدرتهـا عـلى صياغـة أفكارهـا وترتيـب كلامهـا بحيـث لا يصيبـك الملـل مهمـا استرسـلت في الحديـث، أحببـت براعتهـا في اسـتخدام لغـة الجسـد وتعبـيرات الوجـه وتـراوح عينيهـا بـين الضيـق والاتسـاع، بحيـث تحـوّل أي حكاية

إلى مشـهد مسرحـي أخـاذ.

بالتأكيـد لا يمكـن أن يكـون ذلـك حبـا مـن أول نظـرة، مجـرد إعجاب بشـخصية مختلفـة اقتحمـت حيـاتي دون ترتيـب، واحـترام لقدراتهـا الخاصـة وعقليتهـا اللافتـة، أو هكـذا حاولـت إقنـاع نفسي.

اكتشـفت أنـني قضيـت وقتـا أطـول مـن المعتـاد في تغيـير ملابسي، أكملـت الأمـر عـلى عجـل وأنـا أبحـث لعقـلي عـن موضوعـات أخـرى ينشـغل بهـا، بعيـدا عـن الفتـاة الـتي ظهـرت في حيـاتي فجـأة، وربمـا ينتهـي الأمـر عـلى ذلـك ولا أقابلهـا مجـددا، لكـن قبـل أن أعـثر عـن موضـوع أفكـر فيـه رن هاتفـي المحمـول، أخرجتـه مـن حقيبـة يـدي ونظـرت في الشاشـة، لـم يكـن الرقـم مسـجلا عـلى ذاكـرة الهاتـف، لكنـه كان ممـيزا جـدا.

فتحت الخط فإذا بآخر شخص توقعت أن أسمع صوته الآن:

- صبـاح الخـير يـا دكتـور أنـا آسـفة إني بازعـج حضرتـك تـاني. أنـا سـارة الـلي جيـت لحضرتـك مـن شـوية مـع صاحبـتي.

لـم أكـن محتاجـا لتعرّفـني بنفسـها، فقـد مـيزت صوتهـا مـن أول كلمـة، فلـم يغـادر أذنيّ أصـلا منـذ تركتـني وحـتى اتصلـت، حاولـت أن أبـدو جـادا لـكي لا تكشـف نـبرة صـوتي عمـا كنـت أفكـر فيـه منـذ لحظـات:

- أهـلا آنسـة سـارة فاكـرك طبعـا. خـير؟ الآنسـة يـارا فيهـا حاجـة؟ حسـت بـأي ألـم؟

- لا خالـص، يـارا ارتاحـت جـدا ونامـت. أنـا بـس كنـت بتأكـد إن الرقـم الـلي اديتهـولي شـغال، علشـان يعـني لـو حسـت بـأي حاجـة في أي وقـت أبقـى أتصـل بيـك عـلى طـول.

ابتسمتُ وصمتُّ لثوان عدة قبل أن أجيب:

- أيوه هو ده رقمي وتقدري تتصلي بيا طبعا في أي وقت، لو لا قدّر الله حصل أي حاجة. بس إن شاء الله ده مش هيحصل لأن الحالة استقرت وأنا مطمئن عليها جدا. المهم بس تخلي بالها من الأكل وتاكل بس الحاجات اللي كتبتها لها، لمدة ٣ أيام على الأقل علشان ماتتعبش تاني. وطبعا تاخد العلاج في مواعيده اللي قلت لك عليها.

- لا ماتقلقش، أنا كده كده هافضل معاها لحد ما تخف خالص، وهاتابع بنفسي كل حاجة أول بأول.

- عظيم.

صمتنا لثوان كأن كلينا يبحث عن كلام جديد يطيل به وقت المكالمة، وقطعت سارة الصمت بلهجة آمرة جعلها الدلال محببة:

- سجل بقى رقم موبايلي علشان لما أكلمك تاني ترد عليا على طول.

- حاضر، مجرد ما تقفلي هاسجله على طول.

أغلقت الخط ونظرت بشرود في شاشة الهاتف، فيبدو أن الأمر لن يكون مجرد لقاء عابر في قسم الاستقبال.

-٨-

أنهى يوسف إجراءات الوصية، بعد رحلة استمرت يومين وزار خلالها عددا من المصالح الحكومية بصحبة محاميه فهمي، لكن أسوأ ما في الرحلة كانت نظرات الموظفين إليه، إذ وصل الخبر إليهم وعرفوا أن الخادم الفقير قد أصبح من الأعيان بعدما منّ عليه سيده الراحل بنصف ثروته، بدت البغضاء في نظراتهم والحقد والغيرة في كل تصرفاتهم، حتى إنهم كانوا يتعمدون كثيرا تأخير الأوراق عندهم أو تركه منتظرا أمامهم لأطول فترة ممكنة دون مبرر، ولولا حدة فهمي في التعامل معهم، والشكوى لرؤسائهم أحيانا، لما انتهت الإجراءات في شهر كامل.

وصل يوسف إلى السراي أخيرا بصحبة فهمي بعدما أنهى الإجراءات، وكان قد قضى اليومين الماضيين في شقة صغيرة مملوكة لفهمي بمدينة كفر الشيخ، حتى يكون قريبا من المصالح الحكومية الموجودة في المركز، بدلا من إضاعة الوقت في التنقل بين القرية والمدينة يوميا. في مدخل السراي وجد مقعد سيد الخفير فارغًا، بينما كان فرج يقوم بتقليم الأشجار الموجودة في الحديقة، سأله يوسف عن سبب تغيب سيد عن مقعده، فأجابه بعدما وضع المقص على الأرض ومسح عرقه بطرف ثوبه:

- سيد ساب الشغل، عنده ظروف ومشاكل كده في البيت ومش هيقدر يكمل.

- ظروف ومشاكل ولا مش عاوز يشتغل معايا؟

- كل واحد ينام على الجنب اللي يريحه يا عم يوسف (ثم استدرك وهو ينحني لالتقاط المقص) قصدي يا يوسف بيه.

نظر يوسف إلى فهمي بأسى حتى كادت عيناه تدمعان، فيما صرف الأخير نظره إلى باب السراي المفتوح وربت على كتفه مطالبا بالتحرك.

دخلا من الباب فوجدا في استقبالهما سعدية وكوثر وهانم وإبراهيم الطباخ، هنأ الجميع يوسف بالوضع الجديد، وحاولوا نسيان أن هذا الذي سيدفع رواتبهم من الآن كان في السابق أحد زملائهم في خدمة البيه، وحدها كوثر لم تشترك في الحوار واكتفت بنظرة شبه ساخرة، فحصته فيها من أعلى لأسفل عدة مرات، قطع يوسف حديث الجميع ونظرات هانم بسؤال مفاجيء:

- يونس فين هو كمان؟

رد إبراهيم:

- يونس السفرجي؟

- هو احنا عندنا ١٠٠ يونس؟

ساد الصمت المكان وبدأوا في النظر إلى بعضهم البعض قبل أن تُجيب سعدية:

- جت له شغلانة تانية. سلم العهدة ومشي.

احمرّ وجه يوسف وأطلق زفيرا غاضبا، ثم توجه نحو المكتب وأغلق الباب خلفه بعنف، تبعه فهمي بعدما طلب منهم مباشرة أعمالهم والحرص على إبقاء السراي على ما كانت عليه في حياة مراد بك، كان يوسف يقف مستندا على مقعد عال في

أحـد أركان المكتـب مطأطئًا رأسـه، حيـث أغلـق فهمـي بـاب المكتـب برفـق ووقـف أمامـه مبـاشرة، واسـتمرا عـلى هـذا الوضـع دقيقـة كاملـة قبـل أن يبـدأ المحامـي حديثـه:

- إيه يا عم يوسف؟ إيه اللي مضايقك بالشكل ده؟

- يعني مش عارف فيه إيه يا أستاذ فهمي؟

- إيه المشكلة يعني؟ اتنين سابوا الشغل؟ بكرة هييجي غيرهم.

رفع يوسف نظره بحدة في اتجاه فهمي:

- لا يـا سي الأسـتاذ. المشـكلة مـش في مـين يمـشي ومـين ييجـي. المشـكلة إني هعيـش الـلي بـاقي مـن حيـاتي كـده. كل النـاس يـا إمـا بيكرهـوني، يـا إمـا عاملـين نفسـهم بيحبـوني علشـان عاوزيـن مـني حاجـة، فكـرك الـلي لسـه قاعديـن بـرة دول قاعديـن علشـان مبسـوطين بشـغلهم هنـا؟ دول قاعديـن علشـان بـس ماعندهمـش حتـة تانيـة يشـتغلوا فيهـا ويأكلـوا منهـا عيالهـم، ويـوم مـا يلاقـوا الحتـة التانيـة دي هيجـروا عليهـا ويسـيبوني.

مـن كام يـوم بـس كان كل أهـل البلـد بيحبـوني، علشـان عارفـين اني راجـل غلبـان وفي حـالي، وكان كل الـلي بـرة دول بيحبـوني علشـان كنـت واحـد منهـم، وكان مـراد بيـه بيحبـني علشـان خدامـه ومـتربي عـلى إيـده، دلوقـتي ماعـادش حيلـتي غـير فلـوس وطـين وحجـارة، ودول لا بيحبـوا ولا بيكرهـوا ولا هـيردوا عليـا لمـا أكلمهـم.

- إنـت غلطـان يـا عـم يوسـف، الفلـوس هتخـلي النـاس كلهـا تتمـنى رضاك.

- متهيـأ لـك، الفلـوس ممكـن تخـلي النـاس يضحكـوا لي في وشي، لكنهـا مـش هتغصـب عليهـم مايضحكـوش عليـا لمـا اديهـم ضهري.

- وانـت بعـد الفلـوس والأطيـان والعـز الـلي بقـى تحـت إيـدك يهمـك النـاس أصـلا في إيـه؟

- أنـا واحـد مقطـوع مـن شـجرة، لا ليـا أب ولا أخ ولا اعـرف لي خـال ولا عـم، والـلي زيي بيبقى زي الـلي تايـه في صحـرا وقابـل نـاس تانيـة تايهـين برضـه، سـاعتها حـتى لـو ماتعرفـش ولا واحـد منهـم بتكـون متطمـن بيهـم، خوفـك مـن المـوت بيقـل وبتحـس إنكـم لـو مالقيتـوش طريـق ترجعـوا منـه أقـل مـا فيهـا هتـلاقي حـد يلقنـك الشـهادة ويحـط عليـك شـوية تـراب لمـا تمـوت مـن العطـش.

النـاس ليهـم قيمـة كبـيرة قـوي يـا أسـتاذ فهمـي ميعرفهـاش إلا الـلي عـاش نـص عمـره لوحـده، وأنـا في كام يـوم خـسرت كل الـلي باحبهـم ويحبـوني بسـبب شـوية ورق وحجـارة، ولـو رجـع بيـا الزمـن شـهر واحـد كنـت وطيـت عـلى رجـل مـراد بيـه بوسـتها علشـان يلغـي الوصيـة الملعونـة دي، ويخليـني أكمـل بقيـة حيـاتي خـدام النـاس بتحبـه ولا إني أكملهـا بيـه النـاس بتكرهـه.

أضـاء كلام يوسـف مسـاحات في قلـب فهمـي لـم يصلهـا نـور مـن قبـل، أشـفق عليـه بشـدة وتفهـم موقفـه، وهـو الـذي كان قبـل دقائـق بـدأ يشـك فعـلا في قـواه العقليـة، فكيـف لخـادم فقـير ألا يسـعد بتحولـه بـين عشـية وضحاهـا إلى واحـد مـن الأعيـان، لمجـرد خوفـه مـن تأثـير ذلـك عـلى علاقتـه بأشـخاص لا يقلـون عنـه بؤسًـا؟ الآن أصبحـت الصـورة أكـثر وضوحًـا، عندمـا تقـترب حياتـك مـن نهايتهـا يصغـر في عينيـك كل مـا يتقاتـل عليـه النـاس، ويصبـح إحساسـك بحـب النـاس هدفـك الأول، كأن كل نظـرة حـب منهـم تطيـل عمـرك يومـا.

لـم يجـد فهمـي مخرجـا مـن هـذا الموقـف سـوى الاسـتئذان في

الانـصراف، متحججـا بالانشـغال بقضايـا مهمـة في المكتـب، عـلى وعـد بعـودة قريبـة للاطمئنـان عـلى أحوالـه، طلـب منـه التكيـف مـع الوضـع الجديـد وعـدم التفكـير في أي شيء، فالأمـر مـا زال في بداياتـه ومـع الوقـت سـيذوب الجليـد، وتـزول أو حـتى تخـف وطـأة الاغـتراب، أكـد لـه أيضـا أنـه سـيدبر لـه، في أسرع وقـت، خفـيرا وسـفرجيا بـدلا ممـن غـادرا.

شـكر يوسـف محاميـه عـلى المجهـود الـذي بذلـه معـه في اليومـين الماضيـين وطلـب منـه ألا يطيـل الغيـاب، فقـد أصبـح الوحيـد تقريبا الـذي يرتـاح في التعامـل معـه ولا يشـك في نواياه تجاهـه.

غـادر فهمـي واسـتلقى يوسـف عـلى المقعـد، بعـد قليـل اكتشـف أنـه يجلـس عـلى هـذا المقعـد للمـرة الأولى رغم أنـه موجـود في نفس المـكان منـذ عقديـن مـن الزمـن، فهـو مـن حملـه بيديـه مـن عربـة الأثـاث الـتي توقفـت أمـام بـاب الـسراي إلى نفـس مكانـه الموضـوع فيـه الآن، عـشرون عامـا لـم يجلـس عليـه أو يلمسـه إلا عنـد تنظيفه، صحيـح أنـه أصـلا لا يرتـاح في الجلـوس عـلى الصالونـات والأرائـك، لكـن مـراد بـك أيضـا لـم يكـن ليتهـاون معـه إذا رآه جالسـا عـلى مقعـده المفضـل.

- مراد بك؟

قالهـا لنفسـه بصـوت مسـموع وانتفـض واقفـا، اعتقـد أحـدا يبلغـه بأنـه قـادم إليـه، لكنـه انتبـه بعـد لحظـات إلى أنـه لـن يدخـل عليـه مجـددا، لـن يضربـه بعصـاه إذا أخطـأ ولـن يسـبه بأبويـه إذا تأخـر في تنفيـذ أحـد أوامـره، انتبـه لكونـه أصبـح صاحـب المقعـد وغرفـة المكتـب والـسراي نفسـها، عـاد فجلـس عـلى المقعـد وأسـند ظهـره، ابتسـم، ثـم بـكى.

-٩-

استمر غرق يوسف في بحور عميقة من الذكريات حتى انتشله صوت طرقات على باب حجرة المكتب.

- مين.

- أنا كوثر.

- عاوزة إيه يا كوثر.

- الغدا جاهز.

- طيب أنا جاي أهو.

اكتشف أنه جائع فعلا وأن معدته لم تستقبل أي كسرة خبز منذ الصباح، قام متثاقلا وتوجه نحو الباب في خطوات بطيئة، فتحه وتوجه تلقائيا نحو المطبخ، وجد إبراهيم يقوم بتنظيفه وجمع الأواني والأدوات المتسخة بالقرب من الحوض، نظر يمينا ويسارا فلم يجد شيئًا.

- أومال فين الأكل ده.

نظر إليه إبراهيم مدهوشًا:

- أكل إيه؟

- الأكل، كوثر قالت لي إن الأكل جاهز.

- والأكل إيه اللي هيجيبه هنا؟ الأكل في أوضة السفرة يا بيه.

قالها وواصل عمله في جمع بقية الأواني، وترك يوسف مشدوها يحاول أن يستوعب دفعات المياه الباردة التي تنزل على رأسه

تباعـا، فعـلى مـدار أكـثر مـن نصـف قـرن قضاهـا في هـذا البيـت كان مـكان الطعـام الدائـم هـو المطبـخ، حـاول أن ينفـذ وصايـا فهمي ويطـرد هـذه الأفكار مـن رأسـه، وتوجـه مسرعـا ناحيـة غرفـة السـفرة، فلـو استسـلم لأفـكاره لـن يفعـل أي شيء في حياتـه سـوى عقـد المقارنـات بـين مـا كان ومـا هـو كائـن.

وقفـت كوثـر في مدخـل الغرفـة بعدمـا انتهـت مـن ترتيـب الأطبـاق عـلى المائـدة، عامـرة بـكل مـا لـذ وطـاب، لحـوم حمـراء وفـراخ محمـرة، تتوسـطها بطـة كبـيرة بخـلاف الأرز والخـضراوات والطواجـن والصـواني الخارجـة للتـو مـن الفـرن.

تسـمر أمـام المائـدة لثـوان يقلـب عينيـه بـين الأطبـاق والصـواني، ويمـيز بأنفـه الروائـح الشـهية الخارجـة مـن كل صنـف، والـتي تكفـي وحدهـا للشـعور بالشـبع.

- أنـا هابقـى معـاك هنـا لحـد مـا ييجـي سـفرجي جديـد، اتفضـل الأكل بالهنـا والشـفا.

قالـت لـه كوثـر ذلـك بعدمـا لاحظـت وقوفـه الطويـل أمـام المائـدة دون حـراك.

- وهو انا هاكل كل ده لوحدي؟

- كُل اللي تقدر عليه. خير ربنا كتير.

هـز رأسـه إيجابـا دون أن ينطـق وجلـس عـلى أحـد مقاعـد السـفرة، سـحب طبـق شـوربة صغـير كان أمامـه وشرب قليـلا منـه ثـم أعـاده لمكانـه، انتقـل بعدهـا إلى الفرخـة المكتوفـة فأخـذ منهـا قطعـة صغـيرة وضـع في فمـه منهـا قطعـة أصغـر، لاكهـا يمينـا ويسـارا لفـترة طويلـة وبلعهـا بصعوبـة وشرب خلفهـا كميـة كبـيرة مـن المـاء.

كانت كوثر ترصد كل ذلك باستغراب شديد، رجل قضى عمره كله في شقاء وحرمان لا يأكل إلا الفتات، وعندما أصبح سيدا صاحب قصر مترامي الأطراف وأمامه مائدة تخطف الأبصار يُعرض عنها، ويعاني ليبتلع بعض الشوربة أو قطعة صغيرة من الدجاج.

كان مراد بك رجلاً أكولاً، بوسعه أن يلتهم وحده محتويات مائدة كالتي أمام يوسف الآن، ويسب إبراهيم بعدها لأنه لم يجهز كمية كافية من الطعام، حتى عندما كان يتبقى منه شيء لم يكن يسمح لأحد من خدمه بتناوله ويأمرهم بإلقائه في القمامة، إذ كان يتشاءم إذا تناول أحد ما تبقى من طعامه، وهي العادة التي أخذها من زوجته وحافظ عليها حتى بعد موتها.

دائما ما كان للخدم، ومنهم يوسف، طعامهم الخاص، يتراوح بين البصارة والعدس والفول والبطاطس المهروسة، اللحوم مرة واحدة أسبوعيا، ولا تكون لحوما بالمعنى المعروف، لكنها تكون عبارة عن رؤوس وأرجل وأحشاء الطيور التي يأكلها مراد بك طوال الأسبوع، ويتم تجميعها في الثلاجة حتى تصبح كافية لوجبة يأكل منها كل من يعملون في القصر.

إذن فيوسف ليس متشبعا باللحوم للدرجة التي تجعله عازفا عنها الآن، حين توضع أمامه بهذه الكمية وذاك التنوع، وبعدما فشلت كوثر في العثور على إجابة لأسئلتها سألته:

- هو الأكل مش عاجبك ولا إيه؟

فاجأه سؤالها فتطلع إليها بارتباك:

- هاه؟ لا أبدا الأكل زي الفل والله، بس بايني أنا اللي شبعان.

- بس انت ماكلتش حاجة طول النهار ووشك أصفر ومخطوف، كل أي حاجة ترُم عضمك وتجرَّي الدموية في بدنك.

- آه والله أنا كنت جعان خالص بس مش عارف من ساعة ما قعدت نفسي اتسدت، يمكن عشان مش واخد على الأكل على السفرة ولا عشان...

صمت قليلا ثم لمعت عيناه وكأنه اهتدى إلى سبب ضعف شهيته، نظر إلى المائدة وما عليها ثم إلى كوثر التي كان تعقد حاجبيها استغرابا من تصرفات سيدها الجديد غريب الأطوار، ثم قال:

- والله فكرة. لمي كل الأكل ده وخديه افرشيه في المطبخ ونادي إبراهيم وفرج وهانم وكل العيال ييجوا ياكلوا معانا.

تجمدت كوثر في مكانها، واتسعت حدقة عينيها وهي تنظر إلى يوسف معتقدة أن الثروة المفاجئة أصابته بلوثة، لكنه واصل حديثه غير عابئ برد فعلها المرسوم على وجهها:

- مالك بتبحلقي فيا كده ليه؟ همّي يلا اعملي اللي قلت لك عليه، الأكل يحب اللمة وأنا لا واخد آكل لوحدي ولا واخد آكل على سفرة.

تحركت ناحية المطبخ لتجمع زملاءها وتخبرهم بما قاله يوسف، اعتقدوها في البداية تسخر أو تحاول توريطهم، لكنهم تحركوا تحت وطأة إلحاحها لينقلوا الطعام من غرفة السفرة إلى المطبخ، وبينما هم في الطريق إلى حجرة السفرة وجدوا يوسف قادما بنفسه يحمل طبقين ويطلب منهم إحضار بقية الأطباق، فعلوا ذلك سريعا وفرشوا ملاءة في منتصف المطبخ وضعوا

عليها الطعام وتحلّقوا حولها ومعهم يوسف، أكلوا جميعا بشراهة وخطفوا الطعام من بعضهم، وارتفعت ضحكاتهم حتى إن الماريين من أمام السراي كان يمكنهم سمعاها بوضوح.

أكل يوسف حتى شبع، وجلس يسمع حكايات سعدية التي لا تنتهي، طلب من هانم إعداد كوب شاي ثقيل يهضم به هذه الأكلة، وهو ما أمّن عليه الجميع وطلبوه لأنفسهم أيضا، غضبت هانم بتكليفها بذلك من بين كل الجالسين لكنها قامت في النهاية على مضض، استمرت سعدية في حكاياتها، وأخذ إبراهيم يخبط على بطنه الذي دخلته اليوم أصناف أبدع في صنعها لسنوات، دون أن يأكل منها إلا خلسة وبكميات لا تُذكر وبغرض التذوق فقط، فيما استند فرج على أحد أركان المطبخ مغمضا عينيه في غفوة قصيرة، أما كوثر فانشغلت برفع بقايا الطعام أو الأطباق بالأحرى لأن الطعام نفسه لم يتبق منه أي شيء!

- عارف يا يوسف بيه؟

قاطع يوسف سعدية قبل أن تكمل الجملة، وقال لها:

- أهي يوسف بيه دي هي اللي منغصة عليا حياتي في البيت ده. جرى إيه؟ هو انا مش يوسف اللي عايش معاكم بقالي سنين؟ إيه اللي اتغير يعني؟

قال إبراهيم:

- من ناحية اللي اتغير فاللي اتغير كتير، إنت بقيت صاحب السرايا وولي نعمتنا واحترامك واجب.

- استغفر ربك، هو بس ولي نعمتنا كلنا، وبعدين هو الاحترام مايجيش غير بالبهوية والبشوية؟

- أومال نقول إيه؟

- زي ما طول عمركم بتقولوا، عم يوسف.

التقطتها سعدية سريعا وكأنها كانت تنتظرها:

- عارف يا عم يوسف؟ باين كده ان أيامك هتبقى أحلى أيام وهتنسينا الشقا اللي شفناه طول عمرنا مع مراد، الله يجحمه بقى مطرح ما راح.

تغيرت ملامح يوسف وكاد الدم يفجر وجهه إلى أشلاء تملأ أرض المطبخ، ظنت الخادمة أنها يمكن أن تتقرب لسيدها الجديد بذم القديم، لكنها لم تكن تعرف أن يوسف يمكن أن يتقبل طعنة في قلبه بصدر رحب ولا توجه كلمة سوء لسيده ساكن التراب.

- بصي يا سعدية، وبصوا انتو كمان كلكم، اللي عاوز يقعد في البيت ده يحترم صاحبه، وصاحبه هو مراد بيه، هو صاحبه وهيفضل صاحبه حتى لو بقاله ١٠٠ سنة في التُربة، فاللي هسمعه بيقول عن البيه كلمة رضيّة بعد كده مش هيحصل له كويس أبدا.

قالها ثم قام وغادر المطبخ وهو يتمتم بكلمات غاضبة غير مفهومة، فيما أخذ الجميع ينظرون إلى سعدية وإلى بعضهم البعض بعدما انتهت الغدوة السعيدة نهاية مأساوية، لكن الجيد في الأمر أنهم عرفوا مبكرين الشيء الذي يحوّل صاحب القصر الجديد إلى وحش كاسر.

-١٠-

- شـايفين الإخـلاص؟ الحاجـات دي انتهـت مـن الدنيـا خـلاص ولا عـاد فيـه وفـاء ولا إخـلاص لحـد، بقـى كل واحـد همـه يحـط إيـده في بطـن الـلي قدامـه وياخـد مصارينـه يعملهـا ممبـار.

ضحكنـا أنـا وهيثـم وعمـي عاطـف عـلى غرابـة التشـبيه، بينمـا ظـل عمـي شـحاتة ينظـر إلينـا باشـمئزاز وينتظـر انتهاءنـا مـن وصلـة الضحـك وضرب الكفـوف، ثـم قـال:

- خلصتـم؟ أهـو ده الـلي انتـم فالحـين فيـه، عاوزيـن تقضـوا حياتكـم كلهـا ضحـك ومألسـة وهـزار، لكـن تسـمعوا الكلام وتشـوفوا الـلي قبلنـا كانـوا جدعـان ازاي وبيصونـوا العـشرة والعيـش والملـح ازاي يمكـن تتعلمـوا منهـم حاجـة؟ لأ.

وضعـت يـدي عـلى فمـي حـتى تأكـدت أن أثـر الابتسـامة زال مـن عليهـا تمامـا، غمـزت بعيـني لهيثـم ليتماسـك ويتوقـف عـن الضحـك هـو الآخـر، ثـم توجهـت ناحيـة عمـي شـحاتة متجنبـا النظـر في عينيـه:

- خـلاص يـا عمـي احنـا آسـفين. مـش قصدنـا حاجـة والله بـس التشـبيه بتاعـك كان حلـو قـوي خلانـا نضحـك، اتفضـل كمـل واحنـا هنسـمع مـن غـير مـا نتكلـم خالـص ولا نفتـح بقنـا خالـص.

- شـغال عندكـم انـا أظـن، إحـكي اسـتنى إحـكي اسـتنى، أصـلي باحـكي لكـم حدوتـة قبـل النـوم، بـس هاقـول إيـه؟ أنـا الـلي غلطـان إني صغـرت نفـسي مـع شـوية عيـال زيكـم.

وقـف عمـي والتقـط عصـاه ووضـع عباءتـه حـول كتفيـه وهـم بالانـصراف، فقمـت ووضعـت يـدي عـلى كتفـه برفـق وحاولـت الاعتـذار لـه وإقناعـه بالبقـاء ومواصلـة الحـكي، لكنـه أزاح يـدي مـن عـلى كتفـه ورمقـني بنظـرة حـادة، وقـال:

- رايح انام يا اخويا، واقِف على رجلي طول اليوم.

ذهـب باتجـاه البـاب وقبـل أن يخـرج اسـتدار برأسـه إلينـا وتحـوّل ببـصره بيـني وبـين هيثـم وقـال:

- جتكم الهم.

حزنـت بشـدة لأن عمـي قطـع حكايـة عبـد الميـت في لحظـة كنـت أود معرفـة مـا حـدث بعدهـا، كمـا خفـت أن يكـون عمـي شـحاتة قـد قـرر أن يتوقـف عـن الحـكي، أو حـتى يواصلـه لكـن ليـس بنفـس الحمـاس ولا بنفـس الاهتمـام بالتفاصيـل، غـير أن عمـي عاطـف، الـذي قـام واسـتأذن في الانـصراف هـو الآخـر، طمأنـني وهـو يرتـدي حـذاءه قائـلا:

- ماتخافـش، شـحاتة بيحـب يحـكي حدوتـة عبـد الميـت أكـتر مـا انـت بتحـب تسـمعها.

طلـب مـني هيثـم أن نقـوم نحـن أيضـا لنرتـاح اسـتعدادا ليـوم عـزاء جديـد، خصوصـا أن غـدا هـو اليـوم الثالـث للوفـاة، وهـو في عـادات القريـة في نفـس أهميـة وازدحـام اليـوم الأول، ويـأتي كل أهـل القريـة تقريبـا للعـزاء مجـددا، اسـتغربت الفكـرة لكنـني لـم أناقـش أو أسـأل أو أعـترض كمـا قـررت أن أفعـل مـن البدايـة.

طلبـت منـه أن يخلـد هـو للنـوم، أمـا أنـا فسـأذهب إلى مـنزل عمـي حسـن للاطمئنـان عـلى أمـي، فمنـذ أتممنـا مراسـم الدفـن

لـم أرهـا سـوى مـرة واحـدة خاطفـة، عـرض أن يـأتي معـي لكنـني رفضـت وأكـدت لـه أنـني أعـرف الطريـق إلى بيـت عمنـا جيـدا، لـم يكـرر عرضـه وأخـبرني بأنـه أخـرج لي ملابـس مـن عنـده ووضعهـا عـلى الفـراش حـتى لا أنـام بملابـسي، ثـم خـرج قاصـدا غرفتـه، ربمـا فهـم أنـني أريـد أن أتحـدث مـع أمـي وحدنـا، وهـو كذلـك.

في الطريـق إلى بيـت عمـي كانـت البلـدة أشـبه بمدينـة أشـباح، لا أحـد في الشـارع سـواي، نظـرت في سـاعة المحمـول فـإذا هـي العاشرة والنصـف ليـلا، أنهـى الجميـع يومهـم سريعـا واسـتقروا في بيوتهـم اسـتعدادا ليـوم جديـد، بسـيطة هـي تلـك الحيـاة، لا تعقيـدات تحكمهـا ولا وسـائل رفاهيـة كثـيرة تفسـد أهلهـا، حـتى رائحـة الهـواء مختلفـة لدرجـة أنـك تشـعر بـبرودة كل شـهيق في رئتيـك، لا تختلـط بـه أدخنـة ولا ملوثـات ولا حـتى أنفـاس بـشر، هـو هـواء، هـواء وفقـط.

السـماء صافيـة والنجـوم لامعـة وكبـيرة، أقـوم بتوصيـل كل مجموعـة منهـا ببعضهـا البعـض في مخيلـتي، فيكـون الناتـج قطعـا فنيـة تفـوق في جمالهـا وإتقانهـا لوحـات بيكاسـو وسـلفادور دالي، هذا حصـان يطـير بجناحـين، تلـك العـذراء مريـم حاملـة المسـيح، هناك طفـل يحبـو، وفي الخلـف فتـاة بفسـتان منفـوش ومرصـع بالألمـاس، لا أصـدق أن هـذه السـماء هـي نفسـها الـتي أراهـا في القاهـرة، كأنـني لـم أسـافر بـين محافظتـين، بـل انتقلـت عـبر مجرتـين.

وصلـت إلى بيـت عمـي، طرقـت البـاب، جـاء صـوت ابنتـه الوسـطى فـرح مـن خلفه:

- مين؟

- أنا خالد.

فتحت الباب سريعا واستقبلتني بحفاوة كبيرة:

- أهـلا يـا دكتـور، اتفضـل، البقيـة في حياتـك ربنـا يجعلهـا آخـر الأحـزان.

- الحمد لله على كل شيء، ماما موجودة؟

- أيوه طبعا، اتفضل في أوضة الأنتريه وهناديها حالا.

شـكرتها ودخلـت الغرفـة، وقبـل أن أصـل إلى المقعـد كانـت أمـي قـد وصلـت، سـمعت فـرح وهـي تنطـق باسـمي فجـاءت عـلى الفور، أغلقـت البـاب خلفهـا ونظـرت إليّ بعـين مرتجفـة، هرعـت إليّ ودخلـت في حضـني، لـم يكـن أينـا قـادرا عـلى الـكلام ولا راغبـا فيـه، شـعرت بدمـوع سـاخنة عـلى كتفـي، وسـمعت آهـات مكتومـة لـو خرجـت كمـا هـي لأيقظـت جميـع سـكان هـذه البلـدة النائمـة، اسـتغرق الأمـر دقائـق حـتى خرجـت مـن أمـي أول جملـة:

- أبوك مات يا خالد.

أمسـكت برأسـها، قبّلـت جبينهـا، ثـم يديهـا، أجلسـتها بجانـبي عـلى الأريكـة نفسـها، كنـت قـد جهـزت كلمـات كثـيرة أواسـيها بهـا لكنـني لـم أتذكـر منهـا أي شيء، ولـم أنـس تلـك الكلمـات فحسـب، بـل أظنـني نسـيت الـكلام بوجـه عـام، لا أقـدر عـلى صياغـة جملـة متماسـكة، لا أعـرف مـاذا يجـب أن أقـول، أمـي سـيدة قويـة، المـرات الـتي رأيـت دموعهـا فيهـا لا تتجـاوز أصابـع يـد واحـدة، وفي مواقـف عصيبـة أكـبر مـن أن يحتملهـا إنسـان، لكنهـا الآن تبـكي كمـا لـم تبـكِ مـن قبـل، أصابتـني دموعهـا وأنفاسـها المضطربـة وروحهـا الشريـدة بفقـدان مؤقـت في الذاكـرة، لكـن يبـدو أنـني بـدأت في التعـافي، هـا أنـا تمكنـت مـن صياغـة جملـة:

- الحمد لله يا أمي، ادعي له ربنا يرحمه ويجمعنا بيه في الآخرة على خير.

أخرجت من طيات ملابسها منديلا مسحت به دموعها، ثم ربتت علي يديّ برفق، وقالت:

- ماعلش يا حبيبي زودت همك. بس أنا بقالي يومين كاتمة الدموع دي، ولو ماخرجتش دلوقتي كنت ممكن أموت من القهرة.

- بعيد الشر عليكي، وليه تكتمي دموعك يا حبيبتي؟ ريحي نفسك وعيطي، الدموع بتريح، خصوصا في المواقف اللي زي دي.

تركت يدي وأسندت ظهرها وتطلعت في سقف الغرفة:

- ضهري انكسر يا ابني، أبوك ده كان أهم حاجة عندي في الدنيا، من ساعة ما مات وأنا حاسة اني ماعادش ليا لازمة في الدنيا دي، وبدعي كل دقيقة إني أروح له.

- ماتقوليش كده تاني لو سمحتي، يعني إيه مالكيش لازمة؟ كفاية إنك تبقي معانا وتاخدي بالك مننا وتربي ولادنا زي ما ربيتينا وتفرحي بآية، وفوق ده كله تدعي لنا، لو كنتي خلاص مش عاوزانا فاحنا عاوزينك يا ستي.

- ربنا يخليك يا ابني ويخلي اخواتك وولادكم، أنا بس صعبان عليا فراق أبوك.

- وصعبان علينا كلنا، وانتي عارفة كويس هو كان بالنسبة لي إيه، بس يعني انتي كان عاجبك تعبه في أواخر أيامه؟ هو دلوقتي في مكان أحسن بكتير مافيهوش تعب ولا وجع.

- ربنا يرحمه ويرحمنا من بعده.

دخلت شقيقاتي الثلاث علينا، تبدلت ملامحهن تماما، كسى

الشـحوب وجوههـن، وانتفخـت أعينهـن مـن كـثرة البـكاء، سـلمن عـليّ وبكـين في حضـني، عنفتهـن وطلبـت منهـن النظـر في المـرآة، وأخبرتهـن أن أبانـا لـو كان حيـا لمـا أعجبـه مـا يفعلنـه بأنفسـهن، هـدأن قليـلا وجلسـن، بعدهـا دخلـت سـارة وسـلمت عـليّ بـبرود وجلسـت عـلى مقعـد بعيـد نسـبيا، بـدأت أحـكي مواقـف أبي وعباراتـه المضحكـة حـتى أهـوّن عـلى أمـي وشـقيقاتي، ابتسـمن بتحفـظ وبدأت ملامحهـن في التحسـن، شـعرت بإرهـاق يعتـصر عظامـي وأعضـائي وتذكـرت أنـني سأسـتيقظ مبكـرا، لبـدء يـوم جديـد مـن أيـام العـزاء الـتي لا يبـدو أنهـا سـتنتهي، طلبـت مـن أمـي وشـقيقاتي الذهـاب إلى النـوم، واسـتعديت للمغـادرة، لكـن سـارة تحدثـت للمـرة الأولى في الجلسـة قائلـة:

- ثواني يا خالد عايزاك.

خرجـت أمـي وشـقيقاتي وبقيـت أنـا وسـارة وحدنـا في الغرفـة، أغلقـت البـاب ووقفـت أمامـي:

- البقية في حياتك.

- حياتك الباقية يا حبيبتي.

- هي قصة العزا دي هتخلص إمتى؟

- قصـة؟ لا والله مـش عـارف، المفـروض فيـه يـوم طويـل بكـرة وبعدهـا بنسـبة كبـيرة مـش هيكـون فيـه حاجـة، يعـني ممكـن عـلى بعـد بكـرة نـروح ان شـاء الله.

- بس انا هاروّح بكرة الصبح.

- ويا ترى بتاخدي رأيي ولا بتعرفيني.

- باخـد رأيـك، أنـا تعبـت مـن الجـو ده، وكمـان اخـواتي هيتجمعـوا

بكـرة عنـد بابـا وأنـا عـاوزة أكـون موجـودة.

- يعـني حـتى وبابـا ميـت مـش عـاوزة تضيعـي ميعـاد تجمـع في بيـت أهلـك؟ وبمناسـبة بابـا صحيـح هـو ليـه ماجـاش العـزا؟

- هـو كلمـك عـلى الموبايـل كـذا مـرة وانـت ماكنتـش بـترد فقـال لي أعزيـك.

- كلمـني عـلى الموبايـل، آه، لا والله فيـه الخـير، سـعيكم مشـكور، بـس ازاي هتروّحـي بكـرة، أنـا مـش هاقـدر أسـيب العـزا.

- بابا هيبعت لي العربية بالسواق الصبح علشان ياخدني.

صمـت طويـلا وتعمـدت النظـر في اتجاهـات أخـرى ثـم نظـرت إليهـا قائـلا:

- تبقي بتعرفيني.

خرجـت مـن بيـت عمـي بعدمـا رأيـت أمـي وشـقيقاتي وبعدمـا سـمعت كلام سـارة، لأجـد كل شيء قـد تغـير، هـدوء الشـوارع صـار موحشـا، الهـواء النقـي أصبـح خانقـا، والنجـوم أفلـت تاركـة السـماء أكـثر سـوادًا.

-١١-

وقفت بنفس الطريقة في نفس المكان لأستقبل الأشخاص نفسهم وأسمع الكلام ذاته فأرد بالردود نفسها، جميل أن يتشارك الناس في المحَن والأحزان، السيئ أن يتحول ذلك إلى عبء يفوق المحن والأحزان نفسها.

الفارق أنني هذه المرة أصبحت أكثر خبرة في طريقة الاستقبال وسرعة الرد، كما أنني أصبحت أعرف بعض أسماء الضيوف خصوصا الذين حضروا للعزاء في الأيام الثلاثة، وعلى دراية أكثر بما يسميه أعمامي «الأصول»، متى أقف ومتى أجلس، متى أقف في منتصف قاعة العزاء لأقول لهم سعيكم مشكور، متى أشير لهيثم لكي يوزع الشاي.

في منتصف اليوم كنت قد أنهكت تماما، كأن مجهود الأسبوع الأخير، بدءا من تأخر حالة والدي مرورا بوفاته ودفنه وتلقي العزاء فيه، التف حولي وأخذ ينهش في لحمي ويسحق عظامي، حاولت التحامل مصبرا نفسي بأنها قد هانت، ساعات قليلة وتنتهي هذه المعاناة ويعود كلٌ إلى حياته وعمله، أعرف أنه حين يحدث ذلك، ويصبح بوسعي الجلوس مع نفسي، سأشعر حينها بغياب والدي لتبدأ معاناة جديدة، لكنها مراحل سأمر بها على أي حال، لذلك سيكون انتهاء إحداها أمرا جيدًا.

فجأة انتفض المعزون القريبون من مدخل القاعة قيامًا، وقبل أن أتساءل عما حدث كان مبروك يدخل من الباب، وخلفه

أربعة يبدو أنهم من أعيان القرية، وفي المؤخرة خفيران يحملان بنادق عتيقة، تحرك عمي شحاتة ليقابله عند الباب وسلم عليه بحفاوة، ثم جاء فسلم عليّ وعلى عمي عاطف وعمي حسن وهيثم وأسامة زوج شقيقتي، وفي تلك الأثناء كان عمي شحاتة يخلي له ولمرافقيه موقعا مميزا في القاعة، وينقل زجاجتين من المياه المعدنية إلى المنضدة المقابلة لهم.

وقبل أن يترك العمدة يد أسامة كان حذاء طائر يصافح صدره بعنف، وعندها سادت الفوضى القاعة، وتوجه الخفيران ناحية الشخص الذي ألقى الحذاء فأوسعاه ضربا وعاونهما في ذلك بعض مرافقي العمدة وبعض الحضور، وفيما يتلقى الركلات واللكمات من كل اتجاه كان الرجل يكيل السباب واللعنات للعمدة.

- خدت أرضي يا حرامي؟ لهفتها في كرشك يا ضلالي؟ حار ونار في جتتك، إن شاء الله آخرتك سودة، حسبي الله ونعم الوكيل فيك. حسبي الله ونعم الوكيل!

- شيلوا الكلب ده ارموه برة، العزا هيبوظ.

قالها العمدة بهدوء وهو ينفض آثر الغبار الذي تركه الحذاء على عباءته السوداء، وسريعا استجاب الخفر للأمر ومعهم عمي شحاتة الذي جذبه بعنف من ملابسه وقال له بغضب:

- بقى يا سرحان الكلب جاي تضرب العمدة وهو ضيفي، تلاتة بالله العظيم لولا الظروف لكنت ضربتك بالنار.

- ما هو انتم كلكم كده. تحطوا صدغكم تحت جزمة الظالم وبعدين تستغربوا بيدوس عليه ليه؟ خليكم طبلوا له لحد ما

ياخـد أرضكـم واحـد ورا التـاني، وتبقـى البلـد كلهـا بتاعتـه وتشـتغلوا عنـده بالأجـرة.

لـم يـرد عليـه عمـي ودفعـه بقـوة خـارج القاعـة، فيمـا لحـق بـه الخفـيران وواصـلا ضربـه حـتى ابتعـدوا عـن المنطقـة تمامًـا، نظـرت إلى هيثـم وعمـي حسـن الـذي بـدا عليهمـا التعاطـف مـع سرحـان، أمـا عمـي شـحاتة فذهـب إلى العمـدة يطيـب خاطـره ويعتـذر لـه، لكـن الأخـير بـدا بـاردا رغـم صعوبـة الموقـف، وانشـغل بفتـح زجاجـة ميـاه موضوعـة أمامـه، وخاطـب عمـي دون أن ينظـر إليـه:

- ماحصلـش حاجـة يـا شـحاتة انـت مالكـش ذنـب، روح مكانـك وخـد عـزاك.

عـاد المعـزّون إلى أماكنهـم وواصـل المقـرئ تـلاوة القـرآن، لكـن التوتـر بـدا واضحـا عـلى كل الوجـوه، ونظـرات الجميـع معلقـة بمـبروك تراقـب ملامحـه وتعـد عليـه أنفاسـه، أمـا هـو فجلـس واثقـا مـن نفسـه مسـتندا بمرفقـه عـلى عصـاه، ولـم تكـن قسـماته وحركاتـه تـشي أبـدا بـأن هـذا الشـخص تعـرض لموقـف محـرج يصـل إلى حـد الإهانـة منـذ لحظـات، هـل هـي الثقـة في أنـه لـم يرتكـب خطيئـة تسـتدعي الاضطـراب؟ أم أنـه سـلوك الـذي رفعـه الغـرور منزلـة لـم يعـد يـرى منهـا ضحايـاه أصـلا؟

ثـم مـا هـذه البلـدة؟ مـن يـرى ليلهـا حـين لا تفـرق شـوراعها شـيئا عـن مقابرهـا، لا يراهـا في النهـار وهـي غارقـة في الشـائعات والجـدل والحكايـات والمعـارك.

انتهـى المُقـرئ مـن تـلاوة الربـع، فهـب العمـدة واقفًـا ومعـه مـن دخلـوا معـه، توجّـه ناحيتنـا وسـلم علينـا وسـار مسرعـا نحـو البـاب متبوعـا بأبصـار كل مـن في القاعـة، ولحـق بـه عمـي شـحاتة

وهـو يتمتـم في أذنـه بكلمـات غـير مسـموعة حـتى غـاب الجميـع عـن الأنظـار.

اقتربت من هيثم وسألته:

- إنت فاهم حاجة؟

- لا مـش عـارف، بـس هتلاقيـه واحـد مـن الـلي مـبروك نصـب عليهـم وخـد أرضهـم

- واحد من اللي نصب عليهم؟ هم كتير؟

- يووووووه ماتعدّش.

- ده أنـا كنـت فاكـر موضـوع العمـدة المفـتري ده انتهـى مـن السـبعينات.

اعتـدل هيثـم في جلسـته واسـتند عـلى ظهـر المقعـد، وقـال بعـد أن رفـع صوتـه قليـلا:

- مش كل حاجة يبطّلوا يعملوا عليها أفلام تبقى خلصت.

عـاد عمـي بوجـه شـديد الحمـرة يهـز رأسـه بعصبيـة ويضم شـفتيه ويعضهمـا في حـركات لاإراديـة، جلـس بجـواري شـارد الذهـن حـتى إنه لـم يشـعر بدخـول مجموعـة جديـدة مـن المعزيـن وظـل جالسـا رغـم أننـا قمنـا جميعًـا، وقـف أمامـه أحـد المعزيـن باسـطا يـده، لكـن عمـي بقـي عـلى نفـس الحالـة حـتى غمزتـه في كتفـه فالتفـت إليّ ثـم نظـر إلى اليـد الممـدودة أمامـه، وعندهـا وقـف وسـلّم عـلى الداخلـين ثـم عـاد لنفـس حالتـه الأولى.

- إهدا يا عمي، اللي حصل حصل وانت مالكش ذنب.

قلتهـا بصـوت منخفـض قـدر الإمـكان واضعـا يـدي عـلى فمـي، لكنـه نظـر إليّ باحتقـار واضـح ابتلعتـه مُجـبرا، ورد:

- اسكت يا ابن عبد الله انت مش فاهم حاجة.

- لا فاهـم، واحـد مفـتري خـد أرض واحـد تـاني فـأول مـا الواحـد التـاني شـافه ضربـه بالجزمـة، يعـني انـت مـش طـرف في الموضـوع أصـلا.

- مـا شـاء الله، والله وبقيـت خبـير بالبلـد ومشـاكلها كمـان، لا يـا ابـن اخويـا، الـلي حصـل إن العمـدة انـضرب عنـدي وهـو ضيفـي وفي مـكاني، دي حاجـة مـش هيفهمهـا واحـد جـاي البلـد بـس عشـان ياخـد عـزا ابـوه ويرجـع.

بـدأ المُقـرئ في التـلاوة مجـددا فصمتنـا وعـاد كلٌّ منـا إلى وضعـه، ولـم تمـر عـدة دقائـق حـتى سـمعنا صـوت صرخـات تطلقهـا مجموعـة مـن النسـاء في الشـارع، كانـت الصرخـات عاليـة ومتتابعـة ومتزايـدة بحيـث لـم يعـد ممكنًـا تجاهلهـا، توقـف المقـرئ وخـرج كل مـن في القاعـة إلى الشـارع ومـن بينهـم أنـا، كان المشـهد مروّعـا، نسـاء في أعمـار متفاوتـة يتبارين في الـصراخ ويـسرن بخطـى متسـارعة أقـرب إلى الركـض إلى جانـب بعـض الرجـال والأطفـال.

- إيه يا بت انتي وهي فيه إيه؟

سـألهن عمـي بعدمـا اعـترض طريـق الموكـب شـبه الجنائـزي، وجـاء الـرد مـن شـاب ثلاثيـني يرتـدي فانلـة حمـالات بهـا أكـثر مـن ثقـب فـوق بنطلـون ليـس أفضـل حـالا:

- العمـدة حاجـز أخويـا في الـدوار والغفـر بتوعـه هيموتـوه مـن الـضرب، تعـالى معانـا يـا حـاج شـحاتة والحقهـم قبـل مـا يموتـوه.

بـدا عـلى عمـي التوتـر وهـو يحـاول اتخـاذ قـرار، فكيـف لـه أن يشـفع لمـن أهـان ضيفـه، وكيـف لـه أن يـرد مـن طلـب نجدتـه، أخـذ

يلـوم أهـل سرحـان عـلى مـا فعلـه أمـام عينيـه وقلـة احترامـه في حضرتـه وحـضرة كبـار البلـد، وفي محاولـة معرفـة تفاصيـل أكـثر عما حـدث بعـد خروجـه مـن العـزاء بصحبـة الخفيريـن، ومـن أبلغهـم بأنـه في دوار العمـدة، وبـدا أنـه يحـاول فقـط إضاعـة بعـض الوقـت لحـين الاسـتقرار عـلى قـرار مـن بـين خيـارات تبـدو كلهـا صعبـة، وفي النهايـة اتخـذ عمـي القـرار:

- هاجـي معاكـم، مـش عشـان خاطـره، إن كان عليـه هـو يسـتاهل كل اللـي يجـرا لـه وزيـادة، أنـا هاجـي بـس عشـان ولاده.

صعـد عمـي إلى البيـت ليرتـدي ملابـس أخـرى، لـم أكـن أعـرف مـا الداعـي، فالملابـس الـتي يرتديهـا طـوال العـزاء قيّمـة جـدا، لكـن يبـدو أنـه كان يريـد أن يدخـل عـلى العمـدة في زينتـه علّـه يخـشى. بعـد دقائـق نـزل فعـلا يرتـدي جلبابـا شـديد الأناقـة فوقـه عبـاءة سـعودية تكشـف هيئتهـا عـن ثمنهـا، وحـتى الحـذاء يبـدو مـن بريقـه ونقـاء جلـده أنـه يرتديـه للمـرة الأولى، لـولا أنـه عمـي وأنـني أعرفـه لاعتقدتـه عمـدة القريـة أو نائـب الدائـرة.

كان كل المعزيـن قـد نزلـوا ووقفـوا في الشـارع ليسـتطلعوا الأمـر، وأصبحـت القاعـة خاويـة تمامـا إلا مـن المقـرئ، كان يُفـترض أن ينتهـي العـزاء بعـد سـاعتين تقريبـا، لكـن عمـي وقـف أمـام القاعـة وخاطـب المعزيـن الملتفـين حـول أسرة سرحـان:

- سعيكم مشكور جميعا.

ثـم دخـل إلى القاعـة وشـكر المقـرئ وطلـب منـه الاكتفـاء بهـذا القـدر، لحـق بـه عمـي عاطـف وأخـبره بـأن الوقـت مـا زال باكـرا عـلى إنهـاء العـزاء، وأننـا يمكـن أن نواصلـه لحـين عودتـه، لكـن عمـي شـحاتة التفـت إليـه بعنـف، ورمقـه بنظـرة كادت ترديـه أرضـا، وقـال

لـه بصـوت دوّى في أرجـاء الغرفـة:

- إنت اتهبلت ولا إيه يا عاطف؟ عاوزين تاخدوا العزا في غيابي؟

غضِـب عمـي عاطـف مـن الطريقـة الـتي كلمـه بهـا شـقيقه أمامنـا، فانـصرف دون أن ينطـق بكلمـة واحـدة، تابعتـه بعيـني مشـفقا وربمـا هـذا كل مـا يمكنـني فعلـه، فقـد أصبحت أشـعر بأنـني مشـاهد وحيد لمسرحيـة فلكلوريـة تجـري كل فصولهـا أمامـي ولا أملـك إلا المتابعـة والصمـت، لكنـني سـئمت مقعـدي في الصالـة، أريـد أن أكـون أحـد المشـاركين في هـذه المسرحيـة، لا أشـترط دور بطولـة، يكفـي دور كومبـارس صامـت بحيـث أشـارك في الأحـداث عـلى خشـبة المـسرح.

- أنا هاجي معاك يا عمي.

غضبـت مـن عمـي لاتخـاذه قـرارا منفـردا كالعـادة بإنهـاء عـزاء أبي، لكـن ذلـك منحـني فرصـة لأطلـب الذهـاب معـه إلى بيـت العمـدة، وهـو الطلـب الـذي أمّـن عليـه هيثـم وطلبـه لنفسـه أيضـا، انتظـرت أن يرفـض عمـي طلبنـا، أو عـلى الأقـل يوافـق عليـه بعـد مفاوضـات وأخـذ ورد، لكـن المفاجـأة أنـه نظـر إليّ وإلى هيثـم لثـوان ثـم وافـق عـلى الفـور، توقعـت أنـه يخـشى مواجهـة العمـدة وحـده فـأراد أن يدخـل عليـه بـ«عزوتـه» وهـو أمـر غريـب عـلى عمـي الـذي ظننتـه لا يخـاف أحـدًا، لكـن الواضـح أن الحـال مـع مـبروك مختلفـة.

-١٢-

سرنا على الأقدام لنحو عشر دقائق حتى وصلنا إلى دوار العمدة، كنا في مسيرة كبيرة يتقدمها عمي شحاتة وخلفه بخطوة واحدة كنا نسير أنا وهيثم وعمي حسن، وفي الخلف أسرة سرحان وأقاربه، ثم بعض أهالي القرية الفضوليين الذين أرادوا أن يروا ما يحدث رأي العين، أما الدوار فلم يكن مبنى قديما كما جرت العادة أو كما كنت أتصور أنا، بل هو أقرب لفيلا مبنية على الطراز الحديث الذي نراه في ضواحي القاهرة الراقية، محاطة بسور عالٍ يجمعها بمساحة كبيرة أمامها، لكنها رغم ذلك بدت موحشة مَوَتِّرة، خصوصا مع وجودها على أطراف القرية وسط مساحة كبيرة من الأراضي الزراعية، ما يجعل السكون يسيطر على الأجواء، لا يقطعه سوى أصوات نباح الكلاب الآتية من خلف أسوارها، وحفيف نعال السائرين خلفنا.

أمام الباب جلس خفير على مقعد من الخوص ممسكًا بعصا طويلة ينبش بها في الأرض، طلب منه عمي أن يخبر العمدة بقدومه، دخل لدقائق قليلة لكنها مرت ببطء شديد، أخرج فيها عمي منديله الأبيض أكثر من مرة ومسح به وجهه ورأسه، ولم يتحدث خلالها أينا إلى الآخر، وحدها الأعين كانت تتكلم وتكشف عن قلق واضطراب يسود الجميع، وتزيده عنفا أصوات النحيب الخارجة من قريبات الفلاح الأسير.

قطع الصمت رنين هاتف عمي شحاتة، أخرجه من جيبه ونظر في شاشته ثم رد سريعا:

- أيـوه يـا حـضرة العمـدة.. أيـوه.. أنـا وحسـن أخويـا وخالـد ابـن اخويـا وهيثـم ابـني وأهـل سرحـان وشـوية مـن أهـل البلـد.. ماينفعـش ياحـضرة العمـدة.. ماهـو برضـه.. أصلهـم عايزيـن... خـلاص.. الـلي تشـوفه.. مـع السـلامة.. مـع السـلامة.

تعلقت كل الأعين بعمي لتعرف ما دار في المكالمة، فقال:

- العمـدة مـش عـاوز زيطـة كتـير، هدخـل لـه أنـا وحسـن وهيثـم والدكتـور خالـد وانتـم اسـتنونا هنـا لحـد مـا نطلـع لكـم ونعرفكـم كل حاجـة، وإن شـاء الله سرحـان يخـرج معانـا.

تعالـت أصـوات أقـارب سرحـان بمـا يعـني رفضهـم ذلـك الاقـتراح وإصرارهـم عـلى الدخـول، أشـار لهـم رجـل يبـدو في العقـد الخامس مـن العمـر بيـده ليصمتـوا، ثـم قـال لعمي:

- إزاي يعـني يـا حـاج شـحاتة؟ إزاي هنقعـد هنـا ومـش عارفـين ابننـا بيجـرى لـه إيـه؟ إحنـا رجلنـا عـلى رجلـك ومـش طالعـين غـير وسرحـان في إيدينـا انشـالله تطـير فيهـا رقـاب.

غضـب عمي بشـدة وشـق الصفـوف ليصـل إلى المتحـدث فمسـكه بعنـف مـن ثيابـه:

- إنـت بتصغـرني يـا عبـد العزيـز؟ إنتـم جبتـوني عـلى مـلا وشي وسـبت عـزا أخويـا عشـان خاطركـم، وجـاي هنـا تكـسر كلامـي؟

- أنـا مابكـسرش كلامـك يـا حـاج، أنـا باكـسر كلام مـبروك. مـا هـو مـش أصـول عيلتكـم بـس الـلي تخـش وعيلـة صاحـب الشـأن تفضـل مرميـة هنـا لحـد مـا حـد يحـن عليهـا ويقـول لهـا أي حاجـة.

ترك عمي الرجل ثم عاد مجددا ووقف بيننا، وشأل في حسم:

- خلاصـة الـكلام، هتسـمعوا الـلي انـا قلتـه وتنفـذوه. ولا آخـد

ولادي وأرجـع داري وتتصرفـوا انتـوا بقـى زي مـا انتـم عاوزيـن؟

نظـرت أسرة سرحـان لبعضهـا البعـض باستسـلام، ثـم قـال شـقيقه بصـوت هامـس:

- اتفضـل يـا حـاج واحنـا مسـتنيينك، بـس أمانـة ماتتأخـرش علينـا وترجـع لنـا بـكلام يطمنـا عـلى اخويـا.

هـدأ عمي وأشـار إلينـا لنتحـرك، فعبرنـا البوابـة الضخمـة وأغلقهـا الخفـير خلفنـا عـلى الفـور، قلبـت بـصري في أرجـاء المـكان الـذي أوشـكت الشـمس عـلى مغادرتـه، لـو كانـت الظـرف مختلفـا لاعتـبرت حديقـة الفيـلا غايـة في البهجـة، تملأهـا أشـجار الفواكـه المثمـرة وتحيـط بهـا أشـجار النخيـل وتغطـي أرضهـا طبقـة خـضراء مـن الحشـائش المهذبـة، وتتـوزع بهـا بشـكل مـدروس أشـجار الـورد البلـدي مختلـف الألـوان، تختلـط رائحتـه بروائـح النعنـاع والقرنفـل المنتـشرة في فضـاء الحديقـة لتصفـي الذهـن وتبعـث عـلى الـسرور.

حاولـت عـدم الانشـغال بذلـك والتركـيز فيمـا أتينا لأجلـه، وقبل أن أصـل إلى بـاب الفيـلا رأيـت في الجانـب الآخـر مـن الحديقـة سرحـان، وقـد ربطـوه في مقعـد خشـبي وبقـع الدمـاء تغطـي ملابسـه، ويقـف خفـير بجـواره مثبتـا خرطـوم ميـاه موصـول بـ«كولديـر» عـلى رأسـه إمعانـا في تعذيبـه، هالـني المشـهد فانتفضـت ناحيتـه دون تفكـير لكـن عمـي جذبـني مـن يـدي بعنـف، وقـال بلهجـة آمـرة:

- طـول مـا انـت هنـا ماتعملـش أي حركـة ولا تقـول أي كلمـة غـير بـإذني وإلا هطلعـك بـرة، انـت فاهـم؟

هـززت رأسي بالموافقـة بعدمـا أكـدت لي طريقـة كلامـه أنـه جـاد في تهديـده، كمـا أنـني أشـعر بالضغـط النفـسي الواقـع عليـه ولا

أريـد أن أكـون سـببا في زيادتـه، هـذا طبعـا بخـلاف تأكـدي مـن أنـني لـن أتمكـن مـن إنقـاذ المسـكين بهـذه الطريقـة. صعدنـا درج السـلم بهـدوء وتوجهنـا إلى غرفـة مفتوحـة عـلى مدخـل الفيـلا سـاقنا إليهـا الخفـير. كان مـبروك يجلـس عـلى مكتبـه المزيـن بالأرابيسـك والأصـداف، أشـار إلينـا لنجلـس دون أن يحـرك سـاكنا، فجلـس عمّاي شـحاتة وحسـن عـلى المقعديـن المواجهـين للمكتـب، وجلسـت أنـا وهيثـم عـلى مقعديـن مـن المقاعـد الجلـد المنتـشرة بطـول جـدران الغرفـة.

- خير يا حاج شحاتة، أؤمر.

- خـير إن شـاء الله، أنـا جـاي لـك يـا جنـاب العمـدة بخصـوص سرحـان.

- ماله سرحان؟

- أهلـه قالبـين الدنيـا وبيقولـوا إن الغفـر خـدوه وجابـوه هنـا الـدوار وبيضربـوه.

- ماحصلش!

- ازاي بـس يـا عمـده؟ احنـا لسـه شـايفينه حـالا واحنـا داخلـين لـك.

- آه قصـدك الكلـب المربـوط بـرة ده (ألجـم رده عمـي فواصَـل) مافيـش يـا سـيدي ده واحـد اتهجـم عليـا وحـاول يقتلـني، واحنـا حاجزينـه عنـدي هنـا لحـد مـا الحكومـة تيجـي تاخـده وتحقـق معاه.

لـم أعـد قـادرا عـلى الاحتمـال أكـثر مـن ذلـك، فقلـت موجهـا كلامـي لمـبروك:

- بس ده ماحصلش!

لم ينظر إليّ حتى، وواصل حديثه مع عمي:

- هيه يا حاج؟ عاوزني في حاجة تانية غير الموضوع ده؟

- يا حضرة العمدة أنا عشمان فيك ماتكسفنيش، ده عيل أهبل وعبيط وغلط، وانت كبيرنا وعمدتنا والمسامح كريم.

- بس أنا اسمي مبروك مش كريم.

قالها وأطلق ضحكة طويلة عالية ومُفتعلة، قطعها عمي قائلا:

- بس لا مؤاخذة يعني يا حضرة العمدة برضه انت خدته من قلب داري والمفروض يكون ليا خاطر عندك.

تغيرت ملامح مبروك للنقيض في لحظات، من الضحك المُفتعل إلى الجدية المخيفة، طرق بقبضته المكتب بعنف وكادت مقلتاه تخرجان من وجهه وهو ينظر إلى عمي بقسوة:

- دارك؟ وانت عملت إيه في دارك دي لما كلب زي ده اتطاول على أسياده ورفع جزمته عليا؟ مش قعدت تتفرج زيك زي أي حد وجيت تراضيني بكلمتين كأني عيل صغير؟ احمد ربنا يا شحاتة إن دماغي كبيرة وإلا كان زمانك مربوط جنبه.

استقبل عمي شحاتة الكلمات كمن تلقى رصاصة بين حاجبيه، ووقف هيثم منتصبا في غيظ متأهبا للرد، ووقفت بدوري أيضا متحفزا، لكن عمي حسن سبق الجميع وانفجر في مبروك:

- احترم نفسك يا مبروك. انت بتكلم الحاج شحاتة الصبان، وانت عارف كويس يعني إيه عيلة الصبان ويعني إيه كبيرها، احنا مش فلاحين غلابة من اللي بتتشطر عليهم هتهتّنا بكلمتين فنقوم خايفين ونقول لك العفو والسماح، فوق كده وماتخليش غرور العمودية والأطيان ينسوك انت بتتكلم مع مين.

قالها عمي حسن ثم وقف وأشار إلينا للانصراف ومد يده إلى شقيقه الأكبر الذي كان لا يزال متجمدا في مكانه بعد الإهانة البالغة التى وجهت إليه في هذا السن، لكن مبروك وقف وجاء من خلف عمي شحاتة فربت على كتفيه وألّح على عمي حسن ليجلس مجددا:

- متآخذنيش يا حاج، انت عارف مقامك عندي غالي قد إيه، بس انت برضه ماترضاليش أتهان وسط رجالتي، أنا لو ماخدتش حقي دلوقتي تالت ومتلت الناس هتستهتر بيا، وساعتها مش هاعرف أحكمهم ولا أظبط البلد، ومش هتقوم لي قومة تاني، وأظن انت عارف ومجرب يعني إيه بلد من غير عمدة.

بلع عمي شحاتة ريقه وشد عوده وحاول الرجوع إلى وضعه الأول بعدما هوّن اعتذار مبروك صدمته بعض الشيء، رغم أنه لم يكن اعتذارا صريحًا، فقال:

- واديك خدت حقك وضربته وعدمته العافية. كفاية بقى كده وسيبه.

- لا مش كفاية، لسه حقي مارجعش.

- وهيرجع ازاي؟

- لما أخليه عبرة لكل أهل البلد، لما كل واحد يفكر ألف مرة قبل ما يفكر بس يحط عينه في عيني ولا يبص لي بصة ماتعجبنيش. اوعى تكون فاكرني حاطه في دماغي؟ ده صرصار أنا ماشوفهوش أصلا غير لو بصيت تحت رجلي، بس هو بعد اللي عمله ده حط نفسه في قفص واحد مع الأسد، يا إما الأسد يقطعه بسنانه وساعتها ماحدش هيكررها تاني، يا إما يلعب مع

الأسـد شـوية ويطلـع سـليم وسـاعتها مـش بعيـد بعدهـا العيـال يحطـوا بردعـة عـلى الأسـد ويركبـوه.

سـاد الوجـوم الغرفـة بعـد هـذه المحـاضرة وعـاد مـبروك إلى مقعـده منتشـيا كأن وجهـة نظـره أخرسـتنا، فقـررت أن أدخـل في الحـوار ولا أمتعـه طويـلا بهـذه النشـوة:

- وليـه تحكمهـم بالخـوف؟ ليـه ماتحكمهمـش بالـود والاحـترام؟ تخليهـم يسـمعوا كلامـك علشـان بيحبـوك مـش علشـان بيخافـوا منـك.

- إن شـاء الله لـو ربنـا ادانـا العمـر نبقـى نتكلـم في الموضـوع ده بعـد ٢٠٠ ولا ٣٠٠ سـنة، لكـن لحـد ده مـا يحصـل البلـد دي ماينفعـش تتحكـم غـير بالخـوف، واللحظـة الـلي النـاس تبطـل فيهـا تخـاف، سـاعتها الـلي بيحكمهـم لازم يخـاف.

- وعشان الناس تخاف المفروض تموّته مثلا؟

- أموّتـه؟ ليـه يـا دكتـور شـايفني قتـال قُتلـة؟ أنـا هاخـد حقـي منـه بالقانون.

- وفيه قانون يخليك تعمل فيه كده؟

- عملـت فيـه إيـه؟ عشـان شـوية الميـه دول؟ ده أنـا بحميّـه، يعـني المفـروض يشـكرني، دي حاجـة كانـت بتحصـل لـه مـن السـنة للسـنة.

بـدا أن الحـوار معـه مضيعـة للوقـت وأنـه يعـرف جيـدا مـاذا سـيفعل وأي كلام قلنـاه أو سـنقوله لـن يزحـزح قناعاتـه قيـد أُنملـة، فوقـف عمـي شـحاتة، وتوّجـه بكلمـة أخـيرة لمـبروك:

- شكلك مصمم تروّحني للناس قفايا يقمر عيش.

- مجيتـك عـلى راسي يـا حـاج. بـس سـامحني، فيـه حاجـات كـده

الـكلام فيهـا بيبقـى زي عدمـه.

- ماشي يا عمدة، سلام عليكم.

- وعليكـم السـلام ورحمـة الله وبركاتـه. قـول لأهـل الحمـار ده يروحـوا لـه بكـرة المركـز هيلاقـوه متلقـح هنـاك، وقـول لهـم يشـوفوا لـه محامـي كويـس عشـان يحـاول يجيـب لـه حكـم مخفـف.

نظـر إليـه عمـي وهـز رأسـه دون تعقيـب، وخـرج ومـن خلفـه عمـي حسـن ثـم هيثـم فأنـا، وقبـل أن أصـل إلى البـاب جـاءني صـوت مـبروك:

- بقول لك يا دكتور

توقفت واستدرت إليه فقال:

- انـت هنـا ضيـف، فيـا ريـت تكـون ضيـف خفيـف وماتحاولـش تفهـم حاجـة. لأنـك مـش هتفهـم.

- ليه، عشان غبي؟

- لا مـش غـبي لا سـمح الله ده أنـت أبـو المفهوميـة. عشـان غريب، والـلي شـفته واتعلمتـه في مـصر مـش هينفعـك أبـدا هنـا، هنـا فيـه نـاس تانيـه وقوانـين تانيـه.

لـم أكـن راغبـا في خـوض أي جـدال مـع هـذا الشـخص، لـذا لـم أردّ عليـه ولحقـت بعمـي عـلى السـلم، نظـرت بقلـة حيلـة إلى سرحـان الـذي مـا زالـت الميـاه المثلجـة تنسـكب عليـه، أفكـر في المصـير الـذي يمكـن أن ينتظـره، ومـا ستسـفر عنـه محاكمتـه بقوانـين غـير الـتي نعرفهـا.. قوانـين مـبروك.

-١٣-

في طريـق عودتنـا أصرّ عمـي حسـن أن يسـتقبلنا في بيتـه باعتبـاره أقـرب لبيـت العمـدة، وافقنـا جميعـا لأننـا بالفعـل كنـا مُتعبـين بدنيًا وذهنيًـا لأقـصى درجـة، لـم ينطـق عمي شـحاتة بكلمـة واحـدة طوال الطريـق، كان الصدمـة مـا زالـت تسـيطر عليـه سـواء مـن الطريقـة الـتي كلمـه بهـا مـبروك، أو مـن رد فعـل أسرة سرحـان عندمـا خـرج إليهـم دونـه، اتهمـوه بالموالسـة مـع العمـدة ومحاولـة تسـكينهم للتسـتر عـلى جريمتـه، بعدهـا حاولـوا دخـول الفيـلا لمواجهـة مبروك وتحريـر سرحـان، ولكـن بمجـرد خـروج خفيريـن وجّهـا سـلاحهما إلى السـماء وهـددا بتوجيهـه إلى صدورهـم إذا لـم ينصرفـوا، اكتفـوا بالدعـاء عـلى الظالمـين وولـوا الأدبـار وهـم يفكـرون في كيفيـة دفـع مصاريـف المحامـي الـذي سـيذهب إلى المركـز في الصبـاح.

- ماعلـش يـا حـاج انـت عملـت الـلي عليـك وزيـادة كمـان وماحدش يقـدر يلومك.

حـاول عمـي حسـن بكلماتـه تلـك أن يهـدئ مـن روع شـقيقه، لكـن الأخـير اكتفـى بهـز رأسـه دون أن ينظـر إلى المتحـدث، فالتقـط هيثـم طـرف الحديـث قائـلا:

- بس مبروك ده افترى قوي. هو فاكر نفسه ربنا واللا إيه؟

لم يرد عمي شحاتة أيضا فرد شقيقه:

- يا ابني اللي يعمل خده مداس حق عليه ينداس.

- تقصد مين يا حسن؟

أخيرا نطق عمي بعدما شعر أن الكلام موجّه إليه، لكن حسن استدرك مصححا على الفور:

- أهل البلد يا حاج، هم اللي وصلوه لكده بسكوتهم عليه وخوفهم منه، يا راجل ده أهل سرحان كان بينهم وبينه ١٠ متر وساعة ما السلاح اترفع عليهم سابوه ورجعوا على دارهم، أنا لو مكانهم هدخل أجيب ابني واللي يحصل يحصل.

تدخلت في الحوار للمرة الأولى:

- مش بالبساطة دي يا عمي، أكيد ماوصلوش للمرحلة دي غير لما جربوا معاه كذا مرة وفشلوا ياخدوا حقهم، انت نفسك قلت ازاي هو بياخد الأراضي من الناس وإن بتوصل ساعات إنه يحرق لهم المحصول، وأكيد اتعمل ضده قبل كده محاضر وشكاوى، لكن آديه لسه عمدة ولسة بيرازي في الناس. يبقوا ليه بقى يدخلوا معركة خسرانه؟

- أهو قالك اللي جاي من مصر ومايعرفش حاجة عن البلد. عشان تعرف إنك انت اللي مخك تخين وعامل زي الغشيم المتعافي، ده واحد عنده ألف حاجة ساناداه ومقوية قلبه، والجدع هو اللي يعرف يبعد عن طريقه ويتقي شره.

قالها عمي شحاتة وشعرت بارتياح بعدما استحسن كلامي وأمّن عليه، هذا يعني أنني بدأت أفهم وضع البلد وموازين القوى فيها، لا أعرف لماذا يسبب ذلك لي السعادة أصلا لكن هذا ما حدث، فقال هيثم:

- طول عمر الفساد موجود في كل حتة والمسنودين كتير، لكن فيه بلاد بتقبل بالوضع ده وبلاد تانية بتقاومة لحد ما تهزمه، ما

احنا حوالينا بلاد تانية ليها عُمد برضه، لكن ماشفتش حد فيهم مفتري زي الراجل ده، أكيد برضه أهل البلد لو كانوا وقفوا له من الأول ماكانش وصل لكده.

رمقه والده بنظرة حادة كأنه أغضبه أنه انحاز لرأي عمه لا لرأيه هو، فسأله:

- وانت بقى يا فالح مش من أهل البلد دول؟ ماتشمللتش ووقفت له ليه؟ ده انت حتى الوحيد اللي مانطقتش لما كنا عنده من شوية كأنك كنت واكل سد الحنك، ابن عمك الغريب ناطح معاه ورد عليه وانت عملت زي اللي نسيت الكلام.

اعتبرها هيثم فرصة لتخفيف حدة المناقشة وداعب والده قائلا:

- ما هو مايصحش اتكلم في وجودك يا حاج، مش دي الأصول برضه ولا إيه؟

ضحكنا جميعا ما عدا عمي شحاتة الذي حافظ على جديته وحافظ معها على نظراته الحادة، وواصل حديثه لهيثم:

- لا ياض وانت اسم النبي حارسك بتفهم في الأصول قوي!

نادت فرح على والدها ليأخذ منها صينية الشاي، حملها وفي طريق عودته بها وجه كلامه لشقيقه من جديد:

- يعني صدقتني يا حاج؟ أصلي كل ما أقول لك إنه مفتري وضلالي ومايعرفش أبوه، كنت تطلع فيا وتقول لي أصله بيحب شحاتة وماعندوش إلا شحاتة

- خلاص يا سي حسن بقيت انت الناصح وأنا الأهبل المضحوك عليا؟ ما انا عارف يا خويا انه مفتري وضلالي وأقول لك فيه

كلام أكتر من كده ١٠٠ مرة كمان، لكن أهو على وضعه ده عمره ما داس لي ولا لحد من العيلة على طرف، يبقى نكمل على كده بقى ونأمن شره ولا ندور نتكلم عليه فالكلام يوصل له ويحطنا في دماغه؟ لما تبقى الموجة عالية مش الشطارة انك تقف قدامها صالب طولك عشان ماتوطيش، لأنها ساعتها هتكسر ضهرك وهتقضي بقية عمرك موطي.

ساد الصمت الغرفة لفترة، ربما أخذ كل منا يقلّب كلام عمي في رأسه، فالكلام له وجاهته ومنطقه، عندما يبلغ الظلم أشده وتبدو نهاية الظالم أبعد من أن تُرى، يصبح غاية الجميع السلامة، تماما كالحرب غير المتكافئة، يشعر الطرف الأضعف فيها أنه انتصر عندما فقط يحافظ على رأسه بين كتفيه، وإن خسر بعدها كل أرضه وعتاده.

طرقت أمي الباب ودخلت، سلمت على الجالسين، واساها عمي شحاتة لأنه لم يرها منذ وصلت إلى القرية، شكرته على تعبه معنا، جلست على أقرب مقعد للباب وسألتني:

- هنسافر إمتى ان شاء الله.

- بكرة يا أمي على بعد العصر كده.

- بس لازم قبلها نروح نزور قبر ابوك ونقرا له الفاتحة.

- آه طبعا لازم.

استنكر عمي حسن حديثنا قائلا:

- مستعجيلن على أيه يا ام خالد، الأيام اللي فاتت كانت صعبة عليكم، اقعدوا يومين هنا في البلد تهدوا فيهم أعصابكم وكمان تبقوا جنب المرحوم.

- ماعلـش، نريـح في بيتنـا ونفتحـه عشـان ماينفعـش يتقفـل بعـد المرحـوم، وكمـان جيراننـا بيتصلـوا كل يـوم علشـان ييجـوا يعزونـا.

- إن شـاء الله يفضـل مفتـوح بحسـك وحـس خالـد واخواتـه، أنـا بـس كنـت عـاوز أقـوم معاكـم بالواجـب.

- إنـت عملـت الواجـب وزيـادة يـا ابـو أحمـد، كـتر خـيرك بقـى لنـا ٣ أيـام زانقينكـم.

دخلت في الحوار محاولا إنهائه:

- أنـا برضـه يـا عمـي محتـاج أرجـع بكـرة لأني لازم انـزل الشـغل مـن بعـد بكـرة إن شـاء الله.

لمس عمي شحاتة إصرارنا على موقفنا فقال:

- سـيبهم عـلى راحتهـم يـا حسـن النفـر مننـا راحتـه في بيتـه، واحنـا في كل الأحـوال هنبقـى معاهـم ومـش هنسـيبهم سـواء هنـا أو هنـاك.

شـكرناه أنـا وأمـي، وقامـت هـي لتخـبر شـقيقاتي بموعـد مغادرتنـا، بينمـا عـدت أنـا إلى عمـي شـحاتة بالموضـوع الـذي يشـغلني منـذ عدنـا مـن عنـد مـبروك:

- تفتكر يا عمي العمدة ممكن يعمل إيه في سرحان؟

- علمي علمك يا ولدي، أهو بيقول انه هيوديه المركز الصبح.

- مـش يمكـن بيهـوّش كـده وخـلاص وهيحجـزه شـوية عنـده وبعديـن يسـيبه؟

قاطعني عمي حسن مستهزئا:

- يسيبه؟ ده ما صدق لقاه، ده نزل له من السما.

- اشمعنى يعني؟

- هـو كل فـترة كـده يعـوز يهـرس حـد عشـان أهـل البلـد كل مـا ييجـي ينسـوا الدبيحـة القديمـة يفكرهـم بدبيحـة جديـدة، والـدور المـرة دي عـلى سرحـان، أهـو راجـل غلبـان لا لـه ضهـر ولا عيلـة كبـيرة تسـنده، هيـلاقي أحسـن مـن كـده إيـه بقـى؟

نظـرت إلى عمـي شـحاتة الـذي تشـاغل بنظـرة طويلـة وغـير مـبررة إلى سـاعة يـده، فانتقلـت ببـصري إلى هيثـم الـذي رفـع حاجبيـه وضـم شـفتيه حـتى أخرجتـا صوتـا قريبـا مـن صـوت صرصـور الحقـل. فعـلا، هـو الصـوت الأنسـب للمرحلـة.

-١٤-

فتحت باب الشقة وأغلقته خلفي بهدوء أملا أن تكون سارة نائمة، لم أكن راغبا في خوض أي مناقشة من أي نوع بعد هذه الليلة الطويلة الدامية، أضف إلى ذلك الغاز المسيل الدموع الذي استنشقت كميات كبيرة منه ومنعني الانهماك في العمل والتأثر بالحالات من الشعور بأعراضه حينها، قبل أن تداهمني الآن دفعة واحدة.

لكن كل أحلامي تحطمت بعدما وجدتها جالسة بتحفز على أريكة الصالة، تمسك بريموت التليفزيون وتراقب اقترابي منها خطوة خطوة، وصلت إلى الأريكة أخيرا، ألقيت عليها السلام، ثم ألقيت نفسي على المقعد المجاور.

- إيه ده؟ انتي بقيتي بتتفرجي على قنوات دينية؟

نظرت إليّ بحدة دون أن ترد ثم عاودت النظر إلى الشاشة، لم أنزعج، فلم أكن أصلا أنتظر إجابة بقدر ما كنت أبحث عن بداية هادئة، كانت تشاهد أحد الشيوخ ذوي اللحى الطويلة وهو يكيل الاتهامات للمتظاهرين في شارع محمد محمود، قال إنهم مأجورون يريدون هدم المؤسسات وتوريط الشرطة في الدماء وتعطيل الانتخابات البرلمانية، زعم أن شهود عيان رأوهم وهم يدخنون الحشيش ويحملون أسلحة نارية ويمارسون الجنس على أطراف الميدان، وطالب الدولة بردعهم بكل الطرق الممكنة حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر.

- هم دول بقى اللي انت رايح تعالجهم؟

قالتها بعصبية شديدة وهي تجلدني بنظرات تخلو من أي ود، فحاولت احتواء الموقف والرد دون عصبية مشابهة تجنبًا للصدام:

- وانتي من إمتى بتصدقي دول؟ مش دول اللي كنت بتقولي قبل كده إن هم اللي عملوا الثورة وهم اللي قتلوا المتظاهرين مش الشرطة وهم السبب في كل المصايب؟

- أيوه، ما هو ده اللي انت بتعمله دايما، تغير الموضوع وتوديني لسكة تانية خالص، بس برضه مش هانسى الموضوع الأساسي يا خالد. إيه اللي نزلك التحرير في الظروف دي؟

- قلت لك زمايلي كلموني عشان عدد الدكاترة هناك قليل وناس كتير مصابة وممكن تموت لو ماحدش عالجها.

- ما يموتوا ولا يروحوا في ستين داهية! هم كانوا من بقية عيلتنا؟ دول شوية بلطجية متأجرين مالهمش سعر!

- وأنا دكتور مش قاضي، ولو دخل عليا المستشفى بلطجي ولا حتى قتال قتلة هعالجه برضه، وفيه ناس تانية غيري شغلتهم يحققوا معاه ويحاكموه أو حتى يعدموه لو شافوا إنه يستاهل الموت. بس العيال دي ولا بلطجية ولا حرامية، انتي بتقولي كده بس عشان بتسمعي عنهم من ناس بيكرهوهم، جربي كده وانزلي هتلاقيهم كلهم شباب زي الورد كل اللي عايزينه بلد نضيفة بتحترمهم وتحتويهم.

- عرفت بقى إنك مانزلتش عشان تعالجهم بس؟ إنت نزلت علشان بتحبهم وبتحب الثورة بتاعتهم!

- وإيه المشكلة يعني إني أحب الثورة؟

- المشكلة إنك عارف كويس إنها سبب كل المصايب اللي حلت على دماغنا، وعارف ازاي بابا بيكرهها واحنا كلنا بنكرهها!

- ورغم كده عمري ما تدخلت في ده ولا قلت لك حبيها، يبقى المفروض انتي كمان تحترمي رأيي زي ما بحترم رأيك.

- آه ده لو بتقول رأيك في أكلة ولا في فيلم، لكن لما تحب الحاجة اللي دمرت عيلتي وجابت لنا الكافية يبقى الكلام اللي بيقوله اخواتي عنك صحيح.

- وإيه بقى إن شاء الله الكلام اللي بيقوله عني اخواتك؟

- بيقولوا إنك فرحان جدا باللي حصل لنا علشان الفرق الكبير اللي بين عيلتي وعيلتك يدوب وتحس إن الروس اتساوت، واديك أهو كل تصرفاتك بتأكد كلامهم، بس انسى، عيلة أبو المجد هتفضل محافظة على وضعها مهما حصل.

استقبلت كلماتها كطعنات متتابعة في صدري بينما هي استدارت بكل بساطة لتواصل مشاهدة التليفزيون، لم أكن أعرف من قبل أنها تنظر لي ولأسرتي بهذه الدونية وتعتبر زواجها بي جميلا يجب أن أشكرها عليه كل صباح ومساء، عجزت بعدها تماما عن الكلام، كلما فكرت في رد وجدته لا يكفي لرد الإهانة وتهدئة أعصابي الثائرة.

في النهاية قررت ألا أرد، قمت ودلفت إلى غرفة نومي، بدّلت ملابسي بينما كلامها يتكرر في أذني طوال الوقت، استلقيت على الفراش وأغمضت عيني في محاولة لإنهاء ليلة هي الأسوأ في حياتي، بدأت بصراخ وغاز وأصوات طلقات ودم، وانتهت بنقاش

بائس لن تكون علاقتي بزوجتي بعده مثلما كانت قبله.

شعرت بها تجلس بجانبي على الفراش، تجاهلت الأمر حتى ربتت على كتفي برقة، فتحت عيني ونظرت إليها ثم أعدت إغماضها:

- ماتزعلش مني، أنا خايفة عليك.

ابتسمت ابتسامة باردة دون أن أغير وضعي ولا أفتح عيني، فواصلت:

- إيه؟ مش مصدق إني خايفة عليك؟

- لأ.

قلتها ثم اعتدلت جالسا، وأكملت كلامي:

- مع إني والله كان نفسي جدًا أحس إنك خايفة عليا فعلا، انتي قلتي كلام كتير قوي، كله خوف على مشاعرك ومشاعر أبوكي وأهلك بس ماسمعتش كلمة واحدة تقول إنك مش عاوزاني أنزل علشان خايفة عليا، بس دي حاجة مش هتكلم فيها كتير، المشاعر لا ينفع نشتريها ولا نطلبها، لكن اللي مستحيل أنساه بجد، هو الكلام الواطي اللي قلتيه عن عيلتي وعيلتك واللي ماكنتش أبدا أتصور إني ممكن اسمعه منك.

- ماتحاسبنيش على كلام اتقال في لحظة غضب.

- ده أنا باشكر لحظة الغضب دي جدا لأنها خلتك تقولي اللي جواكي، بس انا أفهم ان اخواتك يقولوا كده ويكونوا فاكرين مثلا إني ضحكت عليكي واتجوزتك علشان فلوسك، وفرحت باللي حصل لكم علشان الروس تتساوى وتبقوا غلابة وشحاتين زينا زي ما بيقولوا، لكن إنك تقولي انك بدأتي تصدقي الكلام ده،

أهـو ده بقـى الـكلام الـلي مايتصدقـش، علشـان انـتي بالـذات الـلي المفـروض عارفـة مـين الـلي شـاغل مـين ومـين الـلي حـاول يلفـت نظـر التـاني ليـه، إلا بقـى إذا كنـتي فقـدتي الذاكـرة كمـان.

- أنـا قلـت ان اخـواتي قالـوا كـده لكـن ماقلتـش اني وافقـت عـلى الـلي قالـوه!

- لكـن قلـتي إنـك اكتشـفتي ان الـلي بيقولـوه عـني صحيـح، يعـني مـش بـس ماريديتيـش غيبـتي ودافعـتي عـن الراجـل الـلي بتنامـي كل يـوم جنبـه عـلى سريـر واحـد، لكـن كمـان فكـرتي في كلامهـم وصدقتيـه، عمومـا زي مـا قلـت لـك، أنـا باشـكر لحظـة الغضـب دي لأنهـا خلتـني أتأكـد ان التسـاهل في موضـوع ارتباطـك المبالـغ فيـه بأهلـك كان غلطـة وآن الأوان إنهـا تتصلـح.

- تقصد إيه؟

- يعـني ده بيتـك، والـلي هنـاك بيـت أهلـك، الطبيعـي إنـك معظـم الوقـت تكـوني هنـا مـش هنـاك، وإنـك لمـا تروحـي هنـاك تروحـي زيـارات، مـش الوضـع يتقلـب وتبقـي بتيجـي هنـا زيـارات!

أطلقت ضحكة ساخرة وقالت:

- آه ده انـت بتفكـر تعيـش دور سي السـيد بقـى! بـس مـين قـال لـك إني ممكـن أرضى بـدور أمينـة؟

سـاد الصمـت للحظـات اكتفينـا فيهـا بالنظـر إلى بعضنـا البعـض، ثـم قلـت وأنـا أسـحب الغطـاء عـليّ وآخـذ وضـع النـوم:

- أنا كلامي خلص.

بقيَـت في مكانهـا للحظـات ثـم خرجـت وأطفـأت النـور، أغمضـت عيـني مجـددا محـاولا الاسـتغراق في نـوم عميـق وطويـل، ربمـا لـم

أتمـنّ النـوم مـن قبـل كمـا تمنيتـه هـذه الليلـة، فربمـا أكتشـف عندمـا أفتـح عيـني في الصبـاح أن كل مـا سـبق كان حُلمـا، وكل مـا حـدث لـم يحـدث.

-١٥-

مـر يومـان دون أن تتصـل سـارة مـرة أخـرى، لا أنكـر أنهـا زارت خيـالي خلالهمـا عـدة مـرات لكـن الأمـر كان يفـتر في كل سـاعة مقارنـة بالسـاعة الـتي سـبقتها، قلـت لنفـسي إن الأمـر انتهـى عنـد هـذا الحـد، تحسـنت حالـة صديقتهـا الصحيـة، انشـغلت هـي بأمـور أخـرى وانتهـى الأمـر، ثـم لـم يكـن هنـاك أمـر أصـلا لينتهـي، ليـس أكـثر مـن لقـاء مـع مرافقـة مريضـة تخللـه إعجـاب وفضـول متبـادل وبعدهـا ذهـب كلٌ إلى حـال سـبيله.

في ظهـيرة اليـوم الثالـث كنـت نائمـا بعـد سـهرة عمـل طويلـة عندمـا رن هاتفـي المحمـول، مـددت يـدي أسـفل الفـراش فالتقطته، فتحـت عينـا واحـدة نظـرت بهـا إلى الشاشـة حـتى تصبـح العـودة إلى النـوم مجـددا أسـهل، لكـن الاسـم المكتـوب أجـبرني عـلى فتـح العـين الأخـرى سريعـا.

إنها هي، نعم هي.. سارة!

هـل تريـد أن تسـأل فقـط عـن شيء يخـص صديقتهـا، أم أن هنـاك شـيئا آخـر؟

رددت سريعا لأعرف الإجابة على سؤالي:

- آنسة سارة صباح الخير.

- أنا آسفة أنا شكلي كده صحيتك من النوم.

- لا أبـدا أنـا مـش نايـم ولا حاجـة ده أنـا حـتى صاحـي النهـارده مـن بـدري جـدا.

- غريبة أصل صوتك زي اللي لسه صاحي.

- لا أنا صوتي ساعات بيبقى كده. خير أؤمريني.

لـم أكـن مسـتعدا للإطالـة أكـثر مـن ذلـك في موضـوع النـوم والاسـتقياظ والاعتـذارات والاستفسـارات، فـكل مـا أريـد معرفتـه الآن هـو سـبب المكالمـة، وهـا أنـا عـلى بعـد خطـوة واحـدة مـن ذلـك:

- بـص بقـى انـت أكيـد فاكـرني باكلمـك علشـان يـارا، بـس لأ مـش هـو ده السـبب.

- أومال إيه السبب؟

- السبب إني عاوزة أشوفك تاني، ممكن؟

بقـدر مـا سـعدت بعـد معرفـتي سـبب المكالمـة، وبـأن إحسـاسي ليلـة مقابلتهـا الأولى أنهـا لـن تكـون الأخـيرة كان صادقـا رغـم شـكوك اليومـين التاليـين، بقـدر مـا فاجأتـني صراحتهـا ووترتـني جرأتهـا، وترتـني لدرجـة أن عقـلي تعطـل عـن العمـل فلـم يجـد لسـاني ردًا حـتى أعـادت السـؤال مجـددا:

- ممكن ولا مش ممكن؟

اكتشفت أنني في حاجة لرد، ورد سريع، فأجبت دون تفكير:

- ممكن طبعا.

- خـلاص يبقـى نتقابـل بعـد سـاعة في الزمالـك قـدام فنـدق أم كلثـوم، ونتحـرك مـن هنـاك عـلى كافيـه هيعجبـك جـدا، اتفقنـا؟

عـاد عقـلي للتعطـل مـرة أخـرى، ويبـدو أنهـا لاحظـت تلعثمـي في الـرد فـردت هـي نيابـة عـني:

- اتفقنا، باي باي.

وضعت الهاتف بجانبي وتسمرت على الفراش لدقائق أحاول استيعاب ما حدث، من يعرفونني يؤكدون أن لي شخصية قيادية من الصعب أن تُقاد، لكن ما حدث في هذه المكالمة الخاطفة يؤكد عكس ذلك، فقد كنت مسلوب الإرادة تماما، وكان زمام المبادرة وسلطة اتخاذ القرار في يدها وحدها، قد تكون لذلك دلالات فلسفية عميقة لكن الوقت ليس مناسبا الآن للتحليق في فضاءات النفس البشرية، فقد مرت عشر دقائق من الساعة التي يُفترض أن ألتقيها بعدها وما زلت على الفراش.

أزحت الغطاء جانبا وفتحت خزانة ملابسي أبحث عن ملابس مناسبة، أخرجت طقما جديدا اشتريته قبل ١٠ أيام تقريبا ولم ألبسه بعد، ثم خجلت من نفسي ومن طريقتي الطفولية في التعامل مع الموضوع، فأعدته مجددا إلى مكانه وأخرجت آخر وضعته على الفراش، دخلت الحمام غسلت وجهي وأسناني وحلقت ذقني وصففت شعري، كل ذلك في عشر دقائق تقريبا على عكس المعتاد.

خرجت فوجدت أمي تتطلع إليّ باستغراب، تجنبت النظر إليها وتشاغلت بتجفيف وجهي بالمنشفة، ثم حاولت تصنع الضيق:

- صباح الخير يا ماما.

- صباح النور يا حبيبي، صحيت على طول ليه كده انت مالحقتش تنام!

- هعمل إيه بقى؟ كلموني في الشغل وعاوزيني في اجتماع ضروري علشان بيعيدوا ترتيب الشيفتات.

سمعت أمي ما قلته ولم تعقب، واصلت تجفيف وجهي رغم

أنـه صـار أكـثر جفافًـا مـن المنشـفة نفسـها، وقبـل أن أدخـل غرفـتي دُهِشـت لعـدم تعقيبهـا، فاسـتدرت وسـألتها:

- هو انتي مش مصدقاني ولا إيه؟

اتسعت عيناها وارتفع حاجباها وهي تنظر إليّ باستغراب:

- ومش هصدقك ليه يعني؟

- آه ما انا برضه مستغرب.

أنهيـت الجملـة ودلفـت إلى غرفـتي سريعـا، فلـو بقيـت أمـام أمـي ثـلاث ثـوانٍ أخـرى سـأجثو عـلى ركبـتي أمامهـا وأعـترف بـكل شيء، ارتديـت ملابـسي سريعـا وألقيـت عـلى أمـي السـلام متجنبـا عينيهـا ثـم خرجـت.

سـمعت عبـارة «يـكاد المريـب أن يقـول خـذوني» كثـيرًا، لكـن للمـرة الأولى أعـرف معناهـا، لأنـني وللمـرة الأولى أكـون ذلـك المريـب!

التقينـا في المـكان المحـدد، أخذتـني في سـيارتها الميـني كوبـر، كانـت المـرة الأولى الـتي أجلـس فيهـا داخـل سـيارة مـن هـذا النـوع، كنـت أراهـا فقـط وهـي تسـير في الشـوارع وأعـرف أن سـعرها رقـم بجـواره كثـير مـن الأصفـار، يبـدو أنهـا ثريـة أكـثر ممـا يجـب. وصلنـا إلى وجهتنـا بعـد دقائـق قليلـة، تركـت مفتاحهـا لسـائس قابلهـا بحفـاوة تـشي بأنهـا دائمـة الـتردد عـلى المـكان، دخلنـا الكافيـه وجلسـنا عـلى منضـدة تطـل عـلى الشـارع مـن خلـف الزجـاج وتابعـتُ السـائس وهـو يركـن سـيارتها بحـرص.

- كان نفسي نقعد برة بس الجو النهارده برد.

- أيوه انا برضه مش بحب الأماكن المقفولة.

أشـارت للنـادل فجـاء سريعـا، طلبَـت «كابتشـينو» وطلبـت لنفـسي

عصير مانجو، وبمجرد أن أعطانا ظهره وابتعد بحيث لا يمكنه سماعنا، قالت:

- طبعا انت زمانك بتقول إيه البنت المجنونة دي؟

- الحقيقة آه.

ضحكنا بصوت مسموع من غرابة السؤال وتلقائية الجواب، فتحتْ زجاجة المياه الموجودة على المنضدة ووضعت قليلا من الماء في الكوب وشربَته، ثم أخرجت منديلا جففت به أسفل عينها لتتخلص من آثار الضحك، كنت أتابعها في كل ذلك مشدوها، كانت رقيقة رائقة رقراقة تتعامل كأنثى وتصدق أنها أنثى، وهنا مربط الفرس، فما دامت الأنثى تشعر بأنها أنثى تصبح جميلة ومثيرة وجذابة ولو كانت ملامحها أقرب للرجال منها إلى النساء. نعم لم تكن لي علاقات نسائية في السابق، لكنني أجيد قراءتهن وأستطيع التمييز بينهن.

انتهت من طقوسها، وألقت المنديل في المطفأة، وعادت إلى وضع الجدية الممزوجة بابتسامة آسرة:

- بص هاقول لك الموضوع على طول علشان أنا مش بحب اللف ولا الدوران، أنا لما شفتك يوم المستشفى ارتحت جدا وانا باتكلم معاك واتشديت ليك بجد، ماقدرش أقول إنه حب من أول نظرة لأني أصلا مش مؤمنة إن فيه حاجة كده، بس حسيت إني عاوزة أشوفك تاني واتكلم معاك تاني، حسيت إننا لازم نقرب من بعض أكتر، إيه شكل العلاقة بقى وإيه اللي هتنتهي عليه مش عارفة، تبقى صداقة تبقى زمالة تبقى معرفة تبقى حب، ده الأيام قادرة تحدده، لكن اللي متأكده منه دلوقتي إني عايزه أعرفك أكتر، والغريب إن الحكاية دي أول مرة تحصل لي، رغم

اني عرفت وقابلت شباب كتير في محيط العيلة والدراسة والنادي وكمان دخلت في قصص حب ماكملتش، لكن دي أول مرة أنا اللي أبقى حابة أتعرف على شاب واتكلم معاه مش العكس.

صمتت قليلا ثم واصلت:

- فاجأك كلامي؟

ساءني أنها توقفت عن الكلام وأن دوري جاء لأتحدث، ليس لأنني لا أجد كلاما هذه المرة، لكن لأنني كنت مستمتعا فعلا برؤيتها تتكلم، لكنني في كل الأحوال مضطر لأن أرد:

- أنا كمان هاتكلم معاكي بصراحة. ممكن يكون فاجئني كلامك وجرأتك إنك تعبري عن اللي جواكي من غير خوف ولا كسوف، لكن ماتفاجئتش من مشاعرك، يمكن لأن أنا كمان حسيت بنفس المشاعر من ساعة ما شفتك، وكنت حابب برضه أشوفك تاني وتالت، لكن ماكانش عندي الجرأة الكفاية إني أعبر عن ده، يمكن علشان زي ما انتي قلتي الموضوع مُريك ومش واضح معالمه ومش معروف منه غير إني مهتم أشوفك وأسمعك مرة تانية، ويمكن علشان لما عدا يومين من غير ما تتكلمي ولا حتى علشان تطمنيني على صحة صاحبتك وصل لي إحساس إن ممكن يكون كل ده مش حقيقي ومجرد إعجاب لحظي انتهى في وقته، بس أنا لو متأكد من حاجة دلوقتي فهي إني مبسوط إني قاعد معاكي باكلمك وباسمعك.

تهلل وجهها فرحا بما سمعته مني، ارتشفت بعضا من كوب الكابتشينو، وأخرجت طرف لسانها التقطت به بقاياه التي استقرت على شفتيها، أغمضت عينيها للحظات وهزت رأسها يمينا ويسارا، ثم فتحت عينيها وأصابتني بنظرة في أم عيني وقالت:

- الله؟ طيب ما انت بتعرف تقول أهو؟ ده أنا كنت قربت أفقد الأمل وقلت ان أنا هافضل اتكلم لوحدي على طول.

- الحقيقة أنا كمان اتفاجئت. الكلام خرج كده لوحده ماعرفش ازاي. ويمكن لو طلبتي مني أعيد اللي قلته ده تاني ماعرفش!

- عشان خارج من جواك وماحاولتش تعمل كنترول عليه، ويا ريت تعمل كده على طول وكل اللي تحس بيه تقولهولي على طول.

- عمومًا أنا مبسوط بالصيغة دي ومبسوط إن احنا الاتنين متفقين عليها ومتفهمينها. إحنا هنعرف بعض أكتر وبس، ونسيب الأيام بقى لوحدها تعرّفنا الطبخة دي هتطلع في الآخر إيه.

ضمت شفتيها ونظرت في السقف كأنها تعيد تمرير كلامي على عقلها، ثم نظرت إليّ وللمرة الأولى لم أصرف بصري إلى ناحية أخرى، نظرت في عينيها الواسعتين السوداوين بكل حواسي محاولا قراءة ما تقولانه، نظرت بعمق لدرجة أنها -للمرة الأولى- هي التي هربت من نظرتي:

- طيب، أنا المرة اللي فاتت دوشتك في المستشفى وكلمتك عن نفسي كتير مع إنها كانت أول مرة أقابلك، ولا الظرف ولا المكان كانوا يسمحوا بده خالص، بس المرة دي بقى أنا اللي عاوزة أسمعك وانت بتتكلم عن نفسك. عاوزة أعرفك.

- هو أنا مش باعرف أتكلم عن نفسي الحقيقة، بس هاحاول. أنا اسمي خالد عبد الله الصبان، أبويا كبير موظفين في شركة الكهربا، فاضل له أقل من سنة ويطلع معاش، أنا الابن الوحيد

على ٣ بنات، مممممم، دكتور زي ما انتي عارفة، أهلاوي. مش هاعرف أقول أكتر من كده، بس لو انتي عاوزة تسألي عن حاجة معينة هاجاوبك.

- كلمني أكتر عن علاقتك بأهلك، عميقة ولا سطحية؟ مرتبط بيهم ولا عادي؟

- أنا تقريبا أصلا ماعنديش علاقة غير بأهلي، أبويا كان قافل علينا قوي من صغرنا، عيلة والدي الكبيرة في كفر الشيخ، وعيلة أمي في الدقهلية، انتقلوا بعد الجواز للقاهرة بسبب ظروف شغل أبويا، ولما جينا الدنيا أنا واخواتي كان فيه مسافات كبيرة قوي بيننا وبين قرايبنا، وممكن تعدي علينا سنة كاملة من غير ما نشوف حد فيهم، كمان أبويا ماكانش له أصحاب، من الشغل للبيت ومن البيت للشغل، وأمي ماكانتش بتحب تختلط بالجيران منعا للمشكلات، من الآخر ماكانش لينا غير بعض احنا الستة، عايشين مع بعض ولبعض، أبويا عمل كل حاجة حلوة علشاني وأنا عملت حاجات مش باحبها علشانه، حتى كلية الطب دخلتها علشان هو كان عايش حياته على أمل يشوفني دكتور، مع إن رغبتي الشخصية كانت إني أدخل كلية الآداب وأبقى شاعر أو كاتب أو أديب. أمي برضه كانت بتتعامل معانا على إننا مشروع عمرها اللي بتستثمر فيه وكل يوم بتشوفه بيكبر وينجح قدامها، واحنا بنتعامل معاها على إنها ضميرنا اللي بيمشي على رجلين وصوتنا اللي لما مانعرفش نعبر عن اللي جوانا تقوله بالنيابة عننا. علاقتي باخواتي برضه قوية جدا، بيحكوا لي عن أي حاجة تخصهم وأنا كمان باعمل معاهم كده.

- تعرف إن دي حاجة مشتركة مهمة بيننا؟ أنا كمان أهلي هم

أهـم حاجـة في دنيـتي وممكـن اسـتغنى عـن أي حاجـة في الدنيـا بـس ماقـدرش اسـتغنى عنهـم يـوم واحـد، يمكـن الموضـوع عنـدي ماكانـش مقفـول كـده، أيـوه كنـت باخـرج وبـاروح وباجـي وباتصاحب مـع نـاس وأقابـل نـاس وأحـب نـاس واتصـدم في نـاس، بـس طـول مـا أهـلي كويسـين وبخـير أي مشـكلة كبـيرة أو صدمـة كانـت بتهـون.

- إنتي حبيتي قبل كده؟

صدمهـا قيامـي المفاجـئ بتحويـل مجـرى الحديـث، لكـن في الوقت نفسـه بـدا عليهـا الارتيـاح مـن دخـولي هـذه المنطقـة، فأجابت:

- آه أكيـد، ماقـدرش أقـول يعـني إنهـا كانـت تجـارب مكتملـة لكنهـا أحيانـا كانـت إعجـاب، أحيانـا تانيـة كانـت إني عايـزة أحـب وأتحـب زي بقيـة زمايـلي.. كـده يعـني.

- تعرفي إني عمري ما كنت مؤمن بالحب؟

لم تنطق بكلمة، وواصلت الإنصات في انتظار شرحي لما قلته:

- أيـوه، عمـري مـا كنـت مؤمـن بالحـب، مـش قصـدي إني مـش مؤمـن بالحـب في المطلـق، لأن الـلي بـين أمـي وأبويـا مثـلا قصـة حـب عنيفـة وملهمـة جـدا، أنـا باتكلـم عن الحـب بتـاع الأفـلام، اللي هـو واحـد يشـوف واحـدة يحبهـا وهـي تحبـه ويحسـوا إن حياتهـم مـش هتكمـل غـير وهـم مـع بعـض، في معظـم الحـالات دول لمـا بيتجـوزوا حياتهـم مـش بتكمـل غـير لمـا بيسـيبوا بعـض!

الحـب الحقيقـي مـن وجهـة نظـري هو الـلي بياخـد مسـار طبيعي، مسـار تصاعـدي، يبـدأ باسـتلطاف وقبـول وفي النـص يحصـل ارتباط، وتـتزرع بـذرة الحـب الحقيقيـة مـع التعـود والعـشرة ويبـدأ يكـبر حبة حبـة، الحـب ده بقـى كل مـا تـدوس عليـه الأيـام أكـتر وكل مـا يقابـل مطبـات في سـكته أصعـب، كل مـا عـوده يبقـى أشـد، وفي آخـر أيـام

العمر اللي بتتغير فيها الأشكال وتظهر التجاعيد ويضيع جمال الست وتضعف قوة الراجل بيكون الحب بينهم وصل لمرحلة بتخلي كل الكلام ده شكليات.

لكن إذا بعد كام شهر من بداية العلاقة اتقال كل كلام الحب واتعملت كل أفعاله وكل واحد وعد التاني بألف وعد، بيكون الحب وصل لأعلى نقطة، واللي جاي بعده بيبقى هبوط، علشان كده بعد سنة ولا سنتين بتلاقي اللي بيقول لهم «عفوا لقد نفد رصيدكم ولا يمكن إعادة شحن البطاقة».

كانت تسمعني بإنصات شديد، وبمجرد إنهاء كلامي قالت:

- يا ساتر. إيه التشاؤم ده؟ معقولة دي نظرتك عن الحب؟ مع إن شكلك يبان رومانسي.

- ما هو المشكلة إن الناس فاهمة الرومانسية والواقعية عكس بعض، أنا بقى شايف إن أحسن أنواع الرومانسية هي الرومانسية الواقعية، اللي بتخليكي على الأرض شايفة الدنيا حواليكي على حقيقتها زي ما هي، مش بتطلع بيكي سابع سما بأغاني حب وكلام متزوق وفجأة تنزل بيكي على جدور رقبتك، أنا لو في يوم حبيت، هاحب وأنا على الأرض علشان بخاف جدا على رقبتي.

ابتسمنا واستندت بظهرها على المقعد وربعت يديها ثم نظرت لي بتحدٍ وقالت:

- عموما أنا مش متضايقة من كلامك ولا هاتعب نفسي وأرد عليه، عارف ليه؟

أشرت برأسي مستفهما، فواصلت:

- علشان هيتغير قريب.

-١٦-

أصبحت مقابلاتنا شبه يومية، تحدثنا في كل شيء وعرفنا عن بعضنا كل شيء، زاد ارتباطي بها لكني لم أكن متأكدا أن الذي بيننا يمكن أن يتطور إلى حب، نعم أرتاح للجلوس معها والحديث إليها، تعجبني شخصيتها وطريقتها في التعبير عن نفسها وأفكارها، لكن في الوقت نفسه هناك خلافات كثيرة بيننا أهمها الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها كل منا، لا يتعلق الأمر بالمفهوم الطبقي الضيق، لكنه يتعلق أكثر باختلاف النظرة إلى الأشياء، فما أعتبره أنا مبهرا تعتبره هي عاديا، وما أعتبره منفرا ربما يكون في حياتها عادة.

استمرت لقاءاتنا على هذا الحال، حتى فاجأتني يوما بقولها:

- مش انا كنت قلت لك في الأول إن الأيام هي اللي هتحدد اللي بيننا ده إيه؟ أنا بقى دلوقتي عارفة الإجابة؛ أنا باحبك.

وضعتني كلماتها في ورطة، الآن يجب أن أحدد موقفي وأرد، الآن لم يعد ممكنا أن أستمر كصديق مع من تعتبرني حبيبا، الآن يجب أن أختار بين استمرار بالصيغة التي حددتها، أو صد يتبعه افتراق. كان السؤال الذي طرحته على نفسي وقتها؛ هل أنت مستعد لتركها إذا جاء ردك مخيبا لآمالها؟ وكانت الإجابة نفيا قاطعا، فأيا كانت الصيغة والمسمى أريد أن أبقى معها، ولو لم يكن شعوري تجاهها الآن حبا فهو على الأقل إعجاب وارتياح ربما يصيران حبا مع الأيام، أليس هذا ما كنت أحاول

إقناعها بـه أصـلا؟

- وانا كمان باحبك.

قلتها والتقطت كفها وضعتها بين كفّي، تحدثت أعيننا كثيرا دون أن ينطق لساننا بكلمة، شعرت بارتياح لأنها ستبقى معي لفترة أخرى، ومن يدري، قد تكون رفيقتي إلى الأبد. تحركنا إلى المستشفى لإحضار أغراضي، في المصعد اقتربت منها وطبعت على شفتيها أول قبلة، كانت خاطفة ومتوترة لكنها كانت كافية لأتذوقها، ابتسمنا ثم ضحكنا وانفتح باب المصعد فخرجنا وأحضرت أغراضي على عجل، في هذه الأثناء لم نكن نفعل شيئا سوى أننا ننظر إلى بعضنا ونبتسم، طلبت المصعد مجددا لننزل وكان كل ما أفكر فيه أنها فرصة للحصول على قبلة أخرى، وأعتقد أن نظراتها وابتساماتها الخجولة كانت لأن هذا ما تفكر فيه أيضا.

وصل المصعد، دخلنا وضغطت على الزر وقبل أن يلتئم نصفا الباب وضعت إحدى الممرضات ساعدها لتعيد فتحه ثم دخلت وقفت بيننا وقالت:

- لا مؤاخذة يا دكتور.

نظرنا إلى الأرض والابتسامة تعلو وجهينا، وفجأة انفجرت سارة في الضحك، ولم أستطع أن أمنع نفسي فضحت أيضا بصوت عال، حتى إن الممرضة أخذت تنظر إلينا باستياء وربما اعتقدت أننا نضحك عليها، لم نهتم برد فعلها أو ما يمكن أن تعتقده أو تقوله علينا، كل ما همنا اغتنام لحظات السعادة تلك لأقصى درجة.

استمرت لقاءاتنا، زادت حكاياتنا، أصبحنا نفكر أكثر في مستقبلنا معا، مكان سكننا، أسماء أطفالنا، ما نريده من بعضنا وما لا نريده، كانت حريصة على بدء إجراءات الارتباط الفعلي في أقرب وقت ممكن وكنت متخوفا جدا من هذه الخطوة، فإقناع أسرتي صعب بها، وإقناع أسرتها أصعب، لكنها قالت إنها مستعدة لخوض أي معركة معي أيا كانت نتائجها.

دخلت بيتنا في المساء، كان أبي وأمي يشاهدان التلفاز، أمسكت الريموت وضغطت زر كتم الصوت وسط دهشتهما ومتابعتهما، جلست وأخبرتهما بأنني أريد التحدث معهما في أمر هام، علقا بصرهما بي في انتظار معرفة الموضوع، وصمتُّ أنا لفترة محاولا ترتيب الكلام:

- فاكرين البنت اللي قلت لكم إني باقابلها من وقت للتاني وان فيه بيننا استلطاف؟

كنت قد حكيت لأمي عن إعجابي بفتاة بعدما لاحظت كثرة خروجي في غير أوقات العمل على غير العادة، وبالطبع وصلت المعلومة لوالدي الذي أخفيت عليه أمرا للمرة الأولى في حياتي، لكنهما لم يكونا يعرفان حتى اسمها. تبادلا النظرات ثم قال أبي:

- آه فاكرين، ولو اني عرفت من أمك أصلا مش انت اللي حكيت لي ولا حاجة.

تجاهلت عتابه المبطن عامدًا لأن تركيزي كله منصب في اتجاه واحد، وأكملت:

- أهي البنت دي بقى أنا عاوز أرتبط بيها.

حافظ والدي على ثباته وترقبه، بينما تهللت ملامح والدتي

وقالـت:

- يـا نهـار أبيـض، وانـا في ديـك السـاعة لمـا أشـوفك عريـس يـا خالـد وأفـرح بعيالـك؟ ومـين بقـى سـعيدة الحـظ وبنـت مـين؟

- اسمها سارة، سارة عاطف أبو المجد.

واصلـت والـدتي محـاصرتي بالتهـاني والتبريـكات ومـدت يديهـا ربتت عـلى كتفـي ومسـحت عـلى رأسي، لكنـني لـم أركـز معهـا وظلـت عيـني معلقـة بـردود فعـل أبي الـذي قال:

- عاطف أبو المجد اللي هو.. عاطف أبو المجد؟

- أيوه يا بابا.. هو.

أوقفـت أمـي طقوسـها الاحتفاليـة بعدمـا شـعرت بـأن هنـاك شـيئا نفهمـه نحـن ولا تفهمـه هـي وسـألت أبي:

- إيه ده؟ هو انت تعرف أبوها يا حاج.

- وهو فيه حد في الجيزة ولا في مصر كلها مايعرفوش؟

- اشمعنى يعني؟

- ده صاحـب مصانـع العصـير المشـهورة ورجـل أعمـال كبـير عنـده مشـاريع وأراضي وفلـوس مالهـاش آخـر، وكان مترشـح في الانتخابـات اللـي فاتـت بـس سـقط.

نظرت إليّ أمي وتساءلت باستغراب:

- هو ده يا ابني الراجل اللي قصدك عليه ولا حد تاني؟

- أيوه يا ماما هو.

- بـس ده كـده يـا ابـني يبقـوا أغـنى منـا بكتـير ومسـتواهم أعـلى منـا، وماينفعـش مراتـك تبقـى أغـنى منـك!

- ومراتي هتبقى أغنى مني في إيه يعني؟ هي هتعيش معايا وفي بيتي، وأبوها الله يسهل له مش عاوزين منه حاجة.

- إزاي يا ابني بس؟ هيقولوا عليك عاوز بنتهم عشان طمعان في فلوسهم، وبعدين ما البنات حوالينا على قفا من يشيل وزينا ومن توبنا، وأنا بقى لي كتير عمالة أتحايل عليك تشوف واحدة منهم اخطبها لك، كان لازم تشطح قوي كده؟

- ما هي دي حاجات مش بتبقى بمزاج الواحد يا ماما، وبعدين أنا فعلا لا فكرت هي بنت مين ولا عندها إيه.

- ما أنا متأكدة من ده يا ابني ومصدقاك وعارفة مربياك ازاي، بس لا أهلها هيصدقوك، ولا الناس هيصدقوا، وكله هيفتكرك طمعان فيها.

تابع أبي الحوار صامتا ثم دلف إلى غرفته وأغلق الباب خلفه، قمت وتركت أمي تصارع أفكارها وتحركت بخطوات مترددة نحو غرفته، طرقت على الباب فلم أتلق ردا ففتحته ببطء وأغلقته خلفي، كان يجلس على الفراش وظل معلقا بصره بي منذ دخلت عليه وجلست بجانبه:

- عاوز تهزأني يا خالد على آخر الزمن وتخليني مُسخة؟

- لا عاش ولا كان يا بابا اللي يعمل كده، ولا عشت ولا كنت لو حطيتك في موقف وحش.

- طيب ما انت عشت وكنت وعملت أهو، عاوزني أروح لراجل زي ده أقول له يا عاطف بيه أنا طالب إيد بنتك لابني أنا الموظف الغلبان، متوقع يكون رده إيه؟ يطلب الشربات؟

- لا يا بابا، هتقول له أنا عبد الله الصبان الراجل المحترم

الـلي سـمعتي سـابقاني، وباطلـب إيـد بنتـك لابـني الدكتـور خالـد.

- يـا ابـني النـاس دي ماتعرفـش الـكلام الـلي انـت بتقولـه ده، دول أول حاجـة بيسـألوا عليهـا انـت مـين وعنـدك إيـه، لا هتفـرق معاهـم سـمعتي ولا شـهادتك.

- يـا بابـا البنـت كويسـة جـدا وبتحبـني وعـاوزاني، وهـي مـش هتقـول لي تعالـوا غـير لمـا تمهـد الموضـوع مـع أهلهـا وتاخـد موافقتهـم كمـان، يعـني احنـا هنكـون واخديـن الموافقـة قبـل مـا نتحـرك مـن بيتنـا.

انتهـى الحـوار مـع والـدي عنـد هـذا الحـد بموافقـة على مضـض في انتظـار رد سـارة، وأظنـه كان يصـلي ليـأتي بالرفـض تجنبـا لإحـراج هـو في غـنى عنـه، لكنـه عـلى عكـس مـا تمنـاه جـاء بالموافقـة، فهمـت مـن كلام سـارة أنـه كان عـلى مضـض أيضـا، وبعـد نقاشـات طويلـة بينهـا وبـين الأسرة ورفـض مبـدئي تكـسر عـلى صخـرة إصرارهـا وعنادهـا، حـدث مـا أردنـاه، وأتممنـا مراسـم الـزواج الـذي لـم يـرض عنـه سـوانا.

-١٧-

بقدر ما سببه كلام سارة لي من ألم نفسي، كان مفيدًا على جانب آخر، فقد أصبح نزولي لموقع الاشتباكات في ميدان التحرير وشارع محمد محمود روتينا في الأيام التالية دون أن أضع اعتبارات لرأيها أو أخشى غضبها.

بمرور الوقت كانت الاشتباكات تزداد عنفًا، والإصابات تزداد تنوعًا، وعداد الوفيات يزداد بلا توقف، كما جاءت الإصابات المباشرة والعنيفة في العيون لتسبب لنا ارتباكًا كبيرًا، فالمستشفيات الميدانية لم يكن بها أطباء عيون، وحتى عندما استدعينا بعضهم لم تكن إمكانات مستشفيات الميدان تسمح بالتعامل مع الحالات، لذلك اقتصر دورنا على محاولات وقف النزيف والحقن بالمسكنات، لحين قيام سيارات الإسعاف بنقل المصابين إلى المستشفيات القريبة.

لم تكن مناقشاتي مع المصابين تتوقف، نعم أنا أحب الثورة وأؤمن بها وأتمنى أن تحقق ما قامت من أجله وطالبت به، لكنني عندما كنت أحاول أن أضع نفسي مكانهم لم أكن أتصور أنني يمكن أن أتخذ قرارا كالذي أخذوه وأضع نفسي في مواجهة غير متكافئة كتلك، موازين القوى فيها مختلة بشكل مرعب، وأدوات الردع فيها يحتكرها جانب واحد، وحتى عامل الدعم الشعبي لم يكن متوافرا، فالملايين خارج الميدان متأثرون بالدعاية السلبية لإعلام الدولة وجماعات الإسلام السياسي على السواء، بينما الآلاف القليلة التي تنقص في بعض الفترات إلى بضع مئات

ظهرهـا مكشـوف تمامًـا.

لكن إسلام طارق عرّفني السبب!

دخـل علينـا المستشـفى الميـداني محمـولا عـلى أكتـاف ثلاثـة مـن زملائـه، التشـخيص المبـدئي كشـف إصابتـه بانفجـار في عينـه اليسرى، طلبنـا عربـة إسـعاف لتحملـه إلى مستشـفى خـاص تعودنـا عـلى التعامـل معـه في الحـالات المشـابهة، وحاولنـا دفعـه للاسـترخاء حتى نسـتطيع التعامـل مـع إصابتـه، لكنـه رفـض بشـكل قاطـع وأصر عـلى تلقـي العـلاج في وضـع الجلـوس.

لـم يتوقـف الشـاب الـذي يقـف عمـره عـلى أوائـل العشرينـات عـن البـكاء منـذ دخـل، وفشـلت كل محاولاتنـا في تهدئتـه، ظننـا أنـه يبـكي مـن الألـم فأعطينـاه حقنـة مسـكنة وأخـرى للسـيطرة عـلى النزيـف ووضعنـا بعـض المطهـرات عـلى الجـرح، لكنـه اسـتمر في البـكاء واسـتمر جرحـه في النزيـف، وفـوق الذقـن كانـت الدمـاء القادمـة مـن عينـه المصابـة تختلـط بالدمـوع القادمـة مـن عينـه السـليمة قبـل أن نزيلهـا بالقطـن والشـاش.

فـارق كبـير بـين دمـوع ألـم الجسـد ودمـوع وجـع الـروح، وأزعـم أن بإمـكاني التفريـق بينهمـا، الطريقـة الـتي كان يبـكي بهـا الشـاب تـشي بـأن الألـم الناتـج عـن إصابتـه آخـر مـا يعنيـه، وأن دموعـه ناتجـة عـن جـرح غائـر آخـر لا نـراه.

- هو اسمه إيه؟

همست بالسؤال في أذن أحد أصدقائه فجاءتني الإجابة سريعا:

- إسلام طارق.

جلسـت بجـواره واحتضنتـه غـير آبـه بدمائـه الـتي أغرقـت كتفـي،

كنـت أشـعر برغبـة حقيقيـة في التخفيـف عنـه وبمسـؤولية كبـيرة تجاهـه لا أعـرف مصدرهـا، اقتربـت مـن أذنـه وقلـت لـه:

- إيـه يـا عـم إسـلام؟ مـش تجمـد كـده؟ ولا انـت فاكـر الثـورة شـوية هتافـات ومظاهـرات وخـلاص؟

أبعـد رأسـه عـن كتفـي ونظـر إليّ بعينـين تملؤهمـا الدمـاء ودمـوع وقـال بصـوت متهـدج:

- انـت فاكـرني باعيـط علشـان عيـني؟ أنـا باعيـط علشـان صاحـبي مـات.

زاد بـكاؤه ومسـح بمعصمـه دموعـه المختلطـة بالدمـاء، فمـددت يـدي أحـضرت بعـض القطـن، مسـحت بـه يـده وعينيـه ثـم سـألته:

- مات النهارده؟

- لأ مـات يـوم ٢٨ ينايـر، اسـمه عـادل صالـح، كنـا مـع بعـض في مظاهـرات الزاويـة الحمـرا، كنـت لامـس كتفـه بكتفي علشـان اتطمن، فجـأة مالقتـش حـد سـاند كتفـي، ببـص لقيتـه وقـع غرقـان في دمـه بعـد مـا خـد رصاصـة في راسـه، وقبـل مـا أفكـر أعمـل إيـه وأتـصرف ازاي كان قلبـه وقـف. كان صاحـبي الوحيـد، ماسـبناش بعـض يـوم واحـد مـن سـاعة مـا كنـا في الحضانـة، بـس فيـه حـد قـرر يحرمنـا مـن بعـض ويحـرم أهلـه منـه علشـان بـس خـرج يطلـب حقـه.

الحاجـة الوحيـدة الـلي صبرتـني وخلتـني أكمـل في الحيـاة إن الثـورة نجحـت والـلي نـزل علشـانه حصـل، قلـت لنفـسي أكيـد مبسـوط في مكانـه وهـو شـايف البلـد بتتحـرر ورايحـة للمسـتقبل الـلي كان بيتمناه ليهـا، وقلـت أكيـد برضـه بعـد مـا الثـورة نجحـت والبلـد اتغـيرت الـلي قتلـه هيتحاسـب، عـدى أكـتر مـن ١٠ شـهور والـلي قتلـه عايـش

وسط أهله عادي ومش بعيد كمان يكون واحد من اللي بيقتلونا في الشارع جوة دلوقتي، لكن كمان لما الثورة نفسها تبقى رايحة في سكة غلط والبلد بترجع لنفس الحتة الغلط يبقى عادل مات تاني النهارده وهيفضل يموت كل يوم.

ساد الصمت المكان، ذرف جميع الواقفين العبرات، ونظرت في الأرض حتى لا ترى عينه السليمة دموعي، وأنا من يفترض أنني جالس بجانبه لأشد من أزره، فشلت في العثور على أي كلمات تصلح للموقف فقررت مواصلة الصمت، وكان هذا أيضا قرار كل الموجودين في المستشفى من أطباء ومصابين ومرافقين للمصابين وواقفين للمشاهدة، صمتوا، بعضهم تسمروا في أماكنهم، وبعضهم تظاهروا بالانشغال بأي شيء أو باللاشيء، أما أنا فكنت أشعر بندم شديد على دفعه للكلام، فليته واصل بكاءه الصامت ولم يتكلم.

تجاهل إسلام صمتنا وواصل حديثه دون أن ينظر لأينا:

- كان نفسي الرصاصة تكون في راسي علشان أروح لصاحبي، أو حتى كانت طلقة تانية جت في عيني التانية علشان ماشوفش اللي قتلوه وهم بيرجعوا تاني يطلعوا لنا لسانهم، كان نفسي النهاية تكون غير كده خالص.

وصلت سيارة الإسعاف أخيرا لتنهي وصلة التعذيب التي تلقيناها على يد إسلام، حملته مع أصدقائه الثلاثة وانطلقت، وبقينا نحن ننظر إلى بعضنا ونجفف دموعنا، وبعدها عرفت الذي يدفع هؤلاء للتواجد في مكان يحوم حوله ملك الموت وتزكم الأنوف فيه رائحة الدماء، هي دوافع تتجاوز مكاسب السياسة وأطماعها، مثل هذه الثورة للواحد منهم كمثل الحب

الأول، الـذي أخلـص لـه أشـد الإخـلاص، وضحـى مـن أجلـه بالغـالي والنفيـس، وفقـد في سـبيله الأهـل والأصدقـاء، وتحـدى بـه الأقربـين والغربـاء، وفي النهايـة وجـده في أحضـان غـيره، هـو شـعور بالخيانـة قبـل أي شيء، قبلـه نزلـوا لأنهـم يحلمـون بغـد أفضـل، وبعـده صـاروا ينزلـون لأن الثمـن الـذي دفعـوه لا يـرد ولا يسـتبدل.

في الشـهور التاليـة أصبـح وجـودي في المستشـفيات الميدانيـة طقسًـا، لا أفـوّت اشـتباكات إلا وأكـون عـلى أطرافهـا لتطبيـب الجرحـى، قـرأت كُتبـا كثـيرة في علـم النفـس لأخفـف عنهـم وأشـفي بعضـا مـن جـراح نفوسـهم في الدقائـق الـتي يجلسـون فيهـا أمامـي لتضميـد جـراح أجسـادهم، أصبحـت أشـجع الثـورة كجماهـير الدرجـة الثالثـة، أهفـو إلى انتصاراتهـا الصغـيرة وأنتظـر اليـوم الـذي سـتحقق فيـه كل مـا أراده لهـا هـؤلاء الشـبان، لأن ذلـك سـيجعلهم يفرحـون وكفـى بـه هدفًـا.

سـاءت علاقـتي بسـارة، كانـت تعتقـد أني أفعـل ذلـك فقـط مـن باب العنـد ولمعاقبتهـا عـلى إسـاءتها لي ولأسرتي، ردت بزيادة الفـترات التي تقضيهـا في بيـت أبيهـا حـتى إننـا كنـا نتقابـل في شـقتنا بالمصادفـة كل يومـين أو ثلاثـة، والـدي أيضـا لـم يكـن مرتاحًـا لمـا أفعلـه لأنـه يـرى أن هـؤلاء الذيـن أعالجهـم «يسـتاهلوا الدبـح»، لكـن أمـره كان هينًـا مقارنـة بأمـي، فهـو يمكـن إقناعـه بـأن الطبيـب واجبـه أن يعالـج الجرحـى أيـا كان موقفـه منهـم، بخـلاف أمـي الـتي لـم يكـن يعنيهـا مـن قتـل مـن ولا مـن يريـد السـيطرة عـلى حسـاب مـن، بقـدر مـا يعنيهـا أن وجـودي في هـذا المـكان خطـر عـلى حيـاة ابنهـا الوحيـد، كل محـاولاتي لطمأنتهـا كانـت تنتهـي ببكائهـا وبجملتهـا الثابتـة:

- إنـت أصـلا كـبرت علينـا ومابقـاش لنـا كلمـة عليـك، ومـش

هترتـاح غـير لمـا تجيـب لنـا مصيبـة احنـا مـش قدهـا.

خـسرت الثـورة معاركهـا تباعًـا، تعـثرت وسـط بـرك الـدم، سـارت في طريـق عكـسي، وبـدا أن كل القرابـين الـتي قُدمـت لهـا لـم تكـن كافيـة لـترضى، شـيئا فشـيئا قلـت الاشـتباكات، وقلـت المظاهـرات، فـنزول الشـارع نفسـه أصبـح مـن المحرمـات، بالتبعيـة انتهـت قصـة المستشـفيات الميدانيـة وتفككـت جمعيـة أطبـاء التحريـر، أخرجـت طاقـتي في العمـل وحققـت بـه نوعـا مـن التقـدم، حصلـت عـلى الماجسـتير، وأصبـح اسـمي معروفـا بـين الأطبـاء والمـرضى.

لكـن وجـه إسـلام الملطـخ بالـدم لـم يفـارق عيـني، وكلماتـه ظلـت محفـورة عـلى جـدران عقـلي، لا أعـرف أيـن هـو الآن، لا أعـرف حـتى إن كان عـلى قيـد الحيـاة أو قـضى نحبـه في معركـة تاليـة، لكـن الأكيـد أنـه ليـس حيًـا، حـتى لـو كان قلبـه مـا زال يخفـق ونفَسـه يدخـل ويخـرج.

-١٨-

دخـل يوسـف غرفـة مـراد بـك وأغلـق البـاب خلفـه، جـال ببـصره في أركان الغرفـة، استشـعر أنفـاس سـيده في هوائهـا، رآه عـلى كل قطعـة أثـاث وكل شـبر أرض، مسـتلقيا عـلى الفـراش يطالـع مجهـولاً مـا في السـقف، جالسـا عـلى أحـد المقعديـن المسـتقرين في منتصـف الغرفـة يقـرأ كتابـا، واقفـا في النافـذة يراقـب تقليـم أشـجار الحديقـة، متسـمرا أمـام الخزانـة مفاضـلا بـين الثيـاب للقـاء أحـد الأعيـان. أطلـق زفـرة حـارة، تلتهـا دمـوع انسـابت مـن عينيـه بغـزارة، لـم يهتـم ببسـط كفـه لمسـحها حـتى تجـاورت قطـرات كثـيرة مـن عينيـه عـلى السـجادة الإيرانيـة الفاخـرة.

هو لا يشعر بالحزن، بل يشعر باليتم.

عندمـا مـات والـده لـم يـذرف نصـف هـذه الدمـوع، كان يعـرف أنـه مـن بعـده يسـتند عـلى سـيد قـوي ذي بـأس يعصمـه مـن الناس، الآن تغـير كل شيء، للمـرة الأولى يفكـر في الغـد، يشـعر أنـه بـلا ظهـر، عـارٍ وسـط ميـدان عـام، لا يعـرف مـن أيـن سـتأتيه الصفعـة وممـن، كان يسـمع أن الـثروة غالبـا مـا تكـون مصـدر حمايـة، لكنـه غـني مسـتجد، لا يعـرف كيـف يحـدث ذلـك، بـل إن هـذه الثـورة قـد تكـون دافعـا أكـبر للخـوف، فهـو الآن يملـك مـا قـد يجعلـه هدفـا لأطمـاع النـاس وأحقادهـم.. وكراهيتهـم أيضـا.

أصيـب بصـداع شـديد مـن كـثرة التفكـير والبـكاء، شـعر برغبـة في النـوم، أو بالأحـرى إجـازة لدماغـه الـتي لا تتوقـف الأفـكار عـن

العبث بها، بالطبع لم يفكر ولو للحظة في النوم بهذه الغرفة، هي بالنسبة له غرفة مراد بك وستظل كذلك، قام إلى غرفة نوم مجاورة كان مراد بك قد جهزها للضيوف، لكن أحدا لم يدخلها على مدى سنوات بخلاف الخدم لتنظيفها، أغلق الباب وأطفأ النور وألقى بجسده المتعب على الفراش آملا نوما سريعا وعميقا.

ولكن يبدو أن الأمر لن يكون بهذه السهولة.

تنقل من جانبه الأيمن إلى الأيسر إلى ظهره عشرات المرات، غيّر وضع الوسادة ونام في الاتجاه العكسي، وضع رأسه تحت الغطاء، ضغط على أذنه بساعده، لكن النوم لم يأت بعد كل هذه المحاولات. جلس فوق الفراش في وضع القرفصاء، غاص برأسه بين ركبتين وأحاطهما بيديه، لا يدري ما الذي ينقصه لينام، إرهاق وغرفة مظلمة وفراش، فراش؟ نعم. ربما هو المشكلة.

قام من جلسته غير المريحة فجأة، أضاء الغرفة وسحب ملاءة وغطاء ووسادة وضعها على السجادة، أطفأ النور مجددا وعاد فافترش الملاءة وتلحف بالغطاء، ودون أن يفكر في أي شيء غرق في نوم عميق!

هو الطبع إذن الذي يغلب التطبع، هو الماضي الذي قد يمنعه طوال الوقت من التمتع بالحاضر، هو ميراث خمسة عقود ولا يمكن نسيانه في يوم وليلة. قبل ذلك عندما كان ينظف غرفة مراد، كان يضغط بيده على الفراش اللين ويراهن نفسه أنه لو جاء يوم ونام على فراش مثله لن يستيقظ قبل أسبوع، لكنه حين أصبح ملكه بالكامل تركه بكامل إرادته ونام على

الأرض. الوصفة سهلة، افرض على أي شخص نموذج حياة معين لسنوات، ثم اترك له حرية الاختيار وتأكد أنه بمحض إرادته سيختار ما كنت تفرضه عليه.

لم تكن الأيام والليالي التالية أقل ثقلا من تلك الليلة، تمر الساعات بطيئة بلا جديد، ساعات انتظار طويلة في الغرفة وتركيز في الفراغ، لا يقطعها سوى فترات تناول الطعام مع بقية العاملين في القصر كما جرت العادة، وبمجرد الانتهاء من طعامه يصعد فورا إلى الغرفة، فحتى جلسته مع زملائه السابقين لم تعد مريحة، يتحفظون جدا في الحديث أمامه خوفا من ارتكاب خطأ كالذي ارتكبته سعدية حين حاولت أن تجامل يوسف بالإساءة لمراد، فكان خيارهم عدم الحديث معه إلا في أضيق الحدود وحين تقتضي الحاجة فقط.

لثلاثة أيام متواصلة حاول النوم على الفراش، وكان يفشل في كل مرة، وينتهي به الحال ممدًا على السجادة، بعد الأيام الثلاثة لم يعد يحاول، وقتما قرر النوم سحب الملاءة والوسادة إلى الأرض ونام، وفي الصباح يعيد كل شيء إلى الفراش حتى لا يكشف الخدم سره فيُهديهم بذلك مادة جديدة للسخرية منه والحديث عنه من ورائه.

- عم يوسف، الأستاذ فهمي المحامي قاعد تحت مستنيك.

قالتها هانم بعدما طرقت باب الغرفة، فقام مبتهجا كطفل عادت إليه أمه بعد غياب طويل، أسرع الخطى حتى إنه سبق هانم على السلم ووصل إلى فهمي، فسلم عليه بحفاوة واضحة وأدخله معه إلى المكتب، أطلعه فهمي على بعض الحسابات وحاول أن يطلعه على مواعيد تحصيل الإيجارات وبعض

المعاملات المالية الأخرى، لكن يوسف لم يكن يعنيه كل ذلك، منعه من الاستطراد وأخذ يحكي له عن معاناته في ذلك البيت.

حدثه عن نظرات الخدم إليه وعدم قدرته على التعامل معهم وهم يعرفون أصله وفصله وأنه كان حتى أسبوع سابق واحدا منهم، ورفض مجددا اقتراح محاميه بتسريحهم والإتيان بآخرين حتى لا يكون سببا في قطع أرزاقهم، حدثه عن شعوره بالوحدة والملل في ظل عدم وجود أي عمل يقوم به، وعدم قدرته على الخروج من المنزل، فطلب منه فهمي أن يخرج من السراي ويتجول في البلد ويتحدث مع الناس ويتعرف على الأعيان باعتباره أصبح أحدهم، رفض الاقتراح في البداية لكنه استسلم أمام إلحاح محاميه وإصراره على أن يخرج معه الآن ليجوبا شوارع القرية، بالحنطور الذي كان يستخدمه مراد بك في التنقل داخل القرية.

ركبا الحنطور وتولى فهمي القيادة، وفي طريق خروجهما لمح يوسف شابا غريبا يجلس على مقعد الخفير، أشار إلى المحامي مستفهما فأوقف الحنطور سريعا وأشار إلى الشاب ليأتي:

- سلم على يوسف بيه يا جابر.

أقدم الشاب على مهل وسلم على يوسف ضاغطا بشدة على يديه:

- أهلا وسهلا.

- ده جابر الغفير الجديد يا عم يوسف اللي هيشتغل مكان سيد، وإن شاء الله يومين تلاتة بالكتير وأكون جبت لك سفرجي مكان يونس.

هـز يوسـف رأسـه موافقـا وعلّـق بـصره بجابـر الـذي عـاد إلى مقعـده بخطـوات هادئـة كمـا جـاء، وانطلقـا في طريـق تـرابي عـلى جانبيـه حقـول الـذرة، وأخـذ يفكـر في هـذا الشـاب ضخـم الجثـة الـذي يقـترب عمـره مـن الثلاثـين، ملامحـه الحـادة ونظـرة عينيـه الجامـدة وخطواتـه الواثقـة لا تـشي أبـدا بأنـه مجـرد خفـير يبـدأ يـوم عملـه الأول، طلتـه الأولى تقـول إنـه مختلـف عـن نمـوذج العاملـين المنسـحقين أمـام رب عملهـم والذيـن لـم يـر سـواهم طـوال فـترة عملـه مـع مـراد، بـدءا بوالـده ووصـولا إلى سـيد الـذي كان يجلـس عـلى نفـس المقعـد قبـل أيـام قليلـة مضـت، والـذي كان يحـدث مـراد مطأطـئ الـرأس وتتفـكك مفاصلـه إذا نـادى عليـه فقـط.

أفـاق مـن الانشـغال بخفـيره الجديـد عـلى صـوت ضحكـة نسـائية رقيعـة أتبعتهـا صاحبتهـا بالقـول:

- آخر زمن والله! ولسة ياما هنشوف.

نظـر خلفـه فـإذا بهـا سـيدة مـن أهـالي القريـة يتذكـر وجههـا ولا يعـرف اسـمها، تقـف مـع سـيدة أخـرى وتتظاهر بأنهـا توجـه الحديث إليهـا، تطلـع إلى وجـه محاميـه الـذي تشـاغل بالقيـادة رغـم أنـه عـلى يقـين بأنـه سـمع جيـدا مـا قيـل ويعـرف مغـزاه، واصـلا السـير في شـوارع القريـة وبـين حقولهـا، وكلمـا مـرا بأحـد تـرك مـا يفعلـه، الفلاحـون يتركـون فؤوسـهم، والنسـاء يتركـن الأواني الـتي يغسـلنها في الترعـة، والمتناجيـان يقطعـان حديثهمـا، والجميـع يلتفـت إليـه، فمنهـم مـن جهـر بضحكتـه ومنهـم مـن أخفاهـا، منهـم مـن قـال كلامـا مبطنّـا عـن دوران الدنيـا وألاعيـب الحـظ ومنهـم مـن ذكـر الله الوهـاب الـذي يعطـي بغـير حسـاب.

- كفاية كده يا أستاذ فهمي! يلا نرجع.

- ليه يا عم يوسف؟ هو احنا لحقنا؟ ده أنا لسه هاخدك على أرضك تبص عليها وتقعد فيها شوية.

- لا مافيش داعي. أنا تعبت وعاوز أروح.

لم يجادل فهمي كثيرًا، فوكز الحصان ليغير اتجاهه ويتخذ طريق العودة، كأنه هو أيضا ندم على اقتراحه ويريد إنهاء التجربة في أسرع وقت، بعد دقائق كانت السراي تظهر من بعيد، وبعد دقيقة أخرى كانا على بابها، جلس جابر يحتسي كوبا من الشاي وينظر في الفضاء الموجود أمامه دون أن يبدي أي رد فعل لمرورهما بجواره، لفت ذلك نظر فهمي فأوقف الحنطور ونادى عليه، وضع كوب الشاي بجانبه واتجه إليه:

- أؤمر يابيه.

- انت مش شايفنا داخلين؟

- آه. المفروض أعمل إيه؟

- تسيب اللي في إيدك وتقف. أظن دي أقل واجبات الاحترام يعني!

- بص يا بيه. أنا شغال هنا غفير. يعني شغلانتي إني أحمي السرايا. لو قصرت في ده حقك تحاسبني. لكن الوقوف وتعظيم السلام والكلام ده مش من ضمن شغلي، وكمان مالهوش دعوة بالاحترام.

احمرّ وجه فهمي غيظا من رد الخفير الذي رأى فيه إهانة بالغة وتجاوزا في حقه، حاول التماسك حتى لا يزيد الإهانة بالدخول معه في سجال الأنداد، اكتفى بضرب الحصان ليتحرك ويدخل حديقة السراي، وقال قبل أن يتجاوز البوابة:

- شكلك مش هتطوّل معانا.

لـم يعقّـب الخفـير وعـاد إلى مقعـده بهدوئـه المعتـاد، عَقَـل فهمي الحصـان في الوتـد الحديـد المثبـت في أرض الحديقـة وسـاعد يوسـف عـلى الـنزول، اعتـذر لـه عـن موقـف الخفـير وحديثـه الصلـف، وأخـبره بأنـه سـيتركه فقـط حـتى يجـد بديـلا لـه حـتى لا يبقـى البيـت بـلا حـارس، ووعـده بـأن ذلـك سـيحدث في أسرع وقـت، رفـض يوسـف الاقـتراح وطلـب منـه ألا يقطـع عيشـه، وأكـد لـه أن موضـوع الوقـوف احترامـا لا يفـرق معـه في شيء، بالعكـس هـو يتمـنى لـو تـزول الفـوارق تمامـا بينـه وبـين كل العاملـين لديـه، حـتى لا يشـعر بالاغـتراب الـذي يشـعر بـه الآن.

اسـتأذن فهمـي في الانـصراف للانتهـاء مـن بعـض الأعمـال، ودخـل يوسـف مـن البـاب فوجـد إبراهيـم في اسـتقباله:

- نجهز لك الأكل دلوقتي يا عم يوسف؟

رفـض وأكـد لـه أنـه لا يرغـب في تنـاول أي طعـام الآن، وأن طعـام الإفطـار مـا زال مسـتقرا في بطنـه كمـا هـو. صعـد سريعـا إلى غرفتـه، أغلـق البـاب خلفـه وأسـند ظهـره عليـه وأخـذ يتطلـع في أركان الغرفـة وقطـع أثاثهـا، فيبـدو أنهـا سـتكون موطنـه الدائـم إلى وقـت غـير قريـب.

- إنت إيه اللي منيّمك هنا يا طين البِرَك؟ اتهبلت ولا إيه؟

استيقظ يوسف على هذه الجملة الغاضبة، مع وكْز عنيف من عصا مراد، هب واقفا في لحظات وهو لا يفهم شيئا، ماذا يجري؟ ما الذي جاء به إلى هذه الغرفة؟ وهل بُعث مراد بك من موته؟ لكن ضربة قوية من عصا مراد بك على كتفه جعلته يقترب من فهم ما حدث، مراد لم يمت أصلا ليُبعث، كل ما سبق كان حُلما، مجرد حُلم!

- لا مؤاخذة يا سيدي، كنت بنضف الأوضة وراحت عليا نومة.

قالها باستسلام دون أن يسترد وعيه بشكل كامل، وبدأ في رفع الوسادة والغطاء من على الأرض ويعيد ترتيب الفراش، بينما مراد بك يتحدث إليه في غضب:

- قلبت عليك السرايا من طلعة النهار وصوتي اتنبح من الندهان عليك أنا والخدامين ولا انت هنا، نايم في عزبة أبوك أظن؟

لم يجد يوسف ما يمكن أن يرد به فواصل التنظيف في صمت، وخرج مراد بك من باب الغرفة تاركا إياه يحاول استيعاب ما يحدث، والعودة من مرحلة الحلم إلى أرض الواقع، الواقع الذي لم يتغير، مراد بك ما زال موجودا، وهو ما زال خادمه، لم ينزعج مما حدث، فما رَآه لم يكن حُلما بالأساس بل كان كابوسا، والوضع الذي هو فيه الآن على ما فيه من تعب وتسلط من

جانب سيده أحب إليه ألف مرة من الوضع البائس الذي رآه في منامه، على ما فيه من راحة ونعيم ظاهر.

انتهى يوسف من ترتيب وتنظيف الغرفة، وخرج من الباب ونزل درج السلم ببطء أجبرته عليه فضلا عن خشونة ركبتيه وألم عظامه، تزاحم وتدافع الأفكار في رأسه وكثرة التناقضات بين الوضعين، لكن هانم التي كانت تمسك بالمنفضة وتهوي على أحد مقاعد الصالون بعنف لإخراج التراب منه، وإن كان ما تفعله يكفي لتمزيق القماش وإخراج القطن والخشب، توقفت عما تفعله ووقفت على مطلع السلم وقالت بصوت منخفض:

- إنت كنت فين يا عم يوسف؟ ده البيه قالب الدنيا عليك وشتمنا كلنا بسببك عشان ماكناش عارفين طريقك.

- وزعلانة ليه ياختي؟ أول مرة تتشتمي ولا حاجة؟ ده انتي بتكملي غداكي شتيمة.

ضحكت حتى ظهرت نواجذها، واستمرت في الضحك حتى ضحك هو أيضا، مسحت عينيها بطرف كُمها وقالت:

- طيب يلا بقى عشان ناكل احنا لسه مافطرناش ومستنيينك، الله يسامحك بقى زمان الطعمية تلّجت.

- يلا، أنا كمان ميت من الجوع.

قالها واتخذ طريقه ناحية غرفة السفرة، لكنه توقف في منتصف الطريق على صوت هانم:

- رايح فين يا عم يوسف مش وقت شغل باقول لك جعانين.

ابتسم ابتسامة لم تفهم مغزاها، وتدارك الأمر قائلا:

- هاه؟ أصلي كنت ناسي حاجة جوة، خلاص هاكل الأول

وبعديـن أبقـى أشـوف الموضـوع ده.

سـبقته ناحيـة المطبـخ ومـشي هـو في إثرهـا والابتسـامة مـا زالـت عـلى وجهـه، يبـدو أن الحلـم عـوده عـلى حيـاة الأسـياد.

في المطبـخ جلـس الجميـع يتناولـون الإفطـار، إبراهيـم وسـيد ويونـس وسـعدية وكوثـر وهانـم، عاتبـوه عـلى التأخـير وافترشـوا الأرض وأمامهـم الفـول والطعميـة والباذنجـان المقـلي وطبـق جبنـة بيضـاء، اسـتفسروا منـه عـن سـبب اختفائـه، وعندمـا علمـوا بأمـر نومـه في غرفـة نـوم الضيـوف أصيبـوا بصدمـة أوقفتهـم جميعـا عـن الأكل، وقـال إبراهيـم:

- يعني انت كنت نايم في أوضة الضيوف؟

- آه

تدخل فرج في الحوار:

- والبيه شافك؟

- آه شافني.. وهو اللي صحاني كمان!

عـاد الجميـع لتنـاول الطعـام مـرة أخـرى، وقـال سـيد وهـو يدفـع لقمـة فـول كبـيرة في فمـه:

- لـو واحـد مننـا هـو الـلي عملهـا ماكانـش هيبـات في السرايـا، ده لـو البيـه كمـان ماتهـورش وطخـه مطـرح مـا هـو نايـم.

ضحكـوا جميعـا وأخـذوا يتحدثـون عـن المكانـة الـتي يحظـى بهـا يوسـف عنـد البيـه، وعـن ذكرياتهـم مـع مـراد وتعاملـه الحـاد معهـم مقارنـة بـه، شـعر بفخـر شـديد وهـو يسـمع ذلـك، وجعـل كلامهـم مـذاق الطعـام أطيـب في فمـه، وإن كان قـد حـاول إقناعهـم بـأن مـراد بـك يحتـد عليـه كثـيرا ويضربـه أكـثر، وأنـه عندمـا وجـده نائمـا

قبل دقائق ضربه بعصاه بعنف، لكنهم أصروا على موقفهم بأن مكانته عند البيه أعلى بمراحل منهم مجتمعين، وبأنه يستطيع أن يستغني عن أي واحد منهم بسهولة أو حتى عنهم جميعا لكنه لا يمكن أبدا أن يستغني عنه ولا يستبدله.

استند بظهره على حائط المطبخ وأخذ رشفة من كوب الشاي الذي أحضرته له هانم، وتركهم يستمعون لإحدى حكايات سعدية، وأخذ يفكر كيف أنه في السابق كان يحزن من قسوة البك وتعنيفه ويتمنى لو ترك له أبواه ثروة تغنيه عن الإهانات وتضمن له حياة كريمة، هو الآن ليس واثقا أنه سيكون أسعد إذا حدث ذلك الآن، ربما مضى أوان تغيير نمط الحياة، فالاستمرار على حياته المشمولة بعناية سيد قوي، وفي حضرة زملاء يبادلهم الحب والمودة، وبلقيمات تكفي ليقيم صلبه وزيادة، أكثر أمنا من تغيير قد يبدو في ظاهره للأحسن، لكنه يحمل بين طياته العقاب.

- إنت يا فرج الزفت.

جاء صوت مراد إليهم في المطبخ مزلزلا، فانتفض فرج وجرى نحو سيده الواقف في منتصف الصالون، وهب الجميع فوقفوا لاستطلاع الأمر وانتظار دورهم، أشار بعصاه ناحية الحديقة وقال:

- أنا مش قلت قبل كده العنباية دي تتخَف. ماخفّتهاش ليه يا بغل؟ واللا انت مش فالح غير بس في الأكل والحَش وشغل مافيش!

- والله يا بيه خفّيتها مرتين زي ما سعادتك أمرت.

- وانت هترد عليا كمان يا ابن الكلاب؟ اتحرك يلا اعمل اللي قلت لك عليه!

- حاضر حاضر.

- واعمله بذمة يا خويا مش تقضية أوامر زي كل مرة.

انتظر مراد حتى خرج فرج من الباب مهرولا باتجاه الحديقة، فجلس على المقعد واستند على عصاه، وقال:

- والبيه يوسف فين هو كمان؟

خرج من المطبخ، وفي لمح البصر كان واقفا في خشوع أمام مراد:

- موجود يا سيدي. أؤمرني؟

- بكرة أنا عازم الأعيان على الغدا، عاوزك تعمل كل الترتيبات، هاسألك انت عن كل حاجة، من أول النضافة لحد الأكل، ولو لقيت حاجة واحدة مش مظبوطة هقلب عليك على القديم والجديد. فاهمني طبعا. على الله تكون نومة الأوضة ريّحت جَنابك.

- حاضر. كل اللي تؤمر بيه نافذ.

- غور يلا من قدامي الساعة دي. جتك الهم.

توجه يوسف ناحية المطبخ منتشيا بأن جريمة نومه في غرفة الضيوف مرت بأقل الخسائر، لكنه تذكر ما قاله بشأن عزومة الغد وأنه سيكون المسؤول عنها كالعادة، وربما يكون قد أخّر عقابه فعلا لحين اكتشاف أي خطأ ولو بسيط فيها، لذلك لا بد أن يعمل من الآن على الترتيب لكل شيء حتى لا يجد مبررا يجعله يلحق به عقابا مضاعفا، جمع كل العاملين فراجع مع إبراهيم

الأصناف التي سيطبخها، وشدد على سعدية وهانم التركيز جيدا على التنظيف خصوصا الصالون وغرفة السفرة، بحيث لا يوجد بهما ذرة تراب، واختار مع يونس الطقم المذهب الذي سيقدم فيه الطعام.

في المساء جلس يوسف تحت قدم سيده الممدد على الفراش، أخذ يدعكهما كالعادة بمرهم الروماتيزم الذي أوصاه الطبيب باستخدامه يوميا قبل النوم، وكلما صعد إلى ركبتيه لتدليكهما سمع طقطقة تخرج منهما فاضطر إلى النزول مجددا إلى الساقين خوفا من إيلامه.

- خلاص. عجّزت يا واد يا يوسف.

- عجزت إيه بس يا سيدي. ده انت ما شاء الله اللي يشوفك يقول أصغر مني.

- أصغر منك؟ انت لما اتولدت كنت انا متجوز، ودلوقتي كل اللي أعرفهم ماتوا ومافاضلش غيري، وقريب أنا كمان هاروح لهم.

- تف من بقك يا سيدي اوعى تقول كده بالله عليك. إنت صحتك زي الفل، هم بس شوية الروماتيزم دول وشوية بشوية هيروحوا. إنت عارف لو تسمع كلامي وتتجوز؟ هترجع أصبى من الأول ومش بعيد كمان تجيب لنا عيل.

- بس يا عبيط. الجواز للي في سني فضيحة. أجيب ليه مرة تطلع سري وتقلل هيبتي في عيون الناس، لو مش دلوقتي فبعد ما أموت، وموضوع العيل ده كمان عدى أوانه، لو فرضنا يعني إن فيا صحة أجيبه هابقى كأني بحكم عليه يقضي حياته كلها

يتيم، وهاموت وأنا قلبي بيتقطع من الخوف عليه من بعدي. كده أحسن، مافيش حاجة تخليني زعلان وأنا بسيب الدنيا.

سادت لحظات من الصمت لم يجد فيها يوسف ما يقوله، أشفق على سيده بشدة وهو يراه تعيسا رغم كل هذه الثروة والجاه، شعر تجاهه بحب أكيد وعميق وبرغبة في أن يبقى هكذا تحت قدميه حتى نهاية عمره، رغم قسوته عليه وصوته المرتفع دوما، فهو يعلم أن مراد يحبه من قلبه وربما يكون هو الشخص الوحيد الذي يحبه أو حتى يشعر بوجوده أصلا في هذا العالم، قطع الأخير الصمت بسحب رجليه وإدخالهما تحت الغطاء، ووضع رأسه على الوسادة في وضع النوم، وقال:

- يلا كفاية بقى قوم واطفي النور. أنا عاوز أنام.

قام بعد أن تمنى له أحلاما سعيدة، أطفأ النور وأغلق الباب خلفه بعد أن ألقى نظرة أخيرة على جسد سيده المسجى على الفراش، نزل الدرج وخرج من باب السرايا الرئيسي ودخل غرفته المجاورة لغرفة الجنايني، وألقى جسمه على الأرض في تعب وفي ثوان معدودة كان قد راح في النوم.

-٢٠-

- عم يوسف.. يا عم يوسف

استيقظ على صوت هانم يتخلله طرقات على الباب، نظر حوله فوجد نفسه نائما في غرفة الضيوف، انتفض فجأة وواصل النظر في أرجاء الغرفة بينما صوت هانم وطرقاتها لا يتوقفان، فتح الباب وهو لا يفهم شيئا، قالت له إن السفرجي الذي أرسله الأستاذ فهمي ينتظره بالأسفل، صمت كثيرا وهو ينظر لها، فيما وقفت تميل برأسها يمينا ويسارا تستغرب تعبيرات وجهه العجيبة ونظرات عينيه التائهة، هز رأسه إيجابا دون أن ينطق، وأغلق الباب رغم أنها كانت لا تزال واقفة في مواجهته.

أخذ يهز رأسه في عصبية ويضع يديه على وجهه ويرفعهما، لا يعرف أيهما الحلم وأيهما الحقيقة، هل مات مراد بيه وكتب له نصف ثروته أم أنه ما زال حيا وما زال خادمه؟ هل يحلم الآن وسيستيقظ على وكزة جديدة من عصا سيده، أم أنها الحقيقة التي سيعيشها ما تبقى من عمره؟ لو أن الاختيار بيديه قطعا سيختار البقاء في ظل سيده، لكن الأكيد أن الاختيار لن يكون بيديه، فهناك واقع ما سيُفرض عليه وإن كان بقاؤه على هذا الحال لن ينتهي به إلا إلى الجنون.

ارتدى جلبابا كان معلقا على شماعة خلف الباب، نزل متثاقلا فوجد رجلا أربعينيًا يقف شاردا وينظر بانبهار إلى النجف المتدلي من السقف العالي، ثم ينقل عينيه بين قطع الأثاث الكثيرة،

انتبـه إلى قدومـه فانتصـب وبسـط يـده حـتى وصـل إليـه فسـلم عليـه بتوقـير كبـير:

- جنابـك أنـا اسـمي عبـد المعبـود، السـفرجي الجديـد، فهمـي بيـه بعتـني علشـان أقابـل حضرتـك وأبـدأ الشـغل وإن شـاء الله أنـول رضـاك.

- أهلا يا عبد المعبود. وبإذن الله تتبسط معانا.

- أنا مبسوط ما دام شفتك يا سيدي.

نـادى عـلى سـعدية وطلـب منهـا أن تأخـذه إلى إبراهيـم ليسـلمه عهدتـه ويُخـبره بتفاصيـل العمـل، اسـتأذن في أدب وذهـب خلـف سـعدية إلى المطبـخ، ألقـى بجسـده عـلى مقعـد وثـير مـن مقاعـد الصالـون كان مـراد بـك قـد أحـضره قبـل عـدة أعـوام مـن بلجيـكا، بـدأ الاقتنـاع يتسـلل إليـه بـأن وضعـه الحـالي هـو الحقيقـة وبـأن عـودة مـراد بـك إلى الحيـاة لـم تكـن أكـثر مـن حلـم، شـعر بـدوار شـديد فتذكـر أنـه لـم يـأكل شـيئا منـذ سـاعات طويلـة، دخـل المطبـخ أحـضر رغيـف خـبز وضـع فيـه قرصـين مـن الطعميـة، ولفّـه كمـا يفعـل دومـا بعدمـا رفـض عـرض إبراهيـم بتجهـيز الإفطـار لـه، ووسـط نظـرات حائـرة مـن عبـد المعبـود الـذي أدرك لتـوّه أنـه سـيتعامل مـع رجـل غريـب الأطـوار.

صعـد مجـددا إلى غرفتـه وهـو يأخـذ قضمـات متتاليـة مـن السـاندوتش، فتـح النافـذة ونظـر منهـا عـلى الحديقـة، مـن السـور كان يظهـر جـزء مـن جسـد جابـر، تنـاول آخـر قطعـة مـن طعامـه ثـم فتـح البـاب ونـزل وتجـاوز الدهاليـز والممـرات تباعـا ثـم قطـع الحديقـة وخـرج إلى حيـث يجلـس جابـر عـلى دِكـة خشـبية، انتبـه إليـه الأخـير فنظـر إليـه دون أن يقـوم مسـتغربا وجـوده

- فيه حاجة يا بيه؟

- لا مافيش أنا زهقت من القعدة فوق قلت أنزل أشم الهوا.

- أهلا وسهلا.

قالها ثم صرف بصره عنه لثوان وقف فيها يوسف يحك ذقنه تارة وشعره تارة أخرى، قبل أن يتوجه بحديثه للخفير مرة أخرى بصوت متردد:

- انزاح شوية كده خدني جنبك.

استغرق جابر بعض الثواني حتى يستوعب طلب صاحب السراي، بعدها أفسح له مساحة دون أن يتكلم، جلس يوسف ولم يمض وقت طويل حتى وجد موضوعا يبدأ به الحديث:

- إنت منين يا جابر؟

- من سيدي غازي يا بيه.

- آه أسمع عنها، بس عمري ما رحتها، أنا يمكن ماخرجتش من البلد هنا غير ييجي ست سبع مرات بالعَدد، قضيت عمري كله بين حيطان السرايا دي، في الأول كان الموضوع غصب عني، كان ممنوع أخرج غير بإذن أبويا ومن بعده مراد بيه، بس شوية بشوية خدت على كده وبقيت أنا اللي ماحبش أخرج، وحتى لو حبيت مش هلاقي مكان أروحه ولا حد أروح له، لا أعرف صاحب ولا ليا أخ ولا ابن عم، يبقى البيت اللي أعرفه أولى بيا، ومن خرج من داره اتقل مقداره.

- بس انت دلوقتي ما شاء الله بقى عندك سرايا وأطيان وأملاك، ممكن تروح وتيجي، تشوف أملاكك وتعرف اللي شغالين فيها وتتكلم معاهم وتراعي مصالحك.

- أستاذ فهمي قال لي زيك كده برضه، بس صعب، اللي قضى حياته زيي صعب ييجي في آخر أيامه ويغير كل حاجة، زي الأعمى اللي عاش حياته كلها مش بيشوف، لو ربنا شفاه وفتح عينه هيرجع هو يغمضهم تاني بسرعة، أصله مش واخد على النور.

- خلاص. اعمل اللي يريحك.

قالها بنبرة من لا يريد سماع المزيد، لكن يوسف واصل فتح الموضوعات تباعا:

- إنت متجوز؟

- آه الحمد لله. متجوز وعندي ٣ عيال.

- ماشاء الله ما شاء الله. ربنا يخلي. ومبسوط بقى مع عيلتك؟

لم ينتظر إجابة وواصَل:

- أهو أنا بقى عمر ما عرفت يعني إيه عيلة. أمي ماتت وانا عندي ١٥ سنة. جالها السل وهي في عز شبابها، وأول ما الباشا الكبير عرف إن عندها المرض الوحش خلى أبويا يمشيها من السرايا كلها عشان خاف تعدي حد من عيلته، ودّاها بيت أمها، وبعدها بكام شهر قابلت رب كريم، دفنّاها أنا وأبويا وجينا على هنا في نفس اليوم، علشان البيه الكبير كان عازم ناس كبار قوي من مصر وغصب علينا نيجي علشان نخدّم عليهم. جينا وبقينا مش عارفين حتى نبين حزنا عشان الناس مايفكروش اننا مكشرين في وشهم، وبقينا نسمع ضحكهم جايب آخر الشارع وأمي لسه بايتة أول يوم في التُربة، وقبل ما أكمل التلاتين أبويا مات هو كمان، كان نفسه يجوّزني قبل ما يموت بس كل ما نروح نخطب بنت حد يقول بنتنا ماتشتغلش خدامة، وبعد ما مات

أبويا مشي قطر العمر بسرعة لحد ما نسيت موضوع الجواز والعيلة وخدت على حياتي مع مراد بيه.

- بس أهو عوّضك عن كل ده وكتب لك شيء وشويات.

- متأخر. متأخر قوي يا ابني.

قام مستعدا للمغادرة، وواصل:

- أسيبك بقى صدعتك الشوية دول.

- لا يا بيه ماتقولش كده ده انت نورتني.

- بعد كل اللي حكيتهولك ده لسه بتقولي يا بيه؟ بلاش يا بيه دي يا ابني الله يرضى عليك. قول لي زي ما كل الناس هنا بتقول لي، عم يوسف.

- ماشي يا عم يوسف.

- أيوه كده. ربنا يبارك لك في ولادك ويخليك ليهم.

في هذه اللحظة كانت كوثر عائدة من السوق فشاهدت يوسف واقفا مع الخفير، ابتلعت الأمر وألقت السلام ثم دخلت مسرعة على المطبخ، وضعت حقيبة الخضار في الأرض ثم قالت لإبراهيم وسعدية التي كانت تغسل بعض الأطباق:

- شفتوا يوسف وهو واقف مع الغفير الجديد؟

تركت سعدية الأطباق التي تغسلها فورا، وتساءلت مستنكرة:

- والمصحف؟

- آه والله زي ما بقول لك كده. لسه شايفاهم دلوقتي حالا، ولو بصيتي دلوقتي هتلاقيه لسه طالع من معاه.

تداخل إبراهيم في الحوار وهو يواصل تقليب آنية على النار:

- أنـا مـش فاهـم وفيهـا إيـه يعـني إنـه واقـف معـاه. عاملـين موضـوع ليـه؟ مـا يمكـن بيسـأله عـلى حاجـة ولا بيطلـب منـه حاجـة.

- بيسأله إيه بس؟ ده كان قاعد جنبه على الدكة!

- قاعد جنبه ع الدكة؟ كمان؟

- آه والله زي مـا بقـول لـك كـده. وانـا جايـة مـن بعيـد شـفته وهـو قاعـد جنبـه، وأول مـا شـافني جايـة عليـه راح قايـم ومـاشي وفاكـر اني ماشـفتهوش.

- راجل وش فقر.

قالتهـا سـعدية وأتبعـت جملتهـا بصـوت نتـج عـن مصمصـة شـفتيها اسـتنكارا، فيمـا أمّـن إبراهيـم عـلى كلامهـا:

- أهـي دي أول حاجـة تقوليهـا صـح في حياتـك، هـو وش فقـر صحيـح، أنـا لـو مكانـه وورثـت الحوسـة دي أول حاجـة كنـت هاعملها إني أطردكـم طـردة الـكلاب وأقطـع علاقـتي بـأي حاجـة تفكـرني بأيـام الفقـر والصحبـة الشـوم دي، لكـن هنقـول إيـه؟ يـدي الحلـق لـلي بـلا ودان.

عادت كوثر للمشاركة في جلسة النميمة مرة أخرى:

- بـس الـلي انـا مسـتغربة لـه اشـمعنى نـزل يقعـد مـع الغفـير الجديـد الـلي لسـه يـا دوب نعرفـه مابقالنـاش يومـين؟ لمـا هـو عـاوز يحـكي ويتسـاهر كـده مابيجيـش يقعـد معانـا احنـا ليـه، ده بقـى يـا دوب يـاكل اللقمـة ويجـري عـلى فـوق يحبـس نفسـه في الأوضـة لحـد الطقـة الـلي بعدهـا.

أجاب إبراهيم:

- اسـألوا نفسـكم، شـوفوا عملتـوا لـه إيـه خـلاه يغـوّر عـلى القعـدة

معاكم.

فقالت سعدية:

- وهنكون عملنا له إيه يعني ما انت كنت معانا في كل حاجة، حد مننا داس له على طرف؟ هو اللي شكل الفلوس لحست مخه، أراهنك إن كان بيطلع الأوضة يفضل يقرص في نفسه علشان يعرف ان كان صاحي ولا بيحلم.

غيّرت كوثر الموضوع دون مقدمات:

- المهم انت طابخ لنا إيه النهارده؟

وضع إبراهيم الغطاء على الحلة بغيظ، والتفت إليها:

- أهو تصدقوا بقى إن دي أكتر حاجة مزعلاني من يوسف؟ بقى بعد ما كنت بطبخ لبهوات وبشوات وأعيان ينتهي بيا الحال إني أطبخ لكم انتم يا عرر؟ لو كنت باطبخ له هو بس زي ما كنت بطبخ لمراد بيه الله يرحمه كنت يمكن أبلعها شوية، أهو على الأقل ربنا اداله فلوس بالكوم وبقى من الأعيان بمزاجنا أو غصب عننا، لكن أطبخ لكم انتم؟ إنتم؟ آخر زمن والله!

وضعت كوثر سبابتها على خدها وقالت:

- ليه بقى ان شاء الله؟ مانشبهش ولا إيه؟ ما كلنا ولاد تسعة يا اخويا، واللي ادى يوسف قادر يدينا.

فأضافت سعدية:

- جرى إيه يا إبراهيم؟ إنت هتتشطر علينا احنا ولا إيه؟

أنهى إبراهيم الحوار متأففا:

- خلاص يا اختي انتي وهي، لا اتشطر عليكم ولا تتشطروا

عليا، كل واحدة تشوف شغلها خلوني انا كمان أشوف شغلي.

في الأثناء كان يوسف قد عاد لغرفته مجددا، جلس على الأرض محتضنا ركبتيه لا يصدق هذه الإثارة التي طرأت فجأة على حياته التي ظلت مستقرة وجامدة لعقود، يشعر بأنه بات يحيا بلا هدف، كان يعمل ليتحصل في آخر اليوم على لقمة تقيم صلبه ومكانا يضع فيه جنبه، فأصبح الأكل يأتيه بلا عمل والأمكنة كلها طوع أمره، هل سيعيش فقط ليأكل ويشرب كبعير يجهزونه للذبح؟ أم يعمل على زيادة أمواله؟ وهل يحتاج لأن يزيدها وهي تكفي لأن يأكل منها وجباته الثلاث يوميا طوال حياته دون أن يشعر بنقصانها؟ ولمن سيزيدها أصلا؟

أحس بضيق شديد في صدره وبصعوبة في التنفس، قام ففتح نافذة الغرفة وأخرج أنفه يسحب بعض الهواء من الخارج بعيدا عن هواء الغرفة الذي لا يحوي غير أنفاسه، أنعشت برودة الهواء رئتيه، شعر برغبة حقيقية في الخروج من هذه الغرفة، من هذا المنزل، من هذه القرية، لكنه اصطدم بسؤال كل مرة: إلى أين؟

هذا العالم على اتساعه لا يعرف فيه بقعة تحتويه بخلاف موضع قدميه، لا يعرف فيه أحدا إلا أشخاصا يستطيع عدهم بالواحد في ثوان، لا يعرف فيه شيئا إلا ما عرّفه إياه سيده الراحل. يقولون إن الإنسان عدو ما يجهل، ما بالك بإنسان يجهل كل شيء. ما أكثر أعدائه!

إذن فالخيار محسوم، وما سيفعله الآن هو ما يفعله منذ أن أصبح سيد هذا القصر وكلما طرح على نفسه أسئلة لا يجد إجابة لها، سيسحب فرشته وينام، ربما جاءه مراد بك في المنام

وخفـف عنـه وحشـته، ربمـا اسـتيقظ عـلى واقـع آخـر يكتشـف فيـه أن كل هـذا الـذي يعانيـه مجـرد حلـم وانتهـى، ربمـا لا يصحـو مـرة أخـرى وتنتهـي حيرتـه إلى الأبـد، هـذا الحـل الأخـير يريـح جميـع الأطـراف، يريحـه هـو أكـثر مـن أي أحـد آخـر، لكنـه يعـرف جيـدا أنـه خيـار صعـب المنـال، فالمـوت حـين يُطلَـب.. يتمنّـع.

-٢١-

في طريـق عودتنـا إلى القاهـرة جلسـت أمـي بجانـبي في المقعـد الأمامـي، وجلسـت شـقيقاتي الثـلاث في الأريكـة الخلفيـة، كانـت غاضبـة بشـدة مـن سـارة، اسـتنكرت عودتهـا إلى القاهـرة وحدهـا تاركـة عـزاء حماهـا، واستشـهدت بزوجـي أخـتيّ اللذيـن لـم يتركانـا ليـوم واحـد رغـم انشـغالهما، حـتى إنهمـا سـافرا بـين القاهـرة وكفـر الشـيخ نحـو ثـلاث مـرات في هـذه الفـترة، حـتى يسـتطيعا التوفيـق بـين العمـل وأداء الواجـب.

قالـت أيضـا إنهـا حـتى عندمـا كانـت جالسـة في العـزاء كانـت لا ترفع عينهـا عـن شاشـة المحمـول منشـغلة باللعـب عـلى الإنترنـت طـوال الوقـت، ولـم يكـف أنهـا لـم تـذرف دمعـة واحـدة منـذ وفـاة أبي بـل إنهـا كانـت تبتسـم أحيانـا بشـكل يلفـت نظـر جميـع الحـاضرات إذا ما وجـدت شـيئا مضحـكا عـلى شاشـتها، وجدتهـا فرصـة جديـدة للومـي عـلى اختيـاري زوجـة لا تشـبهنا، لـم أكـن راغبـا في خـوض مناقشـات، خصوصـا مـع اقتناعـي بصحـة كثـير ممـا تقـول، لذلـك أمّنـت عـلى كلامهـا باقتضـاب ووعدتهـا بأنـني سـألومها عـلى مـا فعلـت.

لم تكتف أمي بذلك وواصلت:

- وبعديـن انـت ازاي لحـد دلوقـتي مطاوعهـا في قلـة الخلفـة؟ عديتـوا ٤ سـنين أهـو جـواز، مسـتنيين إيـه تـاني؟

فقالت سحر:

- في دي بقـى يـا خالـد مامـا عندهـا حـق، عاوزيـن بقـى نفـرح

بـولادك وتجيـب لنـا ولـد نسـميه عـلى اسـم بابـا الله يرحمـه.

قاطعتها أميرة:

- يـا سـتي ولـد ولا بنـت الـلي يجيبـه ربنـا احنـا راضيـين بيـه، بـس يخلفـوا بقـى عشـان كـده كتـير.

فعادت سحر:

- عـلى رأيـك الـلي في سـنه بقـى عنـده عيلـين وتلاتـة واحنـا لسـه بنتحايـل عليـه يجيـب أول عيـل.

لم تفوّت أمي الفرصة وواصلت:

- هـو انـت بتخـاف منهـا يـا خالـد؟ هـي الـلي مـش عايـزة تخلـف وانـت مـش قـادر عليهـا، صـح؟

نفد صبري ولم يعد الصمت ممكنا:

- أنـا مـش مصدقكـم والله. بجـد مـش مصدقكـم. إنتـو شـايفين ان ده الوقـت المناسـب علشـان نتكلـم في الـكلام ده؟ اسـكتوا بقـى لـو سـمحتم عـاوز أركـز في الطريـق خلونـا نوصـل بالسـلامة.

سـاد الصمـت السـيارة وإن كانـت نفسي لـم تعرف الصمت، اسـتمر الحـوار الغاضـب بداخـلي، لـم يعـد ممكنـا التجـاوز عـن تصرفـات سـارة الـتي تزيـد غرابـة يومـا بعـد يـوم، كأنهـا تريـد تدمـير علاقـتي بهـا تمامـا، في السـنة الأولى للـزواج كانـت شـديدة الرومانسـية وكانـت الفـترات الـتي أقضيهـا في المـنزل عـلى قلّتهـا هـي أفضـل لحظـات حيـاتي، أسـتمتع فيهـا بـكل شيء، بـدءا مـن علاقتنـا الحميميـة الـتي كانـت شـديدة التفـرّد، وحـتى أصغـر الأشـياء كمسـاعدتها في إعـداد العشـاء أو مشـاهدة التلفـاز وهـي تسـند رأسـها عـلى كتفـي.

شيء مـا قلـب حياتنـا رأسـا عـلى عقـب، لا أظنـه الموقـف مـن

الثورة، فمنحنى السعادة بدأ في الهبوط السريع قبل بداية عملي في المستشفيات الميدانية بنحو ٦ شهور، ربما يكون ضغط عائلتها الدائم عليها ومقارناتهم التي لا تتوقف بيني وبين من سبق وتقدموا لطلب الزواج بها، خصوصا مع طول الوقت الذي كانت تقضيه عندهم، ربما لم نتعامل جيدا مع حالة الملل التي تصيب أي زوجين بعد عام الزواج الأول لا سيما في غياب الأطفال، ربما لفشلها في انتزاعي تماما من عائلتي وعدم رغبتها في الاندماج وسط أهلي، لشعورها بوجود فارق في المستوى الاجتماعي بين العائلتين، أو قد يكون هذا التطور الكبير للأسوأ الذي أظهرته في الشهور الأخيرة سببه استعادة والدها كثيرا من نفوذه المالي والسياسي في العام الأخير، ودخوله البرلمان مرة أخرى.

لا أعرف تحديدا ما السبب، وهل هو بين تلك الاحتمالات، أو كلها مجتمعة، أم أنه ليس فيها أصلا وهناك سبب آخر لا أعرفه، كل ما أعرفه أن حياتي مع سارة لم تصبح كما تمنيتها، ولا أعتقد أنها ستصبح كذلك بعد التغيرات الأخيرة، إنجاب الأطفال هو أحد أحلامي أيضا وليس حلم أمي وشقيقاتي وحدهن، كنت أتمنى لو حمل أبي حفيده قبل أن يغادر الدنيا، أعرف أن ذلك كان حلمه الأهم رغم أنه لم يفرضه عليّ قط، كان اتفاقي مع سارة قبل الزواج ألا ننجب طفلنا الأول قبل عامين، مر العامان، ثم مر مثلهما ولم يحدث، وكلما فتحت معها الموضوع خرجت بحجة جديدة.

هناك نقاط كثيرة يجب أن توضع على الحروف، حياتي تحتاج لوقفة أعيد فيها ترتيب الحسابات، تركيزي في عملي ونجاحي

فيـه لا يعـني أنـني سـعيد في حيـاتي، عـلى العكـس، فمـا تركـيزي فيـه أساسًـا سـوى محاولـة للهـروب مـن حسـم نقـاط كثـيرة في حيـاتي، لا أنكـر أن حالـتي النفسـية تأثـرت كثـيرا منـذ انتهـى عمـلي في المستشـفيات الميدانيـة، لا يتعلـق الأمـر بحـبي للدمـاء والاشـتباكات مثـلا، لكنـه يتعلـق بـأن هـذا التوقـف حـدث حـين تعـثرت الثـورة بشـدة وعـادت الوجـوه القديمـة البغيضـة لتحكـم السـاحة، هـذا الأمـر آلمـني بشـدة، لأنـني شـعرت بـأن كل الأرواح الـتي أزهقـت بـين يـديّ والعاهـات المسـتديمة الـتي أكمـل بهـا مئـات الشـباب حياتهم، راحـت سـدى، لـم يتحقـق شيء ممـا أرادوا، بـل ربمـا تحقـق عكسـه.

الظلـم مـا زال موجـودا في كل مـكان، لـم أتوقـع حـتى أن أجـده في قريـتي الصغـيرة، مـا زال الأقـوى يسـيطر ويبسـط نفـوذه ويُفسـد مـن حولـه بفسـاده، ومـا زالـت أرزاق النـاس محـدودة وكرامتهـم مهـدرة، الإهانـة والتنكيـل مصـير كل مـن يحـاول رفـع رأسـه، يجـب أن يعيـش الجميـع بـرؤوس مطأطـأة حـتى لا يرفـع أحـد عينـه فـيرى مـا حوله من كـوارث، يكفـي أن تنظـر لموضـع قدميـك لتبقـى آمنـا، فـإن رفعتهـا لـترى عينـاك منظـرا آخـر كانـت النظـرة الأخـيرة، فمقصلـة الظلـم لا ترحـم أحـدا، يصلـح ذلـك للتعميـم عـلى السياسـة بشـكل عـام، أو للاخـتزال غـير المخـل في قريـة صغـيرة يعـرف سـكانها بعضهـم البعـض واحـدا واحـدا.

قـد لا يكـون إذن فسـاد حيـاتي سـببه سـارة، بـل قـد أكـون أنـا السـبب، قـد يكـون هـذا الـرأس الـذي لا يتوقـف عـن التفكـير واسـترجاع الذكريـات، قـد تكـون الألـوان الثلاثـة الـتي لا تـرى عيـني غيرهـا في السـنوات الأخـيرة عقبـة تمنعـني عـن رؤيـة بقيـة ألـوان الحيـاة. نعـم، فحيـاتي في السـنوات الأربـع الأخـيرة توقفـت عـلى

ثلاثة ألوان حصرا، الأحمر والأبيض والأسود، لا، الأمر لا يتعلق بألوان علم مصر، فالأحمر هو لون الدماء، والأبيض لون الأكفان، والأسود للحداد، من الصعب على عين رأت ذلك، وعلى قلب منفطر تسكنه صور القتلى، وعلى عقل اكتشف أن ذلك كله ذهب أدراج الرياح وعاد الوضع إلى ما كان عليه وأسوأ، أن يجعلوا صاحبهم يستمتع بأي من متع الحياة.

الوقفة واجبة إذن قبل مزيد من التدهور.

وقفة أتحسس فيها موضع قدميّ لأعرف أين أقف، وموضع خطواتي القادمة لأعرف إلى أين سأذهب، وفاة والدي وزيارتي الخاطفة للقرية، وعلاقتي الآخذة في التدهور بزوجتي، أسباب كافية لاستعجال هذه الوقفة، وأنا على يقين أن حياتي بعد هذه الوقفة لن تكون أبدا كحياتي قبلها. أو هكذا أتمنى.

-٢٢-

توقفت بالسيارة أمام البناية ونزلت أمي وشقيقاتي ثم نزلت أنا، أقبل علينا الكثير من الجيران يجددون المواساة ويعرضون الخدمات ويعتذرون عن التقصير ويسألون إن كنا سنقيم صوانًا للعزاء، نفينا بقطع وأكدنا أن باب شقتنا مفتوح للجميع لكن فكرة الصوان غير مطروحة. استأذنت في صعود الشقة لشعورنا بالتعب بسبب طول المسافة من كفر الشيخ إلى القاهرة، وكما توقعت، بمجرد فتح باب الشقة انفجرت أمي في البكاء ودخلت إلى غرفت نومها أخرجت بعض ملابس والدي احتضنتها بشدة، ومعها شقيقاتي واحدة تحاول تصبيرها والثانية تبكي معها، ثم يتبادلن الأدوار.

جلست على مقعد في الصالة حتى تنتهي أمي من طقوسها وبكائها، وكنت أرغب في تركها تبكي لأطول وقت ممكن لأني أعرف أن في ذلك راحة لها، وأن إظهار الحزن مهما كان مؤلما يبقى أفضل من كبته وقمعه، وبعد أن هدأت قليلا ذهبت إليها، أشرت لآية حتى تقوم وجلست بجانب أمي على الفراش، وضعت يدي على كتفها، ومسحت دموعها بإبهامي:

- خلاص؟ ارتحتي؟ أنا سبتك أهو تعيطي وتخرجي كل اللي جواكي علشان مايبقاش ليكي حجة.

- ولو عيطت العمر كله عمري ما هارتاح، ده كان جوزي وحبيبي وأخويا وأبويا وعيلتي كلها.

- واحنا رحنا فين طيب؟ ما احنا كلنا جنبك وحواليكي أهو.

- حواليا ازاي؟ إنت كلها كام ساعة وتروّح لمراتك، واخواتك يومين تلاتة وكل واحدة هتروح لجوزها، حتى آية كام شهر وهتسيبني هي كمان وتتجوز، وكل واحد هينشغل في حاله وهافضل أنا لوحدي.

قالت أميرة:

- ماحدش فينا هيسيبك يا ماما، طول الوقت هتلاقينا رايحين جايين عليكي، وانتي كمان اخرجي وتعالي عندنا من وقت للتاني علشان تغيري جو، ولما تلاقي حد مننا قصّر معاكي ساعتها ازعلي وعيطي واعملي اللي انتي عاوزاه.

هزت أمي رأسها باستخفاف، فأضفت:

- وبعدين يا ستي مين قال لك إني كام ساعة وهامشي؟ أنا هابات معاكم النهارده علشان نتلم كلنا زي زمان.

- ومراتك..

- مالكيش دعوة بمراتي، إنتي يا ست الناس أهم عندي من الدنيا كلها.

احتضنتها بقوة وهكذا فعلت شقيقاتي، طلبت منها أن تقوم لغسل وجهها ففعلت، أمسكت هاتفي ودخلت غرفة جانبية وكلمت سارة:

- إنتي فين؟

- عند بابا.

- طيب احنا وصلنا البيت وهبات مع ماما النهارده.

- زي ما تحب.

- مش زعلانة؟

- لأ خالص، أنا كده كده كنت هبيت عند بابا النهارده.

- تمام. سلام.

- باي.

كان يمكنها أن تمثّل التأثر والحزن، أن تدّعي أنها كانت ترغب في رؤيتي لكنها في الوقت نفسه تتفهم رغبتي في البقاء بجانب أمي، أن تدّعي اضطرارها للمبيت عند والدها حتى لا تبيت في شقتنا وحدها، أو حتى لا تقول أي شيء من ذلك وكنت أنا من سأطلب منها المبيت عند والدها، لكن يبدو أنها تقصد تمامًا ما تفعل، وتتعمد توصيل رسالة ما إليّ، ووصلت رسالتها جيدا.

خرجت باتجاه الحمام فوجدت أمي لا تزال بالداخل فانتظرت على مقعد في الصالة حتى خرجَت، دخلت فغسلت شعري ووجهي ولم أنشفهما جيدا حتى يبقى أثر المياه عليهما، دق جرس الباب، الأستاذ كمال جارنا في الطابق الخامس جاء لتقديم العزاء، اعتذر كثيرا عن عدم سفره معنا إلى كفر الشيخ بسبب ظروف قهرية حدثت له في العمل حالت دون ذلك، ثم تحدث عن علاقته المتينة بوالدي والتي تجاوزت العشرين عاما لم ير خلالها منه إلا كل خير وحسن جيرة، إلى آخر هذه الكلمات التي تقال في مثل هذه المناسبات.

أحضرَت سحر الشاي، شرب قليلا منه ثم استأذن في الانصراف، وبينما هو يسلم عليّ ويحتضنني بقوة وافتعال دق جرس الباب من جديد، الحاج جاد صاحب المخبز الموجود في مدخل الشارع،

سـلّم عـليّ ثـم عـلى الأسـتاذ كمـال، دخـل هـو وغـادر الأسـتاذ كمـال، عـزّى واعتـذر وذكـر محاسـن المرحـوم كمـا فعـل الأسـتاذ كمـال، ولـم يكمـل شـايَه أيضـا كالأسـتاذ كمـال، وقبـل أن يغـادر كان غـيره قـد جـاء لنفـس الغـرض، تركـت بـاب الشـقة مفتوحـا واسـتمر الحـال هكـذا لسـاعات دفعـة تخـرج وأخـرى تدخـل، وعندمـا أشـارت السـاعة إلى العـاشرة مسـاء توقفـت الزيـارات.

أغلقـت البـاب بسرعـة وأطفـأت النـور الخارجـي، أحـضرت آيـة عَشَـاء جهّزتـه قبـل سـاعتين ولـم نجـد فرصـة لتناولـه، كان الجـوع يتمكـن مـني فعـلا ولذلـك أكلـت بنهـم للمـرة الأولى منـذ أيـام، تحدثـت مـع أمـي لبعـض الوقـت في مـا يتعلـق بإجـراءات معـاش أبي، وقمنـا جميعـا إلى النـوم بعـد يـوم لـم نعـرف فيـه الراحـة، بـدءا بالسـفر الطويـل وحـتى ليلـة العـزاء الجديـدة الـتي لـم تكـن في الحسـبان، دخلـت غرفـتي الـتي كانـت محـل إقامـتي الدائـم وأنـا أعـزب، نمـت عـلى نفـس الفـراش الـذي حكيـت لـه في السـابق عـن أحلامـي ومخـاوفي وحكيـت لـه قصـتي مـع سـارة، اليـوم أعـود إليـه وأشـياء كثـيرة تغـيرت، أحلامـي منهـا مـا تحقـق ومنهـا مـا انقلـب إلى كوابيـس، مخـاوفي حلـت محلهـا مخـاوف وهمـوم أعمـق وأصعـب، وسـارة لـم تعـد سـارة، كمـا لـم أعـد أنـا أنـا.

رغـم تعـبي الشـديد اسـتيقظت مـع أول شـعاع للشـمس، أخـذت حمامـي وارتديـت ملابـسي ونزلـت قاصـدا المستشـفى، فقـد زادت أيـام غيـابي عمـا يجـب، بعـد وصلـة تعزيـة جديـدة مـن الزمـلاء صعـدت غرفـة الأطبـاء لتبديـل ملابـسي وبـدء العمـل، لكـن رئيـس القسـم دخـل خلفـي وطلـب مـني المغـادرة وأخـبرني بأنـه أعطـاني إجـازة ليومـين إضافيـين، حـتى أسـترد عافيـتي وتتحسـن حالـتي

النفسية وأكون قادرا على العمل، شكرته دون مناقشة، فقد كنت أشعر فعلا بإرهاق بدني ونفسي شديدين لا يسمحان لي بممارسة عملي كما يجب.

في طريق العودة إلى المنزل تذكرت سرحان، رغبت بشدة في معرفة مصير هذا المسكين، كلّمت هيثم وعرفت منه أن العمدة اصطحبه في الصباح إلى المركز ومعه سلاح أبيض واتهمه بالشروع في قتله، لتبنيه أفكارا تكفيرية تدفعه إلى رفض الاعتراف به كممثل للسلطة، الغريب أن خمسة ممن حضروا الواقعة في المضيفة شهدوا في المحضر بصحة كلام مبروك وزعموا أنه في أثناء محاولة الاغتيال كان يهتف «الله أكبر»!

سألت هيثم عن السبب الذي لم يجعل أيا من أهل البلد، الذين حضروا الواقعة، يذهب إلى المركز لنفي كلام العمدة وغوث هذا البائس المحمل باتهامات تكفيه ليقضي بقية حياته في السجن، لكن عرفت منه أن مبروك رتب كل شيء مع المأمور، وأن أي شهادة مخالفة لروايته لن يتم إضافتها للمحضر، هذا بافتراض أن أحدا سيجرؤ على فعل ذلك أصلا، كما لم يتم إثبات إصابات سرحان التي تملأ وجهه وأنحاء جسده من جراء الاعتداء عليه من خفر ورجال العمدة لساعات، فلماذا إذن يخاطر هو أو غيره بكسب عداوة مبروك ما دام تصرفهم لن ينقذ سرحان؟

أنهيت المكالمة وقد زاد اكتئابي واسودت الدنيا في وجهي، ما هذا العالم الذي يملأه الظلم؟ وإلى متى يواصل الشر انتصاراته؟ ومتى يتحقق ولو لمرة ما نراه طوال الوقت في الأفلام وينتصر الخير في نهاية المطاف؟ شعرت بأنني أحد الشياطين الخرساء

الـتي رأت الواقعـة مـن أولهـا إلى آخرهـا ورغـم ذلـك تـترك بريئـا يُسـاق إلى المقصلـة بتهـم ملفقـة دون تحريـك سـاكن.

قـررت ألا تسـتمر هـذه المهزلـة، وأن يكـون لي دور في نـصرة حـق لا مـراء في كونـه حقًّا، وإذا كان أهـل القريـة يخشـون بطـش العمـدة وهـو بينهـم فأنـا أفضـل منهـم حـالا، ولا يملـك هـذا المعتـوه مـن أمـري شـيئا. ذهـابي لدفـن أبي ووجـودي غـير المرتـب في هـذه المضيفـة في هـذه اللحظـة، وكـوني الغريـب الوحيـد المحصـن مـن بطـش هـذا المسـتبد المجنـون، ربمـا يكـون كل ذلـك ترتيبـا سـماويا لـكي ينتـصر الحـق عـلى الباطـل في النهايـة، وأكـون أنـا الأداة. فرصـة لا يجـب إفلاتهـا.

-٢٣-

- تمام يا دكتور خالد. تقدر تتفضل.

قالها الضابط بعد أن سمع شهادتي وأكد أنه سيضمها إلى المحضر، فقلت:

- أيوه يعني إيه اللي هيحصل بعد كده؟

- اللي هيحصل بعد كده لا بتاعي ولا بتاعك يا دكتور، المحضر والمتهم هيروحوا النيابة وهي هتتصرف، قدامها ٥ شهود بيقولوا إنهم شافوا سرحان وهو بيحاول يقتل العمدة بسلاح أبيض وشاهد واحد بيقول ماحصلش، وبالمناسبة، شهادتك دي بتخالف شهادة سرحان نفسه، لأنه اعترف إنه حاول يقتل العمدة بسكينة.

حاولت استيعاب ما قاله الضابط، لكنني لم أستطع، ولذلك سألته مجددا:

- حضرتك بتقول إيه؟

- زي ما سمعت. سرحان اعترف على نفسه، يعني ممكن العمدة دلوقتي يتهمك بالبلاغ الكاذب ومحاولة تشويه سمعته.

- أكيد الاعتراف ده جه تحت التعذيب، أكيد عذّبتوه وأجبرتوه يعترف!

- لو سمحت يا دكتور. إنت شكلك راجل محترم ومتعلم فيا ريت ماتقولش كلام مستفز يجبرني أرد عليه بطريقة مش هتعجبك. عموما هو خلاص رايح النيابة، ويقدر يقول قدامها

إن اعترافه جه تحت التعذيب لو كان ده حصل فعلا. ويلا بقى بعد إذن حضرتك عشان عندي شغل كتير.

خرجت من مركز الشرطة لا أفهم شيئا، رن هاتفي فإذا به هيثم الذي جاء اتصاله في الوقت المناسب، فقد كنت أفكر فيه حالا ربما يملك معلومة أو تفسيرا لما يحدث، فتحت الخط فورا:

- أيوه يا هيثم ازيك؟

- إيه اللي انت نيلته ده يا ولد؟

لم يكن صوت خالد بل صوت عمي شحاتة:

- خير يا عمي عملت إيه؟

- إنت ازاي تروح المركز وتشهد على العمدة وكمان من غير ما تقول لي، هو انت مالكش كبير؟ مالك انت ومال اللي بيحصل في البلد، ما تسيب القرف لاصحابه وتخليك انت في شغلك وحياتك، هو انت عشان قعدت هنا يومين هتجيب لنا المصايب والمشكلات وتمشي؟

استغربت معرفته السريعة بما فعلته، فلم أصرّح لأحد ولا حتى لأمي بما أنوي فعله، بالتأكيد مصدر المعلومة شخص ما داخل المركز اتصل بعمي، أو بالعمدة الذي بدوره أخبر عمي، حاولت تهدئته بالتأكيد على أنني لم أفعل إلا ما رأيته صحيحا، وبأنني لم أكن أعلم أن هذا سيغضبه، لكنه ظل ثائرا لا يمنحني أي فرصة لإكمال جملة ويكيل لي الإهانات والاتهامات بعدم المسؤولية وعدم معرفة نتيجة ما صنعت، لم أجد مخرجا سوى أن طلبت منه تأجيل الحديث الآن وأخبرته بأنني لن أسافر

إلى القاهـرة وسـآتي إلى البلـد حـالا للقائـه.

في الطريـق اتصلـت بهيثـم لمعرفـة مـا جـرى وصـدق حـدسي، مأمـور المركـز اتصـل بالعمـدة وأخـبره بمـا فعلتـه، فاتصـل مـبروك بعمي عـلى الفـور وكال لـه التهديـدات واتهمـه بعـدم السـيطرة عـلى أولاده، سـألته إن كانـت لديـه معلومـات بشـأن مـا قالـه لي الضابـط عـن اعـتراف سرحـان بمحاولتـه قتـل العمـدة، فقـال إن مـا عرفـه أن مـبروك قبـل أن يسـلّم سرحـان للمركـز خـيّره بـين التصديـق عـلى روايتـه والاعـتراف بهـا مـع الاكتفـاء بعقابـه هـو، أو لا يفعل وسـاعتها لـن يـترك أحـدا مـن أهلـه حـتى يشردهـم جميعـا ويطردهـم خـارج القريـة، فاختـار سرحـان الحـل الأول.

أغلقـت الهاتـف وقـد اسـودت الدنيـا في عيـني، وشـعرت بعجـز كالـذي كنـت أشـعر بـه في كل مـرة يمـوت فيهـا شـاب أمامـي في المستشـفى الميـداني دون أن يكـون بيـدي أي شيء، لا يختلـف مـا فعلتـه الآن في المركـز عما كنـت أفعلـه وأنـا أعطـي المحتـضر حقنـة مسـكنة أو عقـارا لإيقـاف النزيـف، كلهـا محاولـة لتسـكين ضمـيري أنـا وليـس لتسـكين ألمهـم هـم، فـلا حقنـتي سـتعيد محتـضرا إلى الحيـاة، ولا شـهادتي سـتنتزع سرحـان مـن بـين مخالـب وأنيـاب مـبروك.

وصلـت بيـت عمـي وأنـا بالفعـل خائـف مـن لقائـه، أصبحـت أقـدّر غضبـه أكـثر بعدمـا عرفـت قـدرات مـبروك وعلاقاتـه المتشـعبة الـتي تجعلـه قـادرا فعـلا عـلى الإيـذاء، كان هيثـم يقف عـلى البـاب منتظرا قدومـي، لـم يصـبر حـتى أنتهـي مـن ركـن السـيارة ونـزل ليتحـدث إليّ قبـل الدخـول لأبيـه، وبمجـرد أن أبطلتهـا فتـح لي البـاب، وقـال:

- إيـه يـا خالـد، طيـب بـلاش عمـك، كنـت كلمتـني أنـا قلـت لي يـا

أخـي أحسـن مـا نعـرف مـن الغريـب كـده!

- كنـت فاكـرك الوحيـد هنـا الـلي ممكـن تقـدّر وتفهـم الـلي انـا عملتـه. ده انـا توقّعـت اني ممكـن أقابلـك هنـاك بتشـهد بالحـق.

- حـق مـين يـا ابـو حـق؟ إنـت بايـن كـده الثـورة كلـت دماغـك. يـا حبيـبي الـكلام ده مـش في مـصر. البلـد دي كـده وهتفضـل كـده ولـو قامـت فيهـا كل يـوم ١٠٠ ثـورة، هيفضـل فيـه نـاس فـوق ونـاس تحـت، وهيفضـل النـاس الـلي فـوق يعملـوا الـلي هـم عاوزينـه في النـاس الـلي تحـت، والنـاس الـلي تحـت مافيـش قدامهـم غـير إنهـم يسـتخبوا جنـب الحيـط علشـان النـاس الـلي فـوق مايشـوفوهمش، والـلي يبعـد منهـم شـوية عـن الحيـط، يبقـى هـو الـلي جـنى عـلى نفسـه. دي قواعـد اللعبـة يـا عـم خالـد، ولحـد مـا تغيرهـا مافيـش قدامـك اختيـار تـاني غـير إنـك تلـتزم بيهـا.

- طيـب ممكـن نأجـل المحـاضرة دي شـوية علشـان فيـه محـاضرة تانيـة مسـتنياني جـوة؟ ممكـن؟

- آه يا خويا ممكن. اتفضل!

اصطحبـني للداخـل، حيـث كان عمـي يجلـس عـلى الأرض مسـتندا عـلى وسـادة سـميكة وأمامـه الشيشـة ينفـث دخانهـا بغيـظ، ألقيـت عليـه السـلام فلـم يـرد ولـم ينظـر إليّ حـتى كأنـني غـير موجـود، جلسـت بجـواره وبحثـت عـن مدخـل يمكـن أن يذيـب هـذه الأجـواء المتوتـرة:

- يعـني انتـو تربونـا عـلى الحـق والحـلال والحـرام ولمـا نعمـل بالـلي ربتونـا عليـه تزعلـوا؟

أخـذ نفَسًـا جديـدا مـن الشيشـة احتفـظ بـه داخلـه لثـوان ثـم

أخرجـه ببـطء، ووضـع ليّ الشيشـة بجانبـه عـلى الأرض ثـم التفـت إليّ، ورمقـني بنظـرة لـم أحتملهـا فصرفـت نظـري إلى الدخـان المتكاثر في سـقف الغرفـة، وبعـد ثـوان مـن الصمـت قـال بهـدوء لـم أكـن أتوقعـه:

- لمـا يبقـى فيـه قَطْـر جـاي عـلى آخـر سرعـة وفيـه واحـد مـاشي عـلى القضيـب مـش شـايفه وخـلاص بـين القطـر والراجـل ده ١٠ مـتر، تسـيبه ولا تجـري عليـه وتحـاول تنقـذه؟

لم ينتظر إجابتي وواصل:

- لـو سـبته هيمـوت، ولـو جريـت عليـه برضـه هيمـوت، الحاجـة الوحيـدة الـلي هتتغـير إنـك هتمـوت معـاه. سـاعتها الـلي انـت عملتـه ده ماينفعـش يتسـمى شـجاعة ولا رجولـة، ده اسـمه عَبَـط، اسـمه رمْـي في التهلكـة، وده بالظبـط الـلي انـت عملتـه.

- بس أنا مارمتش نفسي في تهلكة!

- مـا هـو ألعـن، إنـت رميـت غـيرك، رميتنـا احنـا، عملـت الـلي عملتـه وهتسـافر بعدهـا تشـوف شـغلك وتعيـش حياتـك ٢٤ قـيراط، وتسـيبنا احنـا في وش المدفـع، في وش واحـد مجنـون، والـلي عملتـه ده هـيزوّد جنانـه.

لـم أجـد كلمـات كثـيرة أقولهـا لأن في كلامـه منطـق متماسـك لا يمكـن إنـكار وجاهتـه، ولذلـك اتجهـت لطـرح الأسـئلة:

- طيـب والحـل يـا عمـي؟ نسـيب الباطـل يكـبر والنـاس تكفـر بالحـق؟ ولا نحـاول ونعمـل الـلي نقـدر عليـه؟

أخـذ ينبـش في إنـاء فخـاري مملـوء بالرمـاد، ويخـرج قطـع فحـم مشـتعلة يضعهـا عـلى حجـر المعسـل، وقـال:

- إياك تكون فاكر اني مبسوط باللي بيحصل، بس احنا خلاص خدنا على كده، حاولنا كتير مع مبروك واللي قبله واللي قبله، وفي كل مرة كانوا بيزيدوا افترا أكتر لحد ما بطلنا نحاول. أنا راجل خلاص في أواخر أيامي مش عاوز حاجة من الدنيا، وكل اللي عاوزه إني أعيش اليومين اللي فاضلين لي محترم من غير ما حد يدوس لي على طرف. انت وأخوك هيثم المستقبل لسة قدامكم طويل، مش عاجبك الوضع تعالى أقعد هنا وحاول تغيره، يا إما بقى تخليك في مصر وتنسانا، ولو مش هنشوف من وراك خير فأقل ما فيها ماتجيبلناش الأذى.

نظرت إلى هيثم فبدا عليه الاقتناع بكلام والده، اعتذرت لعمي عن أي حرج سببته له واستأذنته في الانصراف حتى أصل القاهرة قبل المساء، خصوصا أن أحدا لا يعرف بأمر سفري إلى كفر الشيخ، رفض السماح لي بالانصراف قبل تناول الغداء، لم أجادل لأنني أعرف أن الجدل مع عمي شحاتة ليس إلا مضيعة للوقت والجهد، وأنه سينفذ في النهاية ما يريد، تناولنا غداءنا وشربنا الشاي ثم سلمت على الجميع وهممت بالانصراف بعدما طلبت منهم عدم إخبار أمي بأي شيء مما حدث.

-٢٤-

مضت أيام كثيرة وما زال كلام عمي يتردد في أذني، وما زالت صورة سرحان ماثلة أمامي، وما زال طيف مبروك يمر أمامي بين الحين والآخر يخرج لسانه، لم يعد العمل قادرا على أن ينسيني همومي كما كان في السابق بل هو أيضا تعرضت فيه لبعض المشكلات، همومي التي زادت بأعباء زيارتي شبه اليومية لأمي، وفتور علاقتي بسارة لدرجة لا تُحتمل، والفراغ الكبير الذي خلّفه أبي، تشابكت همومي الخاصة مع العامة فتعقدت حياتي.

فكرت في إحضار أمي وآية لتعيشا في شقتي بعض الوقت لحين ترتيب أموري بحيث أخفف عن كاهلي مسؤولية زيارتهما المنتظمة، لم أكن واثقا في موافقة أمي على هذا الاقتراح لكنني استطلعت رأي سارة أولا قبل أن أفاتح أمي بأي شيء.

- لأ طبعا!

هكذا جاء ردها مفاجئًا وصادمًا وقاطعًا، فسألتها مستنكرا:

- لأ طبعا؟ يعني إيه لأ طبعا؟

- متهيألي لأ طبعا مالهاش معنى تاني.

- ولأ ليه بقى ان شاء الله؟

- علشان مش باحب حد يقيّد حريتي في بيتي.

- بس دي مش حد، دي أمي!

- بس مش أمي.

- هـو انـتي ليـه بقيـتي فجـة كـده؟ ليـه بقيـتي بتشـوفي إيـه أكـتر رد ممكـن يزعلـني وتقوليـه؟

- إيه ده انت خدت بالك؟ أخيرًا!

- خدت بالي من إيه؟

- إني مابقتش حابة نكمل مع بعض.

- لا أنا واخد بالي من زمان بس كنت باحاول أعرف إيه السبب؟

- عـاوز تعـرف السـبب؟ أقـول لـك أنـا، وهـو مـش سـبب واحـد الحقيقـة.

يمكـن حسـيت إننـا اتسرعنـا في الارتبـاط، ماخدنـاش فرصـة نعـرف بعـض كويـس ونفهـم إننـا مختلفـين في حاجـات كتـير وكل واحـد فينا ليـه اهتمامـات غـير التـاني خالـص، لا ثقافتنـا واحـدة، ولا تفكيرنـا واحـد، ولا مسـتوانا الاجتماعـي قريـب مـن بعـض، والموضـوع مالـوش دعـوة عـلى فكـرة بالغـنى والفقـر والحاجـات الـلي بتزعلـك دي، الموضـوع لـه علاقـة بالدمـاغ الـلي أنـا حاولـت كتـير أغيرهالـك وأطورهالـك بـس انـت يـا عيـني كنـت مخلـص قـوي للطبقـة الـلي انـت جـاي منهـا ومـش عـاوز تتحـرك مـن جنبهـا، إنـت واحـد بتـاع ثـورة ثـورة حـتى النـصر، وأنـا واحـدة أبوهـا مـن النـاس الـلي بتقولـوا عليهـم فلـول وكنتـوا عاوزينهـم يسـتخبوا في بيوتهـم زي الفـيران أو يقضـوا بقيـة حياتهـم في السـجن.

ده انـا يمكـن اسـتغنيت طـول الوقـت ده في حقـي إني أبقـى أم علشـان حاسـة إن العلاقـة ممكـن توصـل لنهايتهـا في أي وقـت، فلمـا ده يحصـل واحنـا مافيـش حاجـة بتربطنـا ببعـض هيكـون أحسـن ليك وليا.

صحيح عشت معاك لحظات حلوة، وصحيح كمان أنا اللي سعيت للعلاقة في البداية، وممكن مايكونش العيب فيك ويكون فيا أنا، بس في النهاية النتيجة واحدة. إننا صعب نكمل حياتنا مع بعض.

انتظرت حتى انتهت من كلامها، ثم سألتها:

- إنتي عايزة تتطلقي يا سارة؟

أجابت:

- أيوه.

فقلت:

- إنتي طالق.

نطقتها دون أن أشعر بلحظة تردد قبلها أو لحظة ندم بعدها، خرجت من الباب ركبت سيارتي إلى شقة أمي، سلمت عليها وأخبرتها بأنني جئت لأبيت معها الليلة بعد أن وصّلت زوجتي لبيت أبيها، لم أُرد أن تنهي يومها بخبر سيئ، أخبرتها في الصباح، غضبت بشدة، شتمتني، عرضت أن تذهب إلى سارة لتوفّق بيننا وتعيد المياه لمجاريها، رفضت وأخبرتها بأنها صفحة في حياتي وطويتها وانتهى الأمر، حاولت أن تكلم سارة بعيدا عني، لم ترد عليها، خاصمتني، رغم ملاحظاتها الكثيرة عليها، ولومها الدائم لي على اختيار زوجة «مش من توبنا»، قارب حزنها على طلاق حزنها على وفاة أبي.

شعرت براحة نفسية كبيرة بعد الطلاق، سعدت كثيرا بإغلاق ملف كان معلقا بلا داع، وسعدت أكثر بانتهاء الأمر كـ«شكة دبوس» دون أن يسبب لي ألما يذكر، فشهوري الأخيرة معها لم

تـترك لهـا في قلـبي شـيئا يجعلـني أحـزن عـلى فراقهـا.

تراجـع غضـب أمـي بالتدريـج، ذكّـرت نفسـها بمواقف سـارة السـيئة الكثـيرة معهـا، حـتى قالـت لي في يوم:

- عـارف يـا خالـد؟ أحسـن حاجـة عملتهـا إنـك طلقـت البـت دي، والله يـا ابـني مـا كانـت بتـنزل لي مـن زور، كنـت بقريـع وراهـا شفشـق ميّـه بحالـه عشـان أبلعهـا، يـلا بقـى الله يسـهل لهـا مطـرح مـا راحـت، بـس المـرة دي بقـى أنـا الـلي هاجـوّزك بـدل مـا تـروح تبلينـا بمصيبـة تانيـة.

أخبرتهـا بأنـني لا أفكـر في الـزواج أصـلا حاليـا، ورغـم رغبتهـا الشـديدة في تزويجـي بـ«سـت سـتها»، حـتى تـرى حفيدهـا قبـل أن تلحـق بـأبي، فإنهـا لـم تضغـط عـليّ حـتى أتعـافى مـن أثـر زيجـتي الفاشـلة. في هـذا الوقـت كان تفكـيري منصبـا عـلى أمـر آخـر تمامـا، بـدأت أفكـر بجديـة في عـرض عمـي، أن أتـرك هـذه العاصمـة الخانقـة الـتي أسـترجع عـشرات الذكريـات الحزينـة كلمـا مـررت بأحـد ميادينهـا وأبـدأ حيـاة جديـدة في القريـة، فـترة أغسـل فيهـا روحـي مـن رواسـب السـنوات الأخـيرة، وأجـدد نشـاطي وطاقـتي بمعركـة جديـدة عـلى مسـتوى أصغـر وأكـثر محليـة مـع عمدتهـا المسـتبد وأهلهـا الصامتـين.

لكـن الأمـر يتطلـب دراسـة جيـدة لأن حيـاتي لا تحتمـل إخفاقـا جديـدا، خصوصـا أنـني قـد بـدأت في صنـع اسـم لنفـسي ووجـدت موضـع قـدم في سـوق الطـب المزدحمـة، خطـوة مـن هـذا النـوع سـتجعلني أبـدأ مـن جديـد في مـكان مختلـف، وأتعامـل مـع ثقافـة مختلفـة ثبـت مـن قبـل أنـني لا أعـرف شـيئا عنهـا، وفـوق كل ذلـك سـأبدأ بعـداوة مسـبقة مـع مـبروك الـذي لـن ينـسى ذهـابي إلى مركـز

الشرطـة وشـهادتي ضـده، بخـلاف أمـي الـتي لا بـد أن توافـق عـلى الانتقـال معـي إلى القريـة وتـرك بيتهـا الـذي أعـرف جيـدا مـا يعنيـه لهـا.

الصعوبات كثيرة.. لكن الدوافع أكثر.

-٢٥-

اتهمتني أمي بالجنون حين أخبرتها بقراري. اعتقدت أن القرار نابع من صدمتي بعد الطلاق، لذلك عرضت عليّ الرجوع إلى سارة إن كان الأمر يؤثر في حالتي النفسية لهذه الدرجة ويدفعني لاتخاذ قرارات تضر مستقبلي، نفس الأمر بالنسبة لشقيقاتي، أميرة وسحر أصيبتا بصدمة كبيرة لمجرد التفكير في أنهما ستبقيان في القاهرة وحدهما دون والدين أو أخ، وآية لم تكن مستعدة لترك خطيبها الذي يسكن في نفس الشارع لتبتعد عنه عشرات الكيلومترات، خصوصا أنهما يضعان الرتوش الأخيرة على شقتهما وأثاثهما استعدادا للزواج بعد شهور قليلة.

استخدمت أساليب كثيرة لم تفلح في إقناع أمي، وعندها نزلت بالكارت الأخير الذي كنت أعلم مسبقا أنه سيحسم كل شيء:

- يعني مش عاوزة تسيبي الشقة عشان عشتي فيها مع أبويا عمرك كله، ومش عاوزة تروحي تعيشي جنب قبره وتزوريه وقت ما تحبي انشاالله كل يوم؟

وافقت أمي في نهاية المطاف، ووافقت شقيقاتي، أو بالأحرى قلت ممانعتهن بعدما وعدتهن بأننا سنكون طوال الوقت «بين هنا وهناك»، وسنأتي إلى القاهرة مرة كل أسبوع ونتجمع في شقة والدنا، وبعد أن أمّنت جبهتي الداخلية اتصلت بعمي أبلغته بقراري وطلبت منه أن يشتري لنا منزلا مناسبا في القرية لأقيم فيه مع أمي، ويصلح في الوقت نفسه لفتح عيادة في جزء منه،

وطلبت منه أن يكتبه باسمه لأن مبروك قد يعرقل البيع إذا علم أنني المشتري وأنني قررت الإقامة في القرية.

وافق عمي مُرحبا ووعدني بإتمام الأمر في أسرع وقت، أما هيثم فعلق على كلامي بكلمة واحدة:

- مجنون!

بدأت إجراءات نقلي إلى مستشفى كفر الشيخ المركزي، استغرق زملائي ورؤسائي وقتا طويلا ليصدقوا أنني جاد في طلبي وأن الموضوع ليس مزحة، رئيس القسم كان أكثرهم حزنا، يرى أنني طبيب واعد ولي مستقبل كبير، وبدأت بالفعل أضع قدمي على أول الطريق، والانتقال للأرياف سيقلل كثيرا من فرصي ولن يسمح لي بإظهار كفاءتي، لكنه أمام حسمي وإصراري لم يكن أمامه إلا توقيع الطلب.

في المساء كانت أمي تجهّز بعض الحقائب استعدادًا للرحيل، طلبت مني أن أجلس بجوارها لأنها تحتاجني في أمر هام، نظرت إليّ نظرة أعرفها جيدًا، تنظرها لي دوما حينما تريد سؤالي عن شيء ما وتريدني أن أرد بالحقيقة، قالت:

- دلوقتي أنا سمعت كلامك وهديت عشّي وهاجي أعيش معاك في كفر الشيخ، بس اوعى تفتكر إني عملت كده بس علشان أبقى جنب قبر أبوك بس، أنا عملت كده لأني حسيت إنك واخد قرار وهتنفذه، وكده كده هتروح تعيش هناك سواء جيت معاك أو لأ، علشان كده قلت يبقى بمزاجي أحسن ما يبقى غصب عني، وإن جالك الغصب اعمله بجميلة، فأقل ما فيها أبقى عارفة انت بتعمل كده ليه.

وقبل أن أبدأ حديثي أكملت:

- بس استنى قبل ما تتكلم. أنا عاوزة اسمع الكلام اللي بجد مش الكلام اللي انت فاكر إنك هتضحك عليا بيه.

نظرت في السقف للحظات وأطلقت تنهيدة سريعة ثم قلت:

- بصي يا ماما. صدقيني أنا نفسي ماعنديش تبرير ولا تفسير مباشر أقدر أقوله وانا متأكد إن هو ده فعلا اللي خلاني أفكر في الخطوة دي، بس يمكن فيه شوية أفكار على شويتين إحباطات وحالة نفسية مش مظبوطة مخليني فعلا محتاج أغير مكان وأغير وشوش. الفترة اللي فاتت كانت صعبة قوي عليا، من أول الدم اللي لسه على إيدي وإحساسي دايما بالتقصير في حق كل واحد ماقدرتش أساعده، وأبويا اللي غلط لما ماخلاش ليا أي صاحب غيره وفجأة سابني وساب وراه فراغ ماحدش قادر يملاه، ولحد طلاقي من سارة وسؤالي لنفسي دايما: ليه ماعرفتش أختار؟

كل ده خلاني حابب أبعد شوية عن القاهرة اللي بقت كل حتة فيها بتفكرني بذكرى وحشة بتاكل من روحي حتة، ولما رحت البلد حسيت إنها ممكن تكون المكان اللي يعديني من المرحلة دي، حياة بسيطة وهادية في وسط أهلي وناس من دمي متأكد إنهم بيحبوني حتى لو علاقتنا بيهم سطحية بسبب بعدنا عنهم سنين طويلة. بابا قال لي في مرة: «أول ما تحس بحزن أو خوف شوف أكتر حد بيحبك ارمي نفسك في حضنه واتحامى فيه، لو ماقدرش يحميك فعلى الأقل مش هيطعنك في ضهرك»، أنا دلوقتي بانفذ وصيته. هاقعد وسط عيلتي وهشوف من هناك الصورة أوضح وأراجع كل حساباتي، وبعدها هاشوف الخطوة اللي بعد كده ممكن تكون إيه.

ربتت أمي على كتفي وقاومت دموعها لتواسيني وأكدت لي أنها ستبقى بجانبي حتى تمر هذه المرحلة وأنها واثقة في مرورها سريعا. عادت لما كانت تفعله، وقمت لأرتاح قليلا في غرفتي بعدما قضيت اليوم متنقلا بين المصالح الحكومية لإنهاء بعض الأوراق. سعدت كثيرًا لأن أمي اكتفت بما قلته لها ولم تشعر بأنني أخفي عليها سببا آخر اسمه العمدة مبروك، لأنها لو علمته ما كانت لتسمح لي بمجاورة الخطر أيا كانت أسبابي الأخرى. الأكيد أنها ستعرف مع الوقت لكن الأمر سيختلف كثيرا إذا علمته ونحن هناك وبعدما تُصبح إقامتنا هناك أمرا واقعا.

في الصباح كان عمي يزف لي خبر العثور على منزل مناسب جدا على شارع رئيسي ويتكون من طابقين يمكنني فتح عيادة في الطابق الأول والإقامة في الثاني، طلب مني أن أنزل لأتفقده وأرى إن كان سيعجبني أم لا، لكنني رفضت وطلبت منه أن يُنهي إجراءات الشراء سريعا ما دام أعجبه، ثم طلبت رقم حسابه في البنك لأرسل إليه المال اللازم خلال ساعات، لكنه رفض وقال إنه سيدفع الثمن من ماله الخاص على أن أحوّل له المال في أي وقت أو أحضره معي عند القدوم إلى القرية، وقال إنه بمجرد نقل ملكية البيت إليه سيسجله باسمي في الشهر العقاري. لم تكن تعنيني هذه الأمور الشكلية، لكنه أصرّ من منطلق أن «ماحدش ضامن الموت من الحياة»

«عاوزة أقابلك ضروري. قابلني الساعة ٤ في الكافيه اللي اتقابلنا فيه أول مرة في الزمالك»

فاجأتني سارة بهذه الرسالة الغامضة، لم أرها منذ تقابلنا عند المأذون لإتمام إجراءات الطلاق، كانت ملامحها جامدة

لـم تجعلـني أحـدد إن كانـت سـعيدة أم حزينـة، لكـن أمـارات السعادة عـلى وجـه والدهـا كان يمكـن تمييزهـا بسـهولة، أخـبرني أنـه لا يريـد مـني أي شيء، لا مؤخـر ولا شـقة ولا منقـولات، وبـأن كل شيء نصيـب و«ماحـدش عـارف الخـير فـين»، وتمـنى لي التوفيـق في خطـواتي القادمـة.

لـم أكـن راغبًـا في رؤيتهـا مجـددا، لـم أكـن راغبًـا في مقابلـة أي أحـد أو أي شيء يذكـرني بـأي مـاضٍ أيـا كان، لكنـني أيضـا كنـت أريـد أن أعـرف سـبب طلـب المقابلـة ولـو مـن بـاب الفضـول. في الموعـد كنـت أمـام الكافيـه، وجدتهـا جالسـة عـلى المنضـدة نفسـها الـتي تقابلنـا عليهـا أول مـرة، سـلمت عليهـا وجلسـت، المنضـدة نفسـها والمـكان ذاتـه لكـن المشـاعر لـم تكـن نفسـها.

- خير؟

سألتها بابتسامة صفراء، فأجابت سريعا:

- عرفـت مـن معـتز انـك بتنقـل شـغلك لكفـر الشـيخ وانـك نـاوي تعيـش هنـاك.

- وده يهمك في إيه؟

- يهمني أعرف إن مش أنا السبب في القرار ده.

- أكيد مش انتي السبب.

- أومال إيه السبب؟

- إنـتي قلـتي إن الـلي يهمـك تعرفيـه إنـك مـش انـتي السـبب، وأنـا قلـت لـك إنـك مالكيـش علاقـة، البـاقي بقـى أكيـد مـش مهـم تعرفيه.

- بس مش قادرة أصدقك!

أطلقتُ ضحكة مفتعلة لفتت نظر الجالسين حولنا، وقلت:

- إوعي تكوني فاكرة إني يا عيني مصدوم ومش بنام الليل من التفكير فيكي وقررت أسيب القاهرة كلها علشان مافتكرش ذكرياتنا مع بعض. ثواني كده، هي إيه ذكرياتنا مع بعض أساسا؟ شوية خناقات على قلة تقدير على مقابلات كده بالصدفة من وقت للتاني؟ ده أنا ذكرياتي مع بواب عمارتنا أكتر من ذكرياتي معاكي.

إنتي عملتي في الفترة الأخيرة حاجات تشيل كل حاجة ليكي جوايا، والأسوأ مش إنك عملتي كده، لكن إنك عملتيه وانتي قاصدة تعمليه علشان أكرهك وأكره العيشة معاكي، مبروك يا ستي، اللي انتي خططتي له حصل، ومافاضلش ليكي حاجة خالص جوايا.

صدقيني يا سارة، أنا لو ندمت على حاجة تخص علاقتنا هاكون ندمان إننا اتجوزنا، مش إننا اتطلقنا.

- ياه. للدرجة دي بقيت بتكرهني؟

- لا خالص. أنا مش باكرهك. عارفة ليه؟ لأن حتى اللي بيكره حد بيبقى حاسس بوجوده، لكن أنا بقيت مش شايفك أصلا.

قلتها ووضعت مئتي جنيه تحت كوب الماء وأشرت للنادل، ليأخذ الحساب، ثم اختلست نظرة إليها فوجدتها تمسح دمعة هربت من عينها، كانت المرة الأولى التي أرى فيها دموعها. شعرت بانتصار لا أعرف مبعثه، لكنه كان شعورا لذيذا.

-٢٦-

أصبح الجلوس بجوار جابر طقسًا يوميًا يحرص عليه يوسف، لساعات طويلة يحدثه عن ذكرياته وحكاياته وحياته، رغم أن الخفير لم يكن يبدي اهتماما يذكر بهذه الحكايات، وأحيانا يقوم في منتصف حكاية ما ليدخل الحمام أو يحضر كوبا من الشاي ويعود، ويوسف يواصل الحكي دون أن يشعر بقيامه ولا بعودته، لأنه غالبا لم يكن يحكي له أصلا، بل يندب حاله ويشكو حظه للسماء والزرع والهواء والمقعد.

زاره الأستاذ فهمي وأخبره بأن جلوسه بجوار الخفير ليس مناسبا لوضعه الجديد، وأن هذا جعل أهل البلد يتندرون عليه وجعل العاملين في السراي لا يظهرون له الاحترام الكافي، لم يكن مهتما بكل ذلك لأن بديل الجلوس بجوار جابر هو البقاء في غرفته منتظرا النوم أو الموت، عاتبه فهمي لأنه لا يساعده ليبني له صورة تناسب الثروة التي أصبحت بين يديه، فقال له يوسف:

- يعني أنا لو بطلت أقعد جنب جابر الناس هتنسى إني خدّام مراد بيه؟

- أيوه يا عم يوسف هينسوا، والله هينسوا، الفلوس ممكن تنسيهم أهاليهم ذات نفسهم، واللي مش هينسى منهم هيعمل نفسه ناسي علشان شغال في أرضك وبياكل من خيرك أو طمعان في شوية منه، واللي هيبقى فاكر بعد كل ده مش هيفرق معاك في حاجة ولا هيغير حاجة في كونك تقدر تشتريه هو وأهله.

- بس انا مش عاوز ده كله وعاوز مراد بيه.

- مـراد بيـه مـات خـلاص، الـلي بتعملـه في نفسـك ده مـش هيرجّعـه، وكمـان هينغـص عليـك عيشـتك مـن غـير داعـي، جـرب تعيـش يـا عـم يوسـف في الحـاضر وتفكـر في المسـتقبل، وسـيبك مـن المـاضي ده بقـى والـلي كان فيـه.

- هـو انـت فاكـر يـا أسـتاذ إن انـا مـش نفسـي في كـده أكـتر منـك؟ بـس مهمـا حكيـت لـك مـش هتفهمـني، قـل لي صحيـح انـت عنـدك كام سـنة؟

- ٤٣ سنة.

- طيـب لـو حـد جـه قـال لـك دلوقـتي تعـالى هشـغلك خـدام عنـدي وهديـك ألـف جنيـه في الشـهر. هـترضى؟

- لأ طبعا. ولا بفلوس الدنيا كلها.

- علشـان مـن وانـت صغـير ماعرفتـش غير إنـك تكون حـر، فصعب بعـد كل السـنين دي تتعلـم تكـون عبـد، أنـا برضـه زيـك بالضبـط، اتولـدت لقيـت أبويـا خـدام وانـا زيـه، أول كلمتـين اتعلمتهـم، ماكانـوش بابـا وماما زي ولاد الـذوات، كانـوا نعـم وحـاضر، عشـت أكـتر مـن ٥٠ سـنة بخـدم في راجـل واحـد، وفي يـوم وليلـة الراجـل ده مابقـاش موجـود وأنـا قالـولي خـلاص يـا يوسـف مـش هتبقـى خـدام تـاني وهتبقـى بيـه، فالنتيجـة إني بقيـت زيـك بالضبـط، إنـت بتقـول إنـك ماينفعـش تبقـى خـدام ولـو بفلـوس الدنيـا كلهـا، وأنـا باقـول أنـا مانفعـش بيـه ولـو بقـى معايـا فلـوس الدنيـا كلهـا.

شـعر فهمـي بهزيمـة منطقـه أمـام منطـق يوسـف الأكـثر بسـاطة ومبـاشرة، لكنـه لـم يُظهـر هـذا الفشـل وكـرر نفـس الـكلام الـذي

يطالبه بتجاوز هذه الفترة والأيام كفيلة بجعل المستحيل ممكنًا، وانصرف بعدما طلب منه مجددًا عدم الجلوس بجانب الخفير والاستعاضة عن ذلك بالخروج إلى الدنيا ومخالطة الناس وتفقد أرضه، لكنه لم يحصل منه على أي وعد ولو بالمحاولة.

صعد قاصدا غرفته، ولكن هانم نادته وهو في منتصف السلم ليتناول الطعام، دخل المطبخ فجلس وأكل مع بقية العاملين في السراي، وفي أثناء احتسائه الشاي فاجأهم جميعا بسؤال:

- إلا قولوا لي صحيح. إنتو بتحبوني ولا لأ؟

فاجأهم السؤال فنظروا إلى بعضهم البعض يحاولون استيعاب مغزى السؤال ويبحثون في أعين زملائهم عن إجابة ممكنة، وبعدما طال صمتهم أعاد السؤال مرة أخرى:

- هو انتو مش سامعين ولا إيه؟ باقول لكم بتحبوني ولا لأ؟

فرد إبراهيم متوجسًا:

- إيه السؤال ده يا عم يوسف؟

شجع رد إبراهيم الباقين على التحدث، فأضافت سعدية:

- وإيه اللي هيخلينا نكرهك يعني؟

وقالت هانم:

- هو انت عملت فينا حاجة وحشة لا سمح الله؟

فتأفف يوسف من الردود وارتفع صوته قائلا:

- هو انتو كلكم هتردوا على السؤال بسؤال؟ طيب هاسألكم سؤال تاني ما دام مش عاوزين تردوا على السؤال ده: كنتم بتحبوني أكتر وأنا باشتغل معاكم ولا لما بقيت صاحب السرايا؟

أعادوا النظر لبعضهم وقص إبراهيم شريط الإجابة كالعادة:

- إحنا ماشوفناش منك حاجة وحشة، لا وانت فقير زينا وشغال معانا ولا لما بقيت صاحب السرايا، والدليل إنك قاعد أهو وسطنا وبتاكل معانا.

تجول ببصره في وجوه باقي الجالسين فلم يجد لدى أيهم رغبة في الكلام، فقام من المكان قبل أن يفرغ من كوب الشاي، وصعد وهو متأكد مما كان متأكدا منه قبل أن يطرح سؤاله، حتى أولئك الذين حوّلهم من مجرد خدم في السراي إلى ما يشبه أصحابها، يأكلون أطيب طعامها ويجلسون على أثاثها دون حساب، ولا يتحكم فيهم أحد أو يهينهم ويسيء إليهم كما كان يحدث في السابق، لم يشعروا تجاهه بمشاعر حب، وتهربوا من التصريح بها ولم يقولوها ولو كذبا من باب المجاملة، فما بالك بالغرباء؟

أثبت لنفسه أن رأيه هو الصحيح لا رأي فهمي، لن يحبه أحد في هذا العالم، ربما كثيرون لا يكرهونه لكنهم أيضا لا يحبونه، هو يقول إن حب الناس لا يهم أصلا ما دام معك المال، لكن هذه العبارة تصلح لرجل يمتلك أسرة وأصدقاء، أو تصلح له نفسه حين كان بجانب مراد بك الذي كان يحبه فعلا، أما أن تعيش في عالم لا تحب فيه أحدا ولا يحبك فيه أحد، فهذا لا يبعث على السعادة حتى لو كان تحتك خزائن قارون.

بقدر ما أحب مراد وما زال، هو غاضب منه لأنه لم يمنحه فرصة ليخرج من قمقمه ويرى العالم ربما أحب أحدا أو أحبه أحد، ولولا ثقته في أنه كان يحاول إسعاده فعلا حين كتب له نصف ثروته لظن أنه فعل ذلك ليضمن أنه سيعيش ما تبقى

مـن عمـره معذبـا بأمـوال لا يسـتطيع أن يسـتمتع بهـا، ولا أن يعـود كمـا كان قبلهـا، ليسـلي هـو وحدتـه في العالـم الآخـر برؤيـة العروسـة الخشـب الـتي صنعهـا وهـي تتحـرك وفـق إرادتـه.

-٢٧-

جلس يوسف بجوار جابر كالعادة يحدثه في أي شيء وكل شيء بينما الأخير كالعادة أيضا يكتفي بسماع دون تركيز ودون رد أو مشاركة في الحوار، طلب يوسف من خفيره إعداد كوب من الشاي يتناولانه لتسلية وقتهما، لكنه قال إنه شرب كوبين قبل وقت قصير ولا يرغب في المزيد الآن. قام بنفسه فجمع بعض الأخشاب والأحطاب الجافة، وضعها في إناء فخاري قديم يستخدمه جابر، أشعل النار في الأخشاب والأحطاب حتى ارتفعت ألسنة اللهب.

جاء فهمي ووجده على هذه الحال، يجلس القرفصاء أمام النار المشتعلة في انتظار أن تخمد ليضع البراد على كريات اللهب، بينما الخفير يجلس على المقعد يضع قدما على الأخرى، بحيث إنك لو لا تعرفهما تظن أن جابر هو السيد، ويوسف خادمه، طالع المشهد بغيظ مضاعف ودخل السراي دون أن يتحدث فلحق به يوسف، وقبل أن يتكلم المحامي قال هو:

- كنت مصدّع قوي فقلت أعمل كوباية شاي.

- وماقلتش لحد من الشغالين ليه يعملها لك بس يا عم يوسف؟ وبعدين مش احنا لسه متكلمين في موضوع قعادك جنب الغفير ده وقلنا بلاش منه.

نظر يوسف في الأرض بانكسار دون أن يرد، فواصل المحامي:

- يـلا مالـوش لازمـة الـكلام دلوقـتي. أنـا عـاوزك تيجـي معايـا علشـان الفلاحـين الـلي شـغالين في العزبـة كلهـم عاوزيـن يسـلموا عليـك.

اسـتمر يوسـف عـلى صمتـه، إذ إنـه رغـم عـدم ارتياحـه لهـذه الخطـوة لا يسـتطيع رفـض طلـب فهمـي مجـددا، فأضـاف الأخـير:

- إنـت مـش زهقـان ونفسـك تشـم هـوا؟ أكيـد القعـدة هنـاك أحسـن مـن القعـدة جنـب الغفـير.

قال يوسف:

- ماشي يا أستاذ فهمي. هاجي عشان خاطرك انت بس.

ثم هم بالتحرك ناحية باب السراي، قبل أن يوقفه فهمي:

- استنى يا عم يوسف. إنت هتروح للفلاحين بالجلابية دي؟

نظر إليها ثم قال:

- إيه مالها؟

- يـا عـم يوسـف أنـا بقـالي أسـبوع ماشـفتش عليـك جلابيـة غيرهـا، أومـال كل الجلابيـات الـلي عملناهـا لـك دي لازمتهـا إيـه؟ المفـروض ماتلبسـش جلابيـة واحـدة يومـين. اطلـع البـس جلابيـة جديـدة وحـط فوقهـا عبايـة حلـوة وأنـا مسـتنيك هنـا.

وافـق مُكرهـا وصعـد إلى الغرفـة، وبعـد دقائـق نـزل يرتـدي ثيابـا فخمـة لـو رآه بهـا أحـد أول مـرة لاعتقـد أنـه ثـري منعّـم لـم يـر الفقـر يومـا، أبـدى فهمـي إعجابـه بهيئتـه، وأكـد أنهـا الهيئـة الـتي يريـد أن يـراه عليهـا دومـا، ووعـده بأنـه لـو فعـل ذلـك لأسـابيع قليلـة سـينسى النـاس ماضيـه وسـيتعاملون معـه فقـط عـلى أنـه «يوسـف بيـه»، أراد أن يخـبر محاميـه بـأن هـذا ليـس هدفـا يسـعى

إليـه أصـلا، لكنـه تراجـع لعـدم رغبتـه في خـوض نقـاش جديـد.

وصـلا إلى العزبـة في غضـون دقائـق، وقـف يتأملهـا واكتشـف أنـه يزورهـا للمـرة الأولى رغـم وقوعهـا عـلى مقربـة مـن الـسراي، مسـاحة هائلـة مـن اللـون الأخـضر لا تـرى الأعـين آخرهـا، تزيدهـا سـنابل القمـح الخـضراء رونقـا وبهجـة، وتحلـق فوقهـا الطيـور بـدأب كأنهـا دوريـات حراسـة، بمجـرد أن رآه الفلاحـون واقفـا مـع المحامي جـاءوا أفواجـا وألقـوا السـلام، وعندمـا وصلـوا جميعـا علقـوا أبصارهـم بـه في ترقـب وفضـول بينمـا صرف بـصره هـو متأمـلا في السـماء.

أنهى فهمي فترة الصمت بالقول:

- يوسـف بيـه طلـب مـني أصرف لـكل واحـد منكـم ١٠ جنيـه مكافـأة علشـان تعبكـم الفـترة الـلي فاتـت، وطـول مـا انتم شـايفين شـغلكم هيراعيكـم ومـش هيخليكـم محتاجـين أي حاجـة. يـلا بقـى، سـلموا عليـه واشـكروه.

تعالـت صيحـات المزارعـين بالشـكر والتهليـل والدعـاء بطـول العمـر، وقفـوا في طابـور ليسـلموا عليـه ويشـكروه، سـلّم عليـه الأول وقبّـل يـده رغـم رفـض يوسـف وسـحْبها سريعـا، وجـاء الثـاني فالثالـث فالرابـع سـلّموا وقبّلـوا يـده، فشـلت محاولاتـه في إثنائهـم عـن ذلـك فكـف عـن المحـاولات، وتـرك لمـن تلوهـم يـده ليفعلـوا بهـا مـا شـاءوا. كان فهمـي يتابـع المشـهد منتشـيًا بعدمـا أثبـت لـه وجهـة نظـره، فهاهـم نسـوا أصلـه وتاريخـه وخلفياتـه وكل شيء وانكبـوا عـلى يـده يقبلونهـا رُغمـا عنـه مـع أول عـشرة جنيهـات، فكيـف سـتكون الحـال إذا أغـدق عليهـم أمـوالاً أكـثر؟

نعـم. بوسـع هـذه الأوراق السـحرية الملونـة أن تفعـل أي شيء، أن تصبـح ممحـاة تمسـح بهـا صفحـات كاملـة في كتـاب تاريخـك،

وقلمًا تكتب به ما شئت فيه، أنك سليل عائلة تركية عريقة، تاجر قادم من الشام، رحالة اكتشفت جزرا وقارات، مناضل قديم ضد الاستعمار، اكتب ما شئت وسيصدقك الجميع ما دمت تمتلك المال، ومن لا يصدقك لن يجرؤ على تكذيبك، قد يستغرق الأمر بعض الوقت، قد تجد في البداية بعض جيوب المقاومة والرفض، لكنه سيحدث لا محالة، فأنت في بلد يعتبر أهله النسيان نعمة، هربا من دفع ضريبة المعرفة.

يعتقد فهمي أن المزارعين لم يفعلوا ذلك لكونهم فقراء وفي حاجة للمال، لكن لأن كل الناس عندهم استعداد فطري للعبودية، زعمهم أن السلطة والثروة والقوة هي من تدفعهم لطاعة من يملكها ليست إلا حججا يبررون بها بحثهم الفطري عن أسياد، ويؤمن بأن الفارق بين يوسف والجميع أن الأول متصالح مع كونه عبدًا بحكم أنه وُلد على ذلك ويمارس العبودية بشكلها التقليدي دون مراوغة، بينما يمارسها الآخرون بأسماء مختلفة، بعضهم يسميها الاحترام، بعضهم يسميها أكل العيش، بعضهم يسميها الصبر على البلاء وبعضهم يسميها طاعة ولي الأمر.

ربما هذا هو الدافع الذي جعله يهمل كثيرًا من أعماله ويقضي أوقات كثيرة بجوار يوسف، فرغم أنه نظريا مجرد واحد من موكليه إلا أنه على أرض الواقع حالة لا تتكرر كل يوم، تصلح لتكون درسا حياتيا بكل تفاصيلها وتحولاتها، بدءا من الثري الذي اتخذ قرار جنونيا بتسليم خادمه نصف ثروته، مرورا بالطريقة التي سيتعامل بها الخادم مع وضعه الجديد، وهل بإمكانه أن يخلع شخصية العبد ويرتدي مع ملابسه الثمينة شخصية البك؟

وأخيرا كيف سيتعامل الناس مع من هو أحقر منهم منزلة ومقاما حين يمتلك المال وتصبح سلطة المنح والمنع في يديه؟ متابعة تطورات الحكاية عن قرب إذن ورؤية أبطالها يتحركون ويتحولون، بل والقيام بدور رئيس في توجيه الأحداث والتأثير في خيارات الأبطال، هدف يستحق التضحية ببعض الوقت.

أصر الفلاحون على بقاء يوسف معهم حتى يشرب الشاي، أحضروا له مقعدا خشبا عريضا جلس عليه وبجواره المحامي، وافترشوا حوله الأرض في نصف دائرة، وأخذوا يحدثونه عن سوء نوعية التقاوي هذا العام وتسبب ذلك في مضاعفة العبء الواقع عليهم بسبب حاجة القمح لرعاية أكبر وعمل يومي، وإلا لن يكون المحصول مجديا، كذلك كلموه عن اتساع نطاق الأرض وعجز مقاول الأنفار عن توفير العمالة الكافية لمراعاتها في ظل تحويل كثير من المزارعين نشاطهم إلى الصيد في بحيرة البرلس لأنه يجلب أموالا أكثر بجهد أقل.

كان يستمع إلى كلامهم دون تعقيب، فمعلوماته عن الزراعة ضعيفة للحد الذي يجعله لا يفهم كثيرا مما يقولوه، وارتاح عندما تحول مسار الحديث وأخذوا يسردون ذكرياتهم مع مراد بك الذي أكدوا أنه ورغم شدته الظاهرة لم يظلم أحدا منهم قط، وكان يحرص على التأكد بين حين وآخر أن المقاول يمنحهم أجرتهم قبل أن يجف عرقهم، كان فخره وهو يسمع كلامهم عن أخلاق سيده وكرمه وعطفه على المحتاج والإحسان للعاملين لديه، يفوق بأضعاف فخره بتقبيلهم يده وشكره على هديته التي فاجأه بها فهمي كما فاجأهم بها، هذا إن كان ما شعر به حينها فخرا من الأساس.

انتهى من تناول الشاي وطلب من محاميه الانصراف، حاول الفلاحون إثناءه وإقناعه بالجلوس معهم وقتا أطول، لكنه اعتذر متعللا بشعوره بالإرهاق ورغبته في النوم، تمنوا له السلامة وطلبوا منه تكرار الزيارة دوريا ليستأنسوا به ويطلعوه على سير العمل، فوعدهم. في طريق العودة سأله فهمي عن رأيه في تجربة الخروج من القمقم الذي يحبس نفسه فيه، وإذا كانت مجالسة خفير جلف متغطرس أفضل أم مجالسة من يعملون في أرضه ويحفظون جميله؟

آه. طبعا. أومال ايه. أنا اتبسطت النهارده صحيح وشميت هوا جديد.

قالها من باب إرضاء محاميه فقط ومكافأته على دأبه في التخفيف عنه والتفكير في ما يسعده، لكن ما استقر في قلبه مختلف عما نطق به لسانه، فالصلف والشدة أفضل عنده من اهتمام مصطنع ومحبة مدفوعة الأجر.

انصرف فهمي ووعده بالحضور مجددا في الغد أو بعد الغد ليأخذه في جولة مماثلة يريه فيها بقية ممتلكاته في القرية، تبعه حتى باب السراي، وفكّر في الجلوس بجانب جابر لبعض الوقت، لكنه عاد وتراجع حتى يتجنب كلام الشغالين والمارة، ثم عاود التفكير مرة أخرى من منطلق أن «ماحدش له عندي حاجة»، فرفض مجددا وقال لنفسه «ما هو برضه مش لازم يبقى على طول».

أنقذه عبد المعبود السفرجي من حيرته عندما أخبره بأن الغداء جاهز وفي انتظاره، ذهب إلى المطبخ كالعادة وتناول طعامه على الأرض وسط الخدم، وقبل أن يقوم قالت له هانم:

هـو انـت ليـه مابقتـش تحـب تقعـد معانـا زي الأول يـا عـم يوسـف، ولا احنـا خـلاص ماعدنـاش قـد المقـام؟

رمقها مستنكرا وقال:

بتقـولي الـكلام ده يـا هانـم وانـا قاعـد عـلى الأرض وبـاكل معاكـم في المطبـخ؟

حاول إبراهيم تجنب غضب يوسف قائلا:

هانـم ماتقصـدش. هـي بـس نفسـها إنـك تقعـد معانـا ونتآنـس بيـك زي زمـان.

دخل عبد المعبود في الحوار:

شـهادة لله يـا عـم يوسـف. أنـا اشـتغلت في بيـوت كتـير وقليـل، إنمـا عمـري مـا لقيـت صاحـب بيـت متواضـع زيـك.

فعادت هانم من جديد وأضافت:

أنـا خايفـة بـس تكـون فيـه حاجـة زعلتـك مننـا وخلتـك تقتـصر مـن ناحيتنـا، ولا احنـا يعـني مانشـبهش جابـر الـلي بتقـضي اليـوم كلـه جنبـه.

أكلها جابـر بعينيـه، ونظـر إليها يوسـف بغيـظ صامـت، فانفجـرت كوثـر في صاحبتهـا:

إنـتي مالـك يـا بـت يـا هانـم عمالـة تحـدفي في دبـش كـده. هـو احنـا بنراضـوه ولا بنزعلـوه مننـا أكـتر.

ثم وجهت حديثها ليوسف:

إحنـا مـش بنغصبـك عـلى حاجـة يـا عـم يوسـف لا سـمح الله، كل واحـد ينـام عـلى الجنـب الـلي يريّحـه، إنـت كـتر خـيرك بتعاملنـا

أحسـن معاملـة، وسـواء طلعنـا ولا نزلنـا فاحنـا برضـه خدامينـك.

سـادت فـترة صمـت طويلـة توقـف فيهـا الجميـع عـن الطعـام ونظـروا في الأرض أو لبعضهـم البعـض، وقـام يوسـف باتجـاه غرفتـه مسـترجعا أحـداث اليـوم الـتي لـم تحمـل لـه أي حدثـا سـعيدا، لا يشـعر بأنـه يفسـد عـلى نفسـه الحيـاة، عـلى العكـس، فهـو يتمـنى لو يعيـش سـعيدًا، كل مـا في الأمـر أن تصـوره عـن السـعادة مختلـف، صحيـح هـو لا يعرفـه حـتى الآن، لكـن الأكيـد أن مـا يسـعده ليـس في الأشـياء الموجـودة حولـه.

-٢٨-

مـن جديـد زاره سـيده في المنـام، رآى نفسـه يسـير في منطقـة صحراويـة جـرداء ليـس فيهـا بـشر غـيره، وفجـأة رآى عجـوزا تمـلأ التجاعيـد وجهـه، يركـب فرسًـا هزيـلا تـبرز عظامـه تحـت طبقـة جلـد رقيقـة، دقـق النظـر فيـه فـإذا بـه مـراد بـك، نهـره بشـدة وقـال لـه بصـوت متحـشرج:

- سـايبني كل ده يـا قليـل الأصـل مـن غـير ما تبـص عليا ولا تشـوفني إن كنـت عـاوز حاجـة ولا لأ. إخـص عليـك وعلى الـلي جابك.

اسـتيقظ مـن نومـه مفزوعـا وتذكـر أنـه لـم يـزر قـبر مـراد منـذ وضعـه فيـه، قـام مسرعـا ارتـدى جلبابـه وهـم بالانـصراف قاصـدا القـبر بعدمـا التقـط مفتـاح الحـوش المعلـق في دولابـه، كانـت الشـمس ترسـل شـعاعها الأول، قطـع الطريـق مهـرولا حـتى وصـل أطـراف القريـة ولاحـت المقابـر في الأفـق، دخلهـا وتجـاوز مقـبرة تلـو الأخـرى محـاولا الوصـول إلى مرقـد سـيده، دخـل شـوارع وخـرج منهـا ثـم وجـد نفسـه فيهـا مـرة أخـرى كأنـه يلـف في دائـرة مفرغـة، يـرى الألـواح الرخاميـة الـتي تحمـل أسـماء سـكان المقابـر لكنهـا لمـن يجهـل القـراءة والكتابـة لا تتجـاوز كونهـا لوحـات تجريديـة، يعـرف أن لهـا معـنى مـا، لكنـه لا يعرفـه.

بعـد معانـاة طويلـة وصـل إلى مقصـده، وبعدمـا وصـل اسـتغرب تأخـره في الوصـول رغـم أنـه الحـوش الأكـبر والأفخـم والأعـلى في المقابـر، أحـس في قلبـه رهبـة انتقلـت إلى أطرافـه، فـلا اضطـراب

رجله يجعله يقف في ثبات، ولا ارتعاش يديه يمكنّه من وضع المفتاح في القفل، أنزل المفتاح بعدما فشل في تثبيت يده، أعطى ظهره للباب، أغمض عينيه وأطلق تنهيدة ساخنة استعاد بها ثباته، استدار إلى القفل مجددا ففتحه، ودفع الباب الحديد فأصدر صوتا زاد انقباض قلبه، حتى إنه قرر ألا يغلقه حتى لا يعاود إصدار الصوت نفسه مجددا.

وقف على بعد خطوة واحدة من القبر، آذته فكرة أن يكون سيده ممددا تحت قدمه، فخلع نعليه تأدبا وجلس مربعا يديه وقدميه، ثم انفجر في بكاء لا يعرف دافعه، هل هو حزن على فراق الرجل الذي كانت حياته كلها تدور حوله؟ هل إحساس بالتقصير في حقه والانشغال عنه باللاشيء؟ هل غضب منه لأنه لم يجعله صالحًا للحياة من بعده؟ أم أنها دموع العاجز عن فعل أي شيء إلا البكاء؟

كانت الرائحة القادمة من القبر لا تُحتَمل، تذكّر حين كان الرجل الذي تفوح منه هذه الرائحة النتنة لا يتحمل شم رائحة عرق طفيفة من أحد خدمه فيلهب ظهره بالعصا حتى يستحم، حين كان يخرج من غرفته ورائحة العطر تصدر منه لتملأ جنبات السراي وتصل لأنوف السائرين بجوار أسوارها، أراد الآن لو أحضر فهمي وأجبره على شم رائحة القبر وسأله بعدها، ماذا يريد منه؟ أن يلبس كمراد ويمشي كمراد ويعامل الناس كمراد؟ وإلى أين صار مراد؟ هل منحته أمواله وسطوته وشخصيته عُمرا إضافيًا؟ هل منعت انتفاخ جثته بعد الموت وحفظت جثمانه من التحلل؟

كأنه حقق انتصارا على محاميه المفوّه، نعم قد تجعل

الأمـوال والسـلطة والنفـوذ رقـاب النـاس تخضـع إليـك، لكـن مـن قـال إن ذلـك يجلـب السـعادة؟ بالنسـبة لـه السـعادة في تعريفهـا المختـصر هـو مـا يشـعر بـه الآن، أن تجلـس في حـضرة مـن تحبهـم ويحبونـك ولـو كانـوا حفنـة مـن تـراب.

توقـف عـن البـكاء وأخـذ يتطلـع في المـكان الـذي لـم يعـد في عينيـه موحشـا كمـا كان حـين دخلـه، هبـت بعـض الريـاح فأثـارت ترابـا كثيفـا، قـام ليبحـث عـن ميـاه يرشـها عـلى أرض الحـوش ليسـتقر عليهـا الـتراب، التقـط وعـاء بلاسـتيكيا كان في أحـد الأركان وسـار حـافي القدمـين حـتى وجـد طلمبـة في مدخـل المقابـر، مـلأ منهـا الوعـاء ثـم عـاد وأفرغـه، لكـن كميـة المـاء لـم تغـطِّ ربـع أرضيـة الحـوش، كـرر مـا فعلـه أكـثر مـن مـرة حـتى هـدأت الأتربـة تمامـا وروى قصريـات الـزرع الـذي كان عـلى وشـك المـوت، زاد المـكان جمـالا، وشـعر بسـعادة لـم تـزره منـذ وفـاة سـيده، لأنـه شـعر بأنـه أسـعده في قـبره حـين زيّنـه وأعـاد ترتيبـه وجعلـه يليـق بمـن يسـكنه.

- أنـا مـش كويـس مـن بعـدك يـا سـيدي، لا كنـت عـاوز ورث ولا أراضي ولا سرايـات، كنـت عـاوزك بـس تفضـل معايـا بـس سـاندني وحاميـني.

قالهـا وهـو يـرى طيـف مـراد ماثـلا أمامـه ويسـمعه باهتمـام، حـكى لـه عـن كل مـا حـدث منـذ غـادر الدنيـا، عـن غرفـة نومـه الـتي يبـكي كلمـا مـر أمامهـا، عـن زياراتـه المتكـررة لـه في المنـام، عـن تعامـل زملائـه السـابقين معـه، وعـن يونـس وفـرج اللذيـن تـركا العمـل لعـدم قدرتهمـا عـلى التعامـل معـه كصاحـب قـصر، وعـن دور فهمـي الكبـير معـه ومحاولاتـه الدائمـة لإخراجـه مـن عزلتـه، وأيضـا عـن الخـلاف بينهمـا عـلى تعريـف السـعادة، عـن الفـراش الـذي لفـظ

جنبه والغرفة التي لا يبرحها والخفير الجديد الذي يلازمه، وعن إحساسه بأنه عاطل وهو لا يفعل أي شيء سوى أنه يأكل وينام، عن كل شيء شغله وكل شيء أحزنه وكل شيء خذله.

وجد أبو عبده التُربي باب الحوش مفتوحا فاقترب ليعرف من بالداخل، وجد رجلا يجلس على الأرض ويحدث نفسه كالمجذوب، دخل ووقف بجواره لدقائق يحاول أن يجمع جملة مفيدة من بين كلام الغريب المتداخل وعباراته المبتورة، قبل أن ينتبه يوسف لوجوده أخيرًا، فعاجله التُربي متسائلا في حدة:

- إنت مين يا راجل انت ودخلت هنا ازاي؟

هم يوسف بالوقوف، وقال في ارتباك:

- أنا يوسف خدام المرحوم، ودخلت بالمفتاح اللي معايا علشان أزوره وأقرا له الفاتحة.

سيطرت الدهشة على الرجل واتسعت عيناه قائلا:

- إنت اللي مراد بيه كتب لك نص فلوسه؟ أهلا أهلا سعادة البيه، التُرب نوّرت.

لم تكن طريقة أبو عبده واحتفاؤه المبالغ فيه يتناسبان مع المكان الذي يقف فيه، والأهم أنه بدخوله المفاجئ قطع خلوته وأفسد عليه لحظة انسجام كان قد وصل إليها بعد عناء، فحاول إنهاء ذلك في أسرع وقت والعودة إلى ما كان عليه:

- شكرا يا حاج. أنا هاقعد شوية بس وهامشي.

- أبو عبده. اسمي أبو عبده، وأنا اللي باراعي حوش البيه.

- أومال كنت سايبه ليه التراب ماليه والزرع هيموت من قلة الميه؟

- لا أبدا هو عشان بس الجو حر والميه بتنشف بسرعة.

- إزاي؟ ده اللي يشوف الحوش يقول ماشافش ميه من ساعة المرحوم ما اندفن.

- لا والله يا بيه أنا إيدي فيه على طول. بس ليك عليا إن شاء الله كل يوم أبص عليه وأخليه على سنجة عشرة حاضر. إنت تؤمر.

- لا لا مالكش دعوة بنضافة الحوش خالص. أنا هاجي بعد كده على طول أرشه ميه وأنضفه.

أصيب التُربي بصدمة من كلام يوسف، اعتقد أنه رفض الفكرة حتى لا يدفع له أجرة إضافية، واستغرب كيف لخادم ورث كل هذا المال أن يستكثر إنفاق جنيهات قليلة على تجميل القبر ويفضل أن يقوم بذلك لتوفيرها، فقال له:

- يا بيه أنا مش بقول كده عشان الفلوس والله. أنا أنضفه من غير أي حاجة، ده البيه كان خيره على الكل برضه.

- لا انت مش فاهمني، أنا مش باتكلم على الفلوس خالص، أنا هاديك فلوس كتير وماتعملش أي حاجة، بس ماتجيبش سيرة لحد على اللي باجي أعمله هنا.

ثم أخرج من جيبه ورقة بعشرة جنيهات أعطاها لأبو عبده، الذي حاول أن يستوعب ما قاله يوسف وما يفعله، وعندما لم يفهم شيئا تذكر أن هذا الرجل كان يكلم نفسه قبل دقائق، ووصل لحل مُرضٍ بأن يتعامل معه كمخبول يملك أموالا، استأذن في الانصراف وكلما مشى خطوة التفت إلى الخادم الثري الذي عاد إلى جلسته الأولى في مواجهة القبر.

نعـم عـاد إلى الجلسـة، لكنـه لـم يسـتطع العـودة مجـددا إلى الحالـة الـتي كان عليهـا قبـل دخـول أبـو عبـده، لـم تحـضر روح مـراد مجـددا ولـم يـره جالسـا عـلى مقعـده المفضـل أمامـه، زاد غضبـه مـن ذلـك المتطفـل المنافـق، كذلـك بـدأ يشـعر بالشـمس فـوق رأسـه مبـاشرة فقـرر العـودة إلى المـنزل، ودّع البـك عـلى وعـد بلقـاء قريـب، وأغلـق بـاب الحـوش بالقفـل كمـا كان.

في مدخـل الـسراي قابلتـه سـعدية، خبطـت بكفهـا عـلى صدرهـا، وقالـت:

- إيـه الـلي عمـل في هدومـك كـده؟ إنـت وقعـت ولا إيـه؟ وكنـت فـين مـن الصبـح قلقتنـا عليـك؟

أمسك لسانه قبل أن يخبرها بأنه كان في المقابر، فقال:

- وانـتي هتفتحـي لي تحقيـق ولا إيـه؟ مـا الـلي اتوسـخ يتوسـخ ومطـرح مـا كنـت كنـت.

- طيـب طيـب أنـا خفـت عليـك بـس يكـون حصـل لـك حاجـة، اطلـع غـيّر هدومـك وهـات لي الجلابيـة دي أغسـلها قبـل مـا البقـع تمسـك فيهـا.

هـز رأسـه موافقـا وتحرك نحـو غرفتـه، وفي الطريق نظر إلى ملابسـه مـن الخلـف فـإذا بلونهـا الأصـلي اختفـى خلـف طبقـة سـميكة مـن الـتراب والطـين، أغلـق البـاب خلفـه وشـعر كالعـادة بضيـق شـديد في التنفـس، فتـح النافـذة لتجديـد الهـواء لكـن شـيئا لـم يتغـير، بـدت أجواؤهـا كئيبـة وجوهـا خانقـا وأثاثهـا الفاخـر محاولـة فاشـلة لتجميـل القبيـح، فكـر في تغيـير الغرفـة لكنـه تذكـر أن كل غـرف الـسراي تتشـابه شـكلا ومضمونـا، والانتقـال بينهـا ليـس إلا حيلـة

عاجـز لمـد فـترة تحملـه أياما أخـرى.

خلـع جلبابـه المتسـخ ولبـس آخـر، دخـل الحمـام فوضـع رأسـه تحـت الميـاه، وتذكـر السـعادة الـتي كان عليهـا عندمـا كان في حـوش البيـه والكآبـة الـتي حلـت عليـه منـذ عـاد إلى الـسراي، لا يبـدو هـذا منطقيـا لأي عاقـل لكنـه مـا حـدث، فهـواء المقابـر المحمـل برائحـة الأمـوات كان ينعـش صـدره أكـثر مـن هـذا الهـواء المحبـوس بـين حوائـط أربعـة، والبقـاء بجانـب ميـت يعـرف أن روحـه تحبـه، خـير مـن مجـاورة أحيـاء يحقـدون عليـه أو في أحسـن الأحـوال لا يشـعرون بـه.

نـزل فجلـس مجـددا بجـوار جابـر ملتزمـا الصمـت هـذه المـرة، كان يحتـاج فقـط للخـروج مـن الـسراي والهـروب مـن كآبتهـا ووحدتـه فيهـا، لا يرغـب في الحـكي رغـم أنـه مـا زال لديـه المزيـد ليقولـه، لكـن تأجيـل الفضفضـة لحـين مقابلـة سـيده مـرة أخـرى أولى مـن إخـراج مـا في قلبـه أمـام خفـير لا يهتـم لأمـره، ويتعامـل معـه عـلى أنـه أخـرق مضطـر لتحمـل ثرثرتـه حـتى لا يفقـد راتبـه، الغريـب أن جابـر قابـل تغـيره بتغـير مضـاد، عـرض عليه كوبـا من الشـاي للمـرة الأولى، طلـب منـه أن يسـتكمل بعـض الحكايـات السـابقة، وعندمـا وجـده زاهـدا في الحديـث، أخـذ هـو يحـكي عـن حياتـه وأسرتـه ومشـكلاته، وذكرياتـه في حمايـة المنـازل والمـزارع وشـجاعته في مواجهـة الأخطـار.

كان يوسـف يسـتمع في صمـت دون أن يعقّـب عـلى أي مـن كلام الخفـير، فيمـا يسـهب الأخـير في حكاياتـه دون ملـل أو إحـراج، غريـب هـو طبـع البـشر، باسـتثناءات قليلـة لا يقابلـون الاهتمـام باهتمـام، ويلهثـون خلـف مـن يتجاهلهـم، يفهمـون التباسـط ضعفا والسـماجة قـوة شـخصية، ويحرمـون أنفسـهم مـن لـذة العلاقـات السـوية.

اكتفى برشفتين من الشاي وقام قاصدا المطبخ ليبحث عن شيء يأكله، إذ لم يعد يفكر في الطعام إلا بعد أن يشعر بقواه قد خارت، ويكتفي منه فقط بما يحول بينه وبين السقوط مغشيا عليه، فالأكل قبل أن يتطلب معدة أكولا، يحتاج ذهنا صافيا يرغب في التمتع بملذات الدنيا، وبالتأكيد ليس هو من تنطبق عليه هذه الشروط.

-٢٩-

كانت أيامي الأولى وأسرتي صعبة في القرية، تشتكي أمي من صعوبة التسوق في ظل عدم وجود محلات بها خدمة التوصيل للمنازل، وعدم رغبتها في الاستعانة بنساء العائلة تجنبا لـ«الجمايل»، وتتذمر آية من كثرة الناموس الذي لا تجدي معه أي مبيدات حشرية، وكذلك ضعف شبكة الهاتف المحمول، أما أنا فأضطر لقيادة سيارتي لمسافة طويلة يوميًا من وإلى مدينة كفر الشيخ، بجانب نقص الإمكانيات والأجهزة بشدة في المستشفى بما لا يمكنني في كثير من الأحيان من أداء عملي، لكنني رغم ذلك حاولت تهوين الأمر على أمي وأختي وأكدت لهما أن الحياة ستكون صعبة في البداية، ولكن مع الوقت ستصبح أيسر وستتعودان عليها.

انتهيت من تجهيز عيادتي بمساعدة هيثم وبقية أبناء عمومتي الذين ساعدوني وكانوا بجواري في كل خطوة، أوكلت إليهم مهمة توزيع أوراق دعائية طبعتها للعيادة لتعريف الناس بموعد افتتاحها، كما استعنت بأحمد ابن عمي حسن الحاصل على دبلوم تجارة ليعمل معي في العيادة يُنظم المواعيد والحجوزات ويحصّل النقود من المرضى. سألت أعمامي وأبناءهم عن قيمة الكشف السائدة في المنطقة، فأكدوا أنها تتراوح بين ٣٠ و٤٠ جنيها، كان الرقم صادما وأخبرتهم بأن قيمة الكشف في القاهرة تتجاوز ٥ أضعاف ذلك، لكنهم قالوا:

- الناس هنا غلابة. والفلوس اللي انت شايفها قليلة دي

ماحدش بيدفعها غير لما يبقى المرض هيموّته، وبعد ما يجرب مِيت طريقة تانية وماتجيبش نتيجة.

في يوم الافتتاح كنت على موعد مع مفاجأة مذهلة، كنت جالسا مع أحمد وهيثم في مدخل العيادة حين دخل مبروك العيادة وألقى السلام، تسمرنا في أماكننا ونحن ننظر إلى بعضنا البعض ونحاول استيعاب ما يحدث، قبل أن يلقي السلام مجددا:

- سلام عليكم يا شباب. إيه مش سامعين ولا إيه؟

- وعليكم السلام ورحمة الله يا حاج مبروك. خير؟

- كل خير يا دكتور. هي مش دي عيادة برضه وافتتاحها النهارده ولا انا فهمت غلط؟

- أيوه طبعا.

- وأنا حبيت أكون أول زبون يدخلها ويكشف عندك، ولا ده يزعلك في حاجة؟

- لا يا حاج بالعكس ده مكانك. اتفضل.

أشرت إلى غرفة الكشف فسبقني إليها، ابتسمت ورفعت حاجبيّ في استغراب لأحمد وهيثم اللذين كانا يبتسمان أيضا، ثم لحقت به وأغلقت الباب خلفنا وجلست على المكتب وهو أمامي، أمسكت قلما وسألته:

- ألف سلامة يا حاج. قل لي بقى بتشتكي من إيه؟

- إنت نسيت ولا إيه يا دكتور؟ مش انا قلت لك في عزا الوالد إن القولون تاعبني؟

- فاكر طبعا. بس قصدي يعني عرفني بتشتكي من إيه بالظبط

والوجع بيكون فين وإمتى بتحس بالتعب؟

- ساعة ما اللقمة بتنزل بطني بتقوم فيها حرب، مغص وانتفاخ وتقلصات، وكشفت كذا مرة عند دكاترة في كفر الشيخ ومرتين عند دكتورين في مصر، وحتى رحت لعطارين ادوني وصفات أعشاب، لكن برضه مافيش فايدة.

- طيب اتفضل مدد على الشيزلونج واكشف لي بطنك.

بعد الكشف والفحص الدقيق عرفت أنه مصاب بالتهاب حاد ومزمن في القولون الصاعد، كتبت له العلاج اللازم وقائمة بأنواع الطعام التي عليه أن يتجنبها مثل البقوليات والدهون والتوابل، ثم طلبت منه أن يزورني مجددا بعد أسبوع لمعرفة إن كان هناك تحسن أم لا، شكرني وتمنى أن يجعل الله الشفاء على يدي، توجه ناحية الباب ثم عاد مرة أخرى، استند بيده على المقعد وقال:

- مرحب بيك في بلدنا يا دكتور. بس عاوز أقول لك على حاجة واحدة بس لو عملتها هتعيش هنا مرتاح البال.

- إيه هي؟

- ركز في شغلك وماتركزش معايا، وعلى فكرة ده عشانك مش عشاني، تركيزك معايا هيضرك انت بس، وأظن انت جربت ده بنفسك.

واصلت النظر في عينه مباشرة، فتابع:

- مش انت والمتعلمين اللي زيك بيقولوا أهل مكة أدرى بشعابها؟ أنا بقى أدرى بالبلد واللي ينفع معاها واللي ماينفعش، اللي يقعد هنا لازم يلتزم بقانوني أنا وأحكامي أنا، وانت قاعد هنا بمزاجي وعلى عيني وراسي لحد ما تخالف القانون والأحكام

دي.

قلت بتحدٍ:

- لا يا حاج. أنا قاعد هنا في بيتي وفي بلد أبويا!

رفع يده من على المقعد وأشاح بها قائلا:

- لأ بمزاجي. اوعى تكون فاكر إني مش عارف انك خليت عمك يشتري البيت باسمه علشان اتفاجئ بيك هنا ومايبقاش قدامي حيلة، اللي باع لكم البيت كان عندي بعد ما عمك كلمه بربع ساعة واستأذني يبيعهوله ولا لأ، وانا قلت له بيع، وانا عارف انه مش شاريه لنفسه ومش محتاج بيوت، وفاهم كويس إنك بعد اللي حصل في المركز حبيت تيجي هنا بقى وتواجه العمدة الشرير وتجيب مناخيره الأرض، العمدة اللي انت قاصد ماتقولّوش ياعمدة وبتقول له يا حاج، بس ده مش فارق معايا ومش هيغير حاجة.

أنا عديت موضوع شهادتك في المحضر بمزاجي عشان كنت غريب ومش عارف نظامنا، لكن بما إنك خلاص بقيت واحد من أهل البلد وبكيفك فاللي بيسري على أهل البلد هيسري عليك. ليك احترامك ٢٤ قيراط وماحدش هيتعرض لك ولا يدوس لك على طرف طول ما انت في حالك، بس لو اتحدتني تاني مش هيبقى فيها ماعلش. أنا مش بهددك لا سمح الله، أنا بس بعرفك اللي فيها علشان ابقى عملت اللي عليا وماتقولش بعد كده إني مانبهتش.

سار ناحية الباب مجددا، وهو يقول:

- يلا أشوفك بعد أسبوع بقى ان شاء الله. سلام عليكم.

لـم أرد السـلام. كنـت أفكـر جيـدا فيمـا قالـه وأحـاول فهـم شـخصيته، هـذا الرجـل يمـارس الـشر بـذكاء وهـذه مشـكلة، يعـرف جيـدا إمكاناتـه ونقـاط قوتـه ويتعامـل عـلى أساسـها، يجيـد اختيـار كلماتـه وترتيبهـا كمـا يجيـد اختيـار الوقـت المناسـب لقـول أو فعـل شيء، يحـدث كل شـخص بالطريقـة الـتي يفهمهـا، يمتلـك كاريزمـا أخـاذة بحيـث يكـون وجـوده في أي مـكان حدثـا مهمـا، يهتـم كثـيرا بالتفاصيـل، جـاءني وحـده عـلى غـير العـادة، إذ لـم أره مـن قبـل إلا محاطـا برجالـه وحواريـيه، اختـار وقتـا يكـون فيـه أول زائـر للعيـادة لأن ذلـك سـيجعل مـن زيارتـه وكلماتـه ذكـرى محفـورة في رأسي، تحـرك ناحيـة البـاب بعـد انتهـاء الكشـف كأن الزيـارة انتهـت، ثـم عـاد ليقـول كلامـا مـا جـاء أصـلا إلا ليقولـه.

كل هـذا يحتـم تأخـير أي مواجهـة مبـاشرة معـه قـدر الإمـكان، حـتى لا تنتهـي بخسـارة لا يعـرف أحـد أبعادهـا، يجـب أولا أن أعـرف نقـاط القـوة الـتي يسـتند إليهـا، وسـبب سـكوت النـاس عـلى الظلـم، فالظلـم موجـود منـذ بـدء الخليقـة لكنـه يزدهـر ويتراجـع بحسـب موقـف النـاس منـه وتعاملهـم معـه. في واقعـة سرحـان مثـلا لـم يسـكت أهـالي القريـة فقـط عـلى تعذيـب أحدهـم وتلفيـق تهـم كاذبـة لـه، لكـن وصـل الأمـر إلى ذهـاب عـدد منهـم إلى المركـز متطوعـين ليشـهدوا ضـده بعكـس مـا رأتـه أعينهـم، سرحـان نفسـه شـهد عـلى نفسـه بمـا لـم يفعـل خوفـا مـن أن ينفـذ العمـدة تهديده ويهجّـر أهلـه مـن القريـة، وأهلـه تركـوه يـضر نفسـه ولـم يبذلـوا أي مجهـود لإنقـاذه إيثـارا للسـلامة.

أيـا كانـت القـوة الـتي يسـتند إليهـا مـبروك فهـي بالتأكيـد أضعـف مـن أن تُخضـع أهـل قريـة كاملـة، شـيوخا وشـبابا رجـالا ونسـاء، إلا

إذا كانوا عندهم الاستعداد لذلك. يحتاج الظالمون مصادر قوة كثيرة تؤمن ظهرهم وهم يمارسون فعل الظلم، ولكن تبقى أهم مصادر قوة أي ظالم سكوت الضحايا.

في الأيام التالية حاولت جمع معلومات من أعمامي وأولادهم عن هذا المبروك، وعرفت أن وجوده في منصب العمدة ليس وليد لحظة صدفة أو ضربة حظ، بل الموضوع أقدم من ذلك بكثير، بدأ في أواسط الخمسينات عندما كان كامل أبو سعدة، والد مبروك، يشتري أي قطعة أرض تظهر أمامه، وبينما كان كبار الملاك يفقدون مساحات شاسعة من أراضيهم بموجب قانون الإصلاح الزراعي كان هو يستثمر الأموال التي ورثها عن أبيه أشهر تاجر مواشي في المحافظة، في توسيع أرضه، وعندما تأسس الاتحاد الاشتراكي في أوائل الستينات كان من أوائل المنضمين له، وتبرع بقطعة أرض فضاء في مكان مميز بمدينة كفر الشيخ ليقيم عليها مقره الرئيس بالمحافظة.

خلال عامين فقط أصبح كامل أهم كوادر الاتحاد الاشتراكي في كفر الشيخ، ينفق ببذخ على نشاطاته ومؤتمراته، وفي المقابل يزداد نفوذه وتقوى علاقاته، حتى وصلت إلى الرئيس جمال عبد الناصر شخصيا، قابله في المؤتمر العام للاتحاد بالقاهرة، سلم عليه والتقط معه صورة طبعها بالحجم الكبير وعلّقها في مدخل بيته، وأصبح يروّج في المحافظة كلها من خلال رجاله أنه مقرب من الرئيس وأنه يستشيره في كل صغيرة وكبيرة، وصدّق كثيرون هذه الرواية وباتوا يتعاملون معه بحذر بالغ ولا يرفضون له أمرًا.

وثّق والد مبروك علاقته بالأجهزة الأمنية، أصبح مدير الأمن

ومأمـور المركـز وحـتى صغـار الضبـاط ضيوفـا دائمـين عـلى بيتـه، زاده ذلـك هيبـة ونفـوذا إضافيـين سـاعداه كثـيرا حـين أراد ترشـيح نفسـه لانتخابـات مجلـس الأمـة عـام ١٩٦٤، دخلـه بسـهولة بالغـة ودون منافسـة تقريبـا، واسـتغل منصبـه الجديـد في جعـل علاقاتـه أكـثر تشـعبا حـتى وصلـت إلى الـوزراء ووكلائهـم وكبـار المسـؤولين، صـار يرشـد الأمـن عـلى الشـيوعيين والمعارضـين الموجوديـن في دائرتـه لاعتقالهـم، وفي المقابـل يغـض الأمـن الطـرف عـن ابـتزازه لصغـار المـلاك وإرهابهـم لضـم أرضهـم إلى أرضـه بثمـن بخـس.

في هـذه الأثنـاء كان مـبروك يشـب في مـنزل لا يخلـو مـن قيـادات المحافظـة وكبارهـا، وبعـد أن تجـاوز العـاشرة بقليـل صـار والـده يـصر عـلى حضـوره كل الجلسـات الـتي تعقـد عنـده في المـنزل، ليتعـرف عـلى الكبـار وفي نفـس الوقـت يـشرب طريقتـه في التعامـل مـع الأمـور، وكمـا رآه وهـو يعقـد الصفقـات ويقيـم التوازنـات رآه وهـو يتجـاوز أزمـة حـل الاتحـاد الاشـتراكي بالحصـول عـلى عضويـة سريعـة في الحـزب العـربي الاشـتراكي الـذي ترأسـه السـادات، وينتقـل مـع الرئيـس بعـد عـام واحـد إلى الحـزب الوطـني الديمقراطـي ويتحـول ببراعـة مـن الدعايـة للاشـتراكية إلى التهليـل للانفتـاح.

كان نتيجـة ذلـك أن أصبـح مـن الأسـماء المعروفـة في الحـزب، حـتى إن الرئيـس السـادات حـين زار مصنـع سـكر بالحامـول سـأل عنـه بالاسـم، قائـلا:

- أومال كامل أبو سعدة فين؟

فجاء صوته من بعيد:

- أهو يا ريس

ثـم اخـترق الصفـوف حـتى وصـل إلى السـادات فصافحـه ودار بينهمـا حديـث باسـم وسـط دهشـة الواقفـين، التقـط المصـورون المشـهد وظهـر في الصحـف في اليـوم التـالي، بينمـا بـذل جهـدا كبـيرا ليصـل إلى مصـدر الصـورة ودفـع مبلغـا كبـيرا للمصـور في مقابلهـا، طبعهـا مُكـبّرة بالألـون الطبيعيـة ووضعهـا في بـرواز أنيـق وثبتهـا بجـوار صورتـه مـع عبـد النـاصر، ومـن وقتهـا لـم يعـد مضطـرا للتقـرب إلى مسـؤولي المحافظـة، فقـد كانـوا هـم مـن يتقربـون إليـه حـتى يتذكرهـم بكلمـة طيبـة أمـام مسـؤولي الحـزب في القاهـرة.

أعـد أولاده مـبروك وصالـح ومصطفـى ليرثـوا نفـوذه إلى جانـب أموالـه مـن بعـده، لـم يكـن مصطفـى يرغـب في ذلـك فقـد كان يكتفـي بالأمـور الماليـة ولا يرغـب في ممارسـة السياسـة بـأي صـورة، وأصبـح فيمـا بعـد أحـد أهـم رجـال الأعمـال في كفـر الشـيخ، وامتلك شركـة مقـاولات ضخمـة كانـت تنفـذ مشروعـات في مختلـف محافظات الجمهوريـة، أمـا صالـح ومـبروك فأكملا مسـيرة والدهمـا الـذي اختار الأول ليخلفـه في مقعـده البرلمـاني مـن بعـده، بعدمـا لمـس فيـه اسـتعدادا لذلـك يفـوق مـبروك، وهـو مـا حـدث فعـلا بعدمـا تـوفي كامـل في منتصـف التسـعينات، زرع ذلـك الغـيرة في نفـس مـبروك لأنـه كان يـرى نفسـه الأحـق بالمقعـد لأنـه الأكـبر سـنا، لكنـه تجـاوز ذلـك وأراد أن يجـد لنفسـه مكانـا يمـارس فيـه نفـوذه ويثبـت أنـه ليـس أقـل مـن شـقيقه، واختـار لنفسـه العموديـة وحصـل عـلى وعـد مـن قيـادات أمـن الدولـة في المحافظـة بأنـه سـيخلف أول عمـدة يـترك منصبـه، ولسـوء حـظ قريتنـا كان عمدتهـا أول الراحلـين.

يعتمـد مـبروك بشـكل رئيـسي عـلى ٤ مصـادر دعـم وحمايـة، نائـب الدائـرة زكريـا إبراهيـم الـذي فضّـل التعامـل معـه عـلى التعامـل

مع شقيقه، ومأمور المركز العقيد سالم الشيمي، ومدير مكتب المحافظ صابر عارف، وعبد الكريم طه رئيس الوحدة المحلية لمركز ومدينة كفر الشيخ. هؤلاء يوفرون له غطاء كاملا ليفعل ما يشاء، وفي الوقت نفسه يقتلون أي شكوى ضده في مهدها، أما الثمن فهو نسبة معتبرة من أي مكسب يتسببون فيه، سواء كان أموالا أو عقارات أو قطع أرض.

من يُغضب العمدة أو يرفض له طلبا فقد عادى كل هؤلاء، وبعدها تُفتح عليه أبواب جهنم من كل اتجاه، محاضر كيدية، تحريك للديون، تأخير في الحصول على حصة الأسمدة، سحب ممتلكات للمنفعة العامة مقابل تعويضات هزيلة، محاضر غش وهمية للأبناء تكلفهم الحرمان من الامتحانات وتضيع مستقبلهم، جزاءات لا تتوقف في العمل. تمطر السماء على صاحبنا مصائب ولا تتوقف حتى يذهب إلى العمدة راكعا ويفعل له ما يريد، مع الوقت لم يعد أحد يحاول أن يخالفه أصلا، فأيا كانت الخسائر التي ستأتي من وراء تنفيذ رغباته فإنها لا تقارن بالخسائر المؤكده التي ستأتي من جراء مخالفته، وبعد كل هذه الخسائر سيحصل أيضا على ما يريده.

وكما أن لمبروك مصادر دعم خارجية فله أيضا مصادر دعم داخلية، مثل أحمد الشريف المحامي الذي يضمن إضفاء الصفة القانونية على كل مخالفاته وسرقاته، وهو بالمناسبة مهندس عملية سرحان الذي خطط ولفق الأدلة وانتقى التهم ولقّن الشهود بحيث لا تكون هناك ثغرة ينفذ منها أحد، كذلك خفره وشيخهم الذين تحولوا من مصدر لبث الطمأنينة في القرية إلى أحد أهم وسائل نشر الرعب فيها، حولهم سرحان

مـن موظفـين في الحكومـة إلي ميليشـيا لديـه، هـم مـن يحرقـون المحاصيـل لخصـوم العمـدة، ويخرجـون ملثمـين ليـلا عـلى مـن يُغضبـه فيوسـعونه ضربـا، ويحيطونـه طـوال الوقـت لحمايتـه مـن أي انتقـام محتمـل، إضافـة إلى شـيخ البلـد وبعـض أغنيـاء القريـة الذيـن يلتصقـون بـه، ليأمنـوا شره مـن ناحيـة، وينتظـروا عطاياه مـن ناحيـة أخـرى.

يبـدو الأمـر معقـدا جـدا، يجيـد الرجـل اختيـار حُماتـه، يوزعهـم بدقـة عـلى كل المفاصـل الحيويـة الـتي قـد تأتيـه منهـا الضربـات، وقبـل أن يـترك أحدهـم منصبـه يكـون قـد تعـرف عـلى صاحـب المنصـب الجديـد بتزكيـة مـن سـابقه لتبقـى السلسـلة متصلـة، وحـتى عندمـا يـأتي مـن هـو عـصي عـلى الاسـتقطاب يكـون هنـاك اتفـاق ضمـني يكـون اسـتقرار القريـة الـذي تضمنـه قـوة شـخصية عمدتهـا دافعـا لإغمـاض عينيـه عـن بعـض تجاوزاتـه.

تؤكـد الحكايـات الـتي سـمعتها أن حالـة الخنـوع الـتي عليهـا الأهالي الآن والاستسـلام الكامـل لسـلطة مـبروك، لـم تـأت إلا بعـد عـشرات المحـاولات الـتي لـم يخـرج في أيهـا مهزومـا، وبعـد مـيراث طويـل مع سـلفه لـم يكـن أفضـل حـالا، لذلـك لـم يكـن الاسـتمرار في مقاومتـه إلا انتحـارا، لكـن مـا كان ينقـص هـذه المحـاولات دومـا أنهـا فرديـة وغـير متكافئـة، شـخص يرفـض الظلـم الواقـع عليـه، يجـد نفسـه في مواجهـة رجـل يمتلـك قـوة ونفـوذا خلفـه أعـوان وأتبـاع، بينمـا بـاقي أبنـاء القريـة يكتفـون بالمشـاهدة، فتـأتي الهزيمـة العنيفـة والمروعة، والمتوقعـة أيضـا.

عمـي شـحاتة رغـم كل هـذه الحكايـات كانـت لـه وجهـة نظـر أخـرى، أن شـدة مـبروك ليسـت سـيئة طـوال الوقـت، فرغـم

اختلافه معه في كثير من أفعاله فإنه كان يرى في قوة شخصيته ضمانة لاستقرار القرية والسيطرة على أهلها، تذكر الفترة السيئة التي عاشتها البلد في الأيام الأولى لتولي مبروك العمودية بعد وفاة العمدة السابق زيدان، المشاجرات بين العائلات لم تكن تتوقف على أتفه الأسباب وأسفرت في مرة عن قتيلين، السرقات انتشرت بشكل غير مسبوق حتى إن أحدا لم يكن يجرؤ على ترك بقرته وحدها في الحقول لأن هذا يعني أنه لن يجدها، المخدرات أصبحت تُباع وتُشرب نهارا في عرض الشارع، ولم يكن إبلاغ الشرطة يسفر عن أي شيء.

لجأ الأهالي إلى العمدة الجديد ليتصرف، وعدهم بأن يعيد الهدوء إلى القرية في غضون شهر بشرط ألا يسأله أحد كيف سيفعل ذلك وألا يعترض أحد على إجراء اتخذه، وافق الجميع على الفور، فسيّر الخفر ليلاً ونهارًا في الشوارع بالبنادق وكان يجوب القرية بنفسه ليتابع الأحوال، من يُضبط مُتلبسا بفعل شيء خاطئ يُسحب من قفاه إلى الدوار يُضرب ضربا مُبرحا ويوضع تحت مياه الكولدير في عز الشتاء، ويبيت ليلته على هذا الوضع ثم يعود إلى أهله في اليوم التالي. لقيت هذه الطريقة ترحيبا من الجميع، حيث أصبح ذلك عنصر ردع لمن يفكر في ارتكاب الخطأ، وفي الوقت نفسه لم يكن الموضوع يصل إلى الشرطة والنيابة والمحاكم إذا كان المخالف من أبناء القرية، وبالتالي لا يضيع مستقبله.

بمرور الوقت سيطر مبروك تماما على القرية وأصبح مجرد ذكر اسمه كافيا للردع، وكان هذا مرضيًا للناس، بعدها استخدم طريقته أحيانا في المكان الخطأ، ولكن في سبيل استقرار الأوضاع

عـلى مـا آلـت عليـه اختـاروا ألا يصطدمـوا بـه، وبمـرور الأشـهر والسـنوات أصبـح يحقـق مـن ورائهـا مكاسـب، لكنـه كان قـد أصبـح أقـوى مـن أن يواجهـوه معـه.

- يعـني انتـو جبتـوه علشـان تبطلـوا ضرب في بعـض وهـو فعـلا عمـل كـده وخلاكـم تبطلـوا تضربـوا في بعـض، بـس بقـى هـو بيضربكـم كلكـم.

قلتها لعمي وتوقعت أن يغضب مني لكنه تقبلها ورد بهدوء:

- إنـت أصلـك ماعشـتش وقتهـا. لـو شـفت الـلي كان بيحصـل في البلـد تعـرف إن الـلي بيعملـه دلوقـتي أرحـم بكتـير مـن الـلي ممكـن يحصـل لـو مابقـاش موجـود!

- لو مابقاش موجود فيه قانون موجود، فيه دولة موجودة.

- القانـون الـلي بتقـول عليـه ده سـاعات بيظلـم أكـتر مـن أي عمـدة مهمـا كان مفـتري، والدولـة دي يـا حبيـبي مـش فاضيـة تجيـب لواحـد جاموسـة اتسرقـت ولا تصالـح عيلتـين اتخانقـوا عشـان عيـل فَسّى الكـورة للتـاني.

- فالحل بقى إننا نسيب واحد زي ده طايح في البلد كلها؟

- لأ، الحـل ناخـده بالسياسـة ونتقـي شره وندعـي ربنـا يهديـه، لأننـا لـو نسـتاهل حـد أحسـن منـه كان ربنـا جابـه لنـا.

- إنت راضي يا ابني عن الكلام ده؟

وجهـت حديـثي لهيثـم، الـذي نظـر لوالـده كأنـه يسـتأذن في الـكلام وقـال:

- مش راضي بس فاهم.

- يعني إيه؟

- يعني أكيد نفسي بلدنا دي تبقى أحسن بلد، ماحدش يتظلم فيها ولا حد يتاكل حقه، بس فاهم كل الكلام اللي أبويا بيقوله واللي هو كلام كل أهل البلد اللي دايما بيكونوا مُخيّرين بين سيئ وأسوأ، مش بين حلو ووحش، بالنسبة لهم مبروك هو سيئ يعرفوه أحسن ما يشتروا سمك في ميه وييجي اللي بعده ألعن وأضل سبيل.

- وليه ماتحاولوش تغيروا الوضع ده وفي نفس الوقت تفكروا ازاي تخلوا الجاي مش أسوأ؟

- إنت عرفت تعمل كده في مصر؟

أصابت كلمات هيثم قلبي في مقتل، لم أستطع الرد على سؤاله لأنه لا يريد أصلا أن يعرف إجابته، هو فقط يريد أن يوقظني من غفوتي وأحلامي ويذكّرني أن الأمر لم يكن سهلا في مجتمع أكثر انفتاحا، نسبة التعليم والوعي فيه أكثر والبدائل أكثر تنوعا، وأنا لم أنس ذلك لأتذكره، كل ما في الموضوع أنني أؤمن بأن تغيير قرية صغيرة أيسر كثيرا من تغيير بلد بأكمله، ربما أكون مخطئا لكن الأمر يستحق المحاولة.

-٣٠-

بعد أسبوع بالضبط كان أحمد يخبرني بأن العمدة ينتظرني في الخارج، طلبت منه أن يجعله ينتظر لدقائق ثم سأرن له الجرس ليسمح له بالدخول، فعل ما طلبته منه ودخل العمدة منتشيا، وقفت وسلمت عليه، فقال:

- أنا عارف انك ماكنتش بتعمل حاجة وإنك سبتني برة شوية، حركة كده يعني، بس انا مسامحك علشان شكلك كده دكتور شاطر.

عجبت لأمر هذا الرجل الذي يجيد حتى قراءة الأفكار، لكنني تجاهلت الشق الأول من كلامه وقلت:

- إيه؟ العلاج ريّحك الحمد لله؟

- آه ريحني كتير. هو أنا طلع عيني على ما لقيته وبعت حد مخصوص جابه من كفر الشيخ وسعره كمان حراق حبتين، بس بجد يعني الله ينور عليك، من تالت يوم وانا حاسس بتحسن كبير.

- بس خد بالك انت لسه ماخفيتش، لسه محتاج تكمل كورس العلاج ده أسبوعين كمان، وبعدها هديك نوع برشام واحد هتاخده قبل الأكل بانتظام.

- طيب ونظام الأكل اللي انت قايل لي عليه ده هافضل ماشي عليه برضه؟

- آه طبعا زي ما اتفقنا بالظبط. تبعد خالص عن البقوليات

بأنواعها والدهون والحادق والحراق.

- أمرنا لله، ولو اني باعزّ الدهون جدا وماعرفش آكل حتة اللحمة إلا إذا عاصت إيدي، بس نستحمل شوية وخلاص لحد ما ربنا يجيب الشفا من عنده.

- تمام. قوم بقى كده علشان أبص عليك ونشوف إيه الأخبار.

لم يعد يتألم عندما أضع يدي على بطنه كما كان قبل أسبوع، كذلك تراجع الانتفاخ واختفت التقلصات تقريبا، طمأنته بأن كل شيء على ما يرام وشددت عليه ألا يخالف أيا من التعليمات أو ينسى مواعيد الدواء، فشكرني وسألني عن ثمن الكشف لأنه لم يدفع المرة الماضية، أخبرته بأن أول كشف مجانا لكنه أصر على أن يدفع، وأمام إصراره أخبرته بأن ثمن الكشف ٤٠ جنيها، فخرج أعطى أحمد ورقة بمئتي جنيه ورفض أخذ الباقي وانصرف.

بدأ المرضى يتوافدون على العيادة تدريجيا، وأصبح المشوار الطويل الذي أقطعه بين المنزل والمستشفى روتينيا ولا يزعجني، بدأت أمي أيضا تتأقلم على الوضع الجديد، عرفت أماكن التسوق، أقربها وأرخصها وأجودها وأسوأها، تبادلت الزيارات مع بعض الجيران والأقارب وأصبحت تقصد قبر أبي بانتظام، أحضرت خط إنترنت لا سلكي إلى المنزل للتغلب على مشكلة ضعف الشبكة، فأصبح تواصل آية مع خطيبها أسهل، وتجاوزَت أزمتها مع الناموس بعدما اشتريت صاعقا كبيرا ووضعت سلكًا على الشبابيك، سارت الأمور للأفضل وهذا قلل شعوري بالذنب تجاههما لتسببي في تغيير نظام حياتهما في غمضة عين.

نسافر إلى القاهرة كل أسبوع لفتح الشقة وقضاء يوم مع أميرة وسحر وزوجيهما، في هذا اليوم أقابل زملائي القلائل وأشتري كل

المستلزمات التي قد لا نجدها في كفر الشيخ، مشوار مرهق لكنه ضروري حتى لا تتقطع أوصال الأسرة الصغيرة، تعمل العيادة أربعة أيام أسبوعيا ونسافر القاهرة يوما آخر، ويتبقى يومان أقضيهما مع هيثم بعد العودة من عمله، ومع أصدقائه الذين صاروا أصدقائي.

مجموعة من طلبة الجامعات والخريجين الجدد، ساعدهم الخروج من القرية والاختلاط ببيئات جديدة في توسيع مداركهم ونظرتهم للحياة بشكل أكثر نضجا من الأجيال السابقة، كنا نتحدث في كل شيء، في السياسة، في الفن والرياضة، في الحب والجنس. لا يختلفون عن الشباب الذين أقابلهم في القاهرة، يجيدون استخدام التكنولوجيا الحديثة، عندهم أصدقاء من كل أنحاء العالم، لديهم حسابات على مواقع التواصل الاجتماعي يكتبون عليها آراءهم الأكثر جرأة مما يبدون عليه في الحقيقة.

خاضوا أمامي نقاشات عديدة حاولوا فيها تفسير خضوع أهلهم لسلطة مبروك، لكنهم في الوقت نفسه لم يخفوا مخاوفهم من مناصبته العداء؛ في وجود طابور طويل من الضحايا ماثل أمامهم، بعضهم نهب مبروك أرض عائلته فعلا، وأحدهم ترك عمه القرية بعدما قرّبه منه العمدة لفترة وجعله يوقّع على شيكات بزعم مشاركته في مشروع، ثم خيّره بين السجن وبين أن يشتري بيته الكبير الواقع في مدخل القرية بتراب الفلوس، ليهدمه ويبني عليه مول المحلات الموجود الآن، وجميعهم سمعوا من أهلهم حكايات تجعلهم يفكرون ألف مرة في المجاهرة بكراهيته.

عرفوا أنني كنت في المستشفيات الميدانية خلال الأحداث التي

تلت الثورة فطلبوا مني أن أحكي لهم ذكرياتي معها، كانوا سعداء بأن بينهم واحدا قد شاهد على الطبيعة أحداثا شاهدوها هم في التليفزيون، بعدما حكيت لهم بعضا مما رأيت أصبحوا يتعاملون معي باحترام أكبر، ويتطلعون لسماع رأيي في أي خبر سياسي باعتباري أكثرهم خبرة وتجربة.

لمست فيهم حبا كبيرا للثورة ورموزها، وحزنا أكبر لعدم تمكنها من تحقيق أهدافها، طارق عبد العزيز مثلا حكى أنه نزل ميدان التحرير مرة واحدة في ذكرى الثورة الأولى، وفوجئ بمشاجرات ومشاحنات كثيرة بين المنصات الموجودة في الميدان، وانقسام المشاركين في نفس الفعالية بين أكثر من فسطاط، وحينها تأكد أن الثورة ستفشل ولم يكرر التجربة، وروى محمد أبو الخير قصة ابن خاله المقيم في القاهرة الذي أصيب في قدمه برصاصة يوم ٢٨ يناير جعلته لا يستطيع السير دون عكاز، ورغم ذلك ضربه أحد المتظاهرين في أحد المليونيات بعد الثورة بعدة أشهر واتهمه بأنه «فلول» ونزل الميدان لإحداث فتنة.

أكدت لهم أكثر من مرة استغرابي من حبهم الكبير للثورة وفي الوقت نفسه رضاهم بالعيش في قرية يحكمها عمدة متسلط لا يسلم أحد من أذاه، سمعت منهم تبريرات مختلفة وحاولوا إقناعي بأنه لا تشابه بين الحالتين ولا تعارض بين الموقفين، لكنني لم أقتنع، يقولون إنه لو نجحت الثورة في القاهرة لتخلصوا من حكم مبروك، وأقول إنهم لو تخلصوا من حكم مبروك لنجحت الثورة في القاهرة.

قررت زيارة قبر والدي الذي لم أزره منذ قدومي إلى القرية،

عـدت مـن عمـلي عـلى المقابـر مبـاشرة، ركنـت السـيارة بالقـرب مـن الشـارع المـؤدي إليهـا ثـم ترجلـت إلى أن وصلـت القـبر، وقفـت أمامـه في خشـوع فقـرأت الفاتحـة وبعضـا مـن قصـار السـور، نزلـت دموعـي وأنـا أدعـو الله أن يُبدلـه أهـلا خـيرا منـا وأن يجمعنـا بـه في الجنـة، اسـترجعت كثـيرا مـن ذكرياتنـا معـا ومشـاركته لي في كل قـرار إن لـم يكـن بمبـادرة منـه فبطلـب مـني، طرحـت عـلى نفـسي أسـئلتي المعتـادة عـن جـدوى الحيـاة مـا دمنـا سـنموت، والحكمـة مـن لقـاء الأحبـة مـا دمنـا سـنفارقهم، ولـم أجـد إجابـة كالعـادة.

نظـرت كثـيرا إلى القـبر حـتى تفرقـت ملايـين الخطـوط وتفرقـت معهـا الحوائـط، ورأيـت أبي ممـدا فيـه بملابـس بيضـاء زاهيـة ووجـه مبتسـم، عـلى صورتـه الأولى قبـل أن يـأكل المـرض جسـده ويغـيّر ملامحـه، تخيلتـه يـراني ويرفـع يـده إليّ ليحييـني، فوجـدت يـدي تُرفـع تلقائيـا لـرد التحيـة، تجمعـت الخطـوط مـن جديـد ليعـود الحائـط حائـلا بيـني وبـين أبي ويذكّـرني أنـه لـم يعـد موجـودا، أنزلـت يـدي وألقيـت السـلام وهممـت بالانـصراف.

قبـل أن أخـرج مـن المقابـر وقعـت عيـني عليـه مـن جديـد، ضريـح «عبـد الميـت» تتجمـع النسـاء حولـه كالعـادة إضافـة إلى رجلـين، لكـن ثمـة تعديـلات جديـدة طـرأت عليـه لـم أرهـا في المـرة السـابقة، أضيفـت إليـه لوحـة رخاميـة مكتـوب عليهـا اسـم صاحـب الضريـح بخـط ذهـبي، ودهنـت حوائطـه باللـون الأبيـض، وأحاطـت ببابـه قماشـة حريريـة خـضراء، وعرفـت فيمـا بعـد أن مـبروك هـو مـن تكفـل بتجديـده.

-٣١-

أصبح مرضاي مصدرًا دسمًا للمعلومات، اكتشفت أن جميعهم يعرفون خبر ذهابي إلى المركز وشهادتي ضد مبروك، لذلك كلما كشفت على أحدهم تطوع بالحديث معي عن ذكرياته وذكريات من يعرفهم مع العمدة، لكن أبرز تلك الحكايات كانت ما سمعته من سلطان.

كان أول من فتح مخبزا في القرية منذ نحو ١٠ سنوات، قبلها كان الأهالي يعتمدون على الخبز الذي تصنعه النساء في المنازل أو يشترونه من مخابز في قرى مجاورة، بذل مجهودا كبيرا حتى حصل على التراخيص واشترى المكان والمعدات واستقدم العمالة، وفي سبيل ذلك باع قطعة أرض كان قد ورثها عن والده، لإقامة المشروع الذي كان يرى أن القرية تحتاجه بشدة ولذلك سيكون مكسبه مضمونا.

بعد افتتاح المخبز بـ٣ سنوات أصبحت كل منازل القرية تشتري منه احتياجاتها من الخبز، وضاعفت مديرية التموين حصة الدقيق التي تمنحها له، وبدا أن رهان سلطان على مشروعه كان صحيحا، لكن ظهور العمدة قلب كل شيء رأسا على عقب. زاره في أحد الأيام بعد انتهاء مواعيد العمل وبينما كان يجمع ويعد إيراد اليوم، وضع النقود في الدرج وقام لاستقباله وأجلسه مكانه على مقعد المكتب وجلس هو على المقعد المقابل، رحب به كثيرا وهو ينتظر معرفة سبب حضوره بنفسه إلى المخبز، ففاجأه مبروك:

- بص يا سلطان من غير لف ولا دوران كتير أنا عاوز اشاركك.

- تشاركني في إيه يا حضرة العمدة؟

تطلع في أرجاء المخبز ثم نظر إلى سلطان بخبث وقال:

- وهو انت حيلتك حاجة تانية؟

- أيوه بس انا مش عاوز شريك ولا حاجة. الحمد لله مستورة ومش محتاج فلوس.

- لا ما هو أنا مش هادفع فلوس.

- كمان؟

- آه كمان.

- أومال هاشاركك ليه؟

- حماية.

- من مين؟

- من القضا المستعجل.

- بس انا ماشي قانوني في كل حاجة ومش باعمل حاجة غلط!

- ماعلش برضه الأمر مايسلمش.

قالها ثم أشار إليه ليقترب، وهمس في أذنه:

- ولاد الحرام كتير. ربنا يكفيك شرهم.

ابتعد سلطان عنه واستند على مقعده وصرف بصره عن المنطقة التي يجلس فيها مبروك وقال:

- سامحني يا عمدة. الفرن ده شقايا وتعبي ومش ممكن أفرط في شبر منه مهما حصل.

قام واستند على عصاه وأعاد هندمة ملابسه، وقال بينما

يستعد للمغادرة:

- ومالك يا حبيبي. ده مالك وانت حر فيه، وانا مش ممكن أغصبك على حاجة أبدا. سلام عليكم.

تجمد سلطان على المقعد لدقائق وهو يسترجع كلام العمدة ويفكر في القادم الذي يبدو أنه لن يكون سهلا، فالأكيد أن مبروك كان يتوقع أنه سيرفض العرض ويعرف جيدا ما سيفعله بعد هذا الرفض، وحتما سيأتيه الرد.

جاء الرد، لكنه جاء أسرع مما كان يتوقع، بعد الزيارة بأقل من ٤٨ ساعة فوجئ بحملة كبيرة من مباحث التموين قامت بالتحفظ على الميزان بدعوى التأكد من مطابقته للمواصفات، إضافة إلى الاستيلاء على كل السجلات، وأغلقت المخبز بالشمع الأحمر، وعندما سافر إلى كفر الشيخ لاستطلاع الأمر وجد قائمة طويلة من الاتهامات، منها إنتاج خبز ناقص الوزن وعدم الاعلان عن مواعيد التشغيل وعدم انتظام السجلات والغش التجاري واستخدام دقيق منتهي الصلاحية وعدم الاحتفاظ بميزان حساس، وبالطبع كانت كل الأحراز موجودة.

انتهي الأمر بتغريم سلطان ٢٥ ألف جنيه، وعندما أعاد فتح المخبز بعد توقفه أسبوعين استقبل خطابا من الضرائب تتهمه بالتهرب، وحملة من الكهرباء تزعم أنه يتلاعب في العداد، وأخرى من المرافق تصادر «الاستاندات» التي يضع عليها أقفاص الخبز، أدرك أنه لو عاند أكثر من ذلك سينتهي به الحال مفلسا ويضطر لبيع المخبز ليسدد فقط الغرامات المفروضة عليه.

بأنفاس غير منتظمة ونفس مكسورة وقف أمام دوار العمدة، فتحوا له الباب وأدخلوه إلى المضيفة حيث مبروك يشرب الشيشة

وبجـواره محاميـه أحمـد الشريـف، ومـا أن دخـل عليـه حـتى أطلـق ضحكـة عاليـة وقـال:

- عرفـت بقـى يـا سـلطان هاحميـك مـن إيـه؟ عـلى فكـرة نـص التهـم الـلي جـت لـك دي أقـدر أحبسـك بيهـا، بـس برضـه ماتهونـش عليـا، احنـا مهمـا كان بقينـا شركا.

- عرفت يا عمدة. اللي تشوفه.

أشار إلى محاميه الذي كانت تعلو وجهه ابتسامة عريضة وقال:

- عقد الشراكة بتاع المخبز يا أستاذ أحمد.

رد وهو يخرجه من بين أوراق أخرى كثيرة في حقيبته:

- جاهز يا عمدة وعلى الإمضا.

أمسـكه سـلطان ومـر عليـه سريعـا فوجـده بالفعـل لا ينقصـه إلا توقيعـه وكأنـه يعـرف أنـه سـيأتيه خاضعـا، كل البنـود جاهـزة ومنهـا أن نسـبة العمـدة في المخـبز ٥١٪ ونسـبته هـو ٤٩٪، وضـح الاسـتياء عـلى ملامحـه، فلاحـظ مـبروك وسـأله:

- فيه حاجة في العقد مش عاجباك ولا حاجة؟

فأجاب:

- لا مافيش حاجة. كله تمام.

كان يعـرف أن الاعـتراض لـن يجـدي شـيئا وأن العمـدة يعـرف تماما مـا يفعلـه ولـن يغـير في المكتـوب حرفـا، لذلـك وقّـع سريعـا دون أن يكمـل قـراءة بـاقي البنـود حـتى لا يجـد فيهـا شـيئا آخـر يسـيئه، ثـم أعطـى العقـد للمحامـي واسـتأذن في الانـصراف، سـلم عليـه مـبروك جالسـا وقـال لـه:

- مبروك عليك.

لم يرد وتوجه نحو الباب وهو يلمحهما بطرف عينه يتبادلان الابتسامات الشامتة، ولكن ليت الأمر توقف عند هذا الحد. بعد ذلك بشهر تقريبا أرسل العمدة خفيرا يطلب من سلطان الحضور لمقابلته في الدوار، تأكد أن هناك مصيبة جديدة في الانتظار.

- خير يا عمدة تاني؟

- بص يا سلطان. بقى أنا يا ابن الناس بصراحة ربنا كده ماليش في موضوع الشراكة ده.

حاول أن يستوعب الكلام لكنه لم يستطع فاستفسر مجددا:

- مش فاهم قصدك يا عمدة.

- قصدي إني هادفع لك تمن النص بتاعك ويبقى المخبز بتاعي أنا لوحدي، ونفضل حبايب ويا دار ما دخلك شر.

- بس ده يبقى ظلم يا عمدة انك تاكل عرقي وشقايا!

- ما هو أنا باحب كده، امسك دول.

منحه حقيبة سوداء بها أموال أقل من نصف قيمة النصف، وناوله عقد بيع ابتدائيا وقّع عليه، وأخذ الحقيبة وخرج وهو يقمع دموعا تكافح لتنزل حتى لا يخسر رجولته وكرامته بجانب مخبزه ويزيدهم شماتة على شماتتهم، وبهذا حصل مبروك على المخبز بأقل من ربع ثمنه وحرمه من مصدر رزق عانى كثيرا حتى أوقفه على قدميه.

لم تكن سيطرة مبروك على المخبز مصيبة وحلت على رأس سلطان وحده، بل تضررت منها البلدة كلها، حيث لم يعد

المخبز ينتج سوى أقل من نصف حصة الدقيق وتباع باقي الكمية للأفران الخاصة بسعر السوق السوداء، حقق العمدة من وراء ذلك مكاسب كبيرة، وعاد كثير من أهل البلد يخبزون في بيوتهم مرة أخرى بسبب عدم كفاية الكمية الخارجة من المخبز، كما تدخل العمدة ومنع أحد أهالي القرية من الحصول على رخصة لإنشاء مخبز جديد حتى لا تتأثر حصته وتتوزع بين مخبزين.

- وانت ازاي وافقت بسهولة كده وماحاولتش تقدم شكوى ضده ولا تعمل أي حاجة تخوّفه بيها؟

قلتها لسلطان وهو ممد أمامي أكشف على معدته المعتلة، فأجاب:

- أشتكي مين يا دكتور ولا اقف قدام مين؟ اللي ممكن أشتكيه ليهم هم اللي لفقوا محاضر وبلاوي زرقا ضدي.

- بس انت كده خسرت كل حاجة!

- يشبع بالمخبز وبالدنيا، أنا مش عاوز حاجة غير إني اعيش مستور، الدنيا منفاتة يا دكتور مش مستاهلة نموّت نفسنا عليها، كل أولياء الله الصالحين ومنهم سيدي يوسف علمونا مانركزش مع الدنيا الفانية ونعمل لآخرتنا أحسن.

- تقصد سيدنا يوسف الصديق؟

- لأ. سيدي يوسف عبد الميت. اللي كان قدامه كل متع الدنيا وسابها علشان عرف إن الموت جاي جاي واننا رحنا ولا جينا عملنا فلوس أو ماعملناش ضيوف عليها.

- آآآه. عبد الميت. طيب الدوا ده بقى تاخده بعد الأكل والبرشام مرة واحدة بالليل قبل ما تنام، واشوفك زي النهارده.

-٣٢-

لـم يعـد تـردد يوسـف اليومـي عـلى المقابـر سرًا، رآه أهـل القريـة أكـثر مـن مـرة وهـو جالـس في تـراب الحـوش، كمـا أصبحـت حكايتـه المثـيرة مـع مقـبرة مـراد بـك ضيفـا دائمـا عـلى جلسـات السـمر والنميمـة الـتي يحضرهـا أبـو عبـده الـتُربي، وبالطبـع وصـل الموضـوع إلى العاملـين في الـسراي، ومنهـم إلى محاميـه.

وبينمـا كان جالسـا في الحـوش ذات يـوم وجـد فهمـي يفتـح بـاب الحـوش ويدخـل عليـه، قـام عـلى الفـور ينفـض الغبـار مـن عـلى ملابسـه في ارتبـاك وينظـر إلى محاميـه في ترقـب. بـدا الاسـتغراب عـلى وجـه فهمـي الـذي أخـذ يطالـع المـكان ويتطلـع إلى يوسـف قبـل أن يسـأله:

- إنت بتعمل إيه هنا يا عم يوسف؟

- مافيش. كنت باقرا الفاتحة لمراد بيه.

- وهي الفاتحة تخليك تقعد هنا كل يوم بالساعات؟

- أديـني بضيـع شـوية وقـت يـا أسـتاذ فهمـي. مـا انـا قاعـد في البيـت لا شـغلة ولا مشـغلة.

- طيـب ليـه حـتى مـش بتخـلي حـد يجيـب لـك كـرسي تقعـد عليـه بـدل مـا هدومـك تبقـى مليانـة تـراب كـده!

- يا سيدي. منها وإليها نعود.

أطلـق فهمـي تنهيـدة تنـم عـن اسـتيائه، لاحظهـا يوسـف فحـاول تغيـير مسـار الحديـث:

- إنما انت إيه اللي جابك هنا؟ أكيد فيه حاجة مهمة.

- رحت لك السرايا عرّفوني إنك خرجت وماقُلتش رايح فين، بس قالوا إني أكيد هالاقيك هنا.

- هم وراهم غير اللت والعجن! جاتهم الهم عالم سوّ.

- كان فيه فكرة جت في دماغي كده وقلت آخد رأيك فيها.

- خير ان شاء الله؟

- إيه رأيك تطلع الحج السنة دي؟

اتسعت عينا يوسف وبدا كأنه توقف حتى عن التنفس، طالعه فهمي منتظرا أن يرى منه أي فعل، لكن انتظاره طال، فاضطر لسؤاله:

- عم يوسف انت سمعتني؟

نظر إليه شاردا ثم قال بصوت خافت:

- وهو حد برضه يكره يزور بيت ربنا ويملس بإيده على قبر النبي؟

- خلاص. أنا هاخلص لك كل الإجراءات وانت ابدأ استعد وجهز نفسك علشان فاضل أقل من شهر.

انتبه كأنه تذكر شيئا مفاجئا، ثم سأل:

- بس أنا هاسافر لوحدي؟

- آه أكيد.

- إزاي بس؟ ده انا لما ببعد عن السرايا خمسين متر باتوه. هاروح بلد تانية؟

- عادي، ناس في سنك وأكبر منك بكتير بيروحوا لوحدهم

ومـش بيتوهـوا ولا حاجـة، بيكـون معاكـم مرشـدين ملازمينكـم في كل خطـوة.

- لا لا أنـا برضـه ماعرفـش اتحـرك أبـدا مـن غـير مـا يكـون معايـا حـد اعرفـه.

- طب والحل إيه؟

- تيجي معايا.

- مـش هينفـع خالـص يـا عـم يوسـف، أنـا عنـدي شـغل كتـير وماينفعـش أسـيب المكتـب الفـترة الطويلـة دي.

- يـا أخـي مكتـب إيـه بـس وشـغل إيـه ودنيـا إيـه؟ تعـالى أهـو منهـا تبقـى معايـا ومنهـا تـأدي الفريضـة وينوبـك الثواب.

سـكت فهمـي كأنـه يفكـر في الموضـوع، بينمـا يوسـف يترقـب قـراره وينتظـر رده، إلى أن جـاء أخـيرا:

- ماشي يا عم يوسف. هاجي معاك.

تهلـل وجهـه ثـم اقـترب مـن محاميـه وانكـب عـلى يـده يقبلهـا وسـط ذهـول الأخـير الـذي سـحبها بسرعـة:

- بتعمـل إيـه بـس يـا راجـل يـا طيـب. ده انـا الـلي شـغال عنـدك وباقبـض مرتـبي منـك.

- لا إزاي. ده معروف ودين في رقبتي مش هانساهولك أبدا.

- طيـب مـش يـلا بقـى نـروح عـلى السرايـا علشـان آخـد بطاقتـك ونبـدأ في إجـراءات جـواز السـفر بتاعـك ونخلـص بقيـة الأوراق.

- طيب استنى طيب لما اشكر الراجل.

قالها ثم التفت إلى القبر وقال:

- دايما جمايلك مغرقاني يا سعادة البيه. طول حياتك معيشني في خيرك وحتى بعد ما مت لسه عايش في خيرك وهازور بيت الله بفلوسك. ندرن عليا لأدعي لك هناك أكتر ما هادعي لنفسي. ربنا يرحمك ويغفر لك ويسامحك.

كان فهمي يتابع المشهد بأسى، يشفق على الرجل ويستغرب تركه الدنيا بملذاتها التي باتت كلها ملك يمينه، وقضاء وقته بجوار بقايا سيده، زاد اقتناعه بأن المشكلة ليست أبدا في تقبل الناس ليوسف في وضعه الجديد، لكنها في تقبل يوسف نفسه هذا الوضع، فيبدو أن الرجل سيبقى إلى الأبد ينظر إلى نفسه بوصفه خادم مراد، وهذا الطوق الملفوف حول رقبته لن يبرحها، لا لشيء إلا لكون يوسف نفسه أحرص الناس على بقائه.

سريعا أنهى كل الإجراءات واستخرج ليوسف جواز السفر، رافقه وهو يشتري ملابس الإحرام ومستلزمات الرحلة، وكان يمني نفسه بأن يرجع بعد الرحلة وقد اكتشف أن الكون أرحب من قبر مراد. الرجل نفسه كانت فرحته لا توصف، كانت الفرحة بادية على كل تصرفاته والابتسامة لا تفارق وجهه على غير العادة، وإن حافظ في الوقت نفسه على عاداته اليومية، فبعيدا عن الأيام التي كان يصطحبه فيها فهمي إلى كفر الشيخ لإنهاء الإجراءات كان يومه يتوزع بين اعتكاف في غرفته، وجلوس بجانب جابر، ورحلة إلى المقابر.

كانت الرحلة إلى الأراضي الحجازية جديدة عليه، ركب البحر للمرة الأولى، بل إن الأغرب أنه كان يراه أصلا للمرة الأولى وهو في العقد السادس من العمر، أصيب في البداية بدوار لكنه تجاوزه وبدأ يمتع عينيه بالنظر إلى هذه المساحة اللانهائية من

المياه الزرقاء، حيث لا يابسة في الأفق، ومطالعة أسراب الطيور المهاجرة، والتأمل في هذه السفينة التي تحمل أثقالا تشق بها البحر دون أن تبتلعها مياهه.

كطفل وُلد أعمى واسترد البصر فجأة أخذ ينظر بانبهار إلى كل شيء، للصحارى والجبال، للرمال الملونة، لإعلانات الشوارع، لإشارات المرور، يلاحظ فهمي ذلك فلا يحدثه ولا يقطع تأملاته، يريده أن يشبع عينيه بكل شيء، أن يتعلق بالحياة وزينتها ويدرك أنه كان مخطئا حين ظن أنه فعل كل شيء، وأن دوره الآن أن يجلس في غرفته منتظرا الموت.

- يا بخت مراد بيه. مشي في السكة دي ٣ مرات.

- مش في السكة دي بس يا عم يوسف. مراد بيه عاش حياته بالطول والعرض. جرب كل حاجة وعمل كل حاجة. سافر وراح وجه وحب واتجوز، كسب فلوس وخسر فلوس، صاحب ناس وقاطع ناس، عمل كل اللي نفسه فيه، علشان كده أكيد وهو بيموت كان راضي، لأنه ماحرمش نفسه من التجربة.

- ساعة الموت بيتساوى كل الناس يا أستاذ. لو فيه حد بيموت زعلان صحيح فهو اللي اتعلق بالدنيا وجرب حلاوتها، لأنه بيبقى عاوز يأبّد فيها ومايسيبهاش. لكن اللي زي حالاتي هو اللي هيموت فرحان لأنه ماشافش من الدنيا حاجة يتبكي عليها.

- ماتفكرش في الحاجات دي. فكر بس ازاي تستمتع بكل خطوة تمشيها في السكة دي.

هز رأسه موافقًا ثم أخرج وجهه من نافذة الحافلة ونظر إلى السماء كأنه يطلب دعمها، كان يشعر بقربه من الله أكثر من

أي وقت مضى، صحيح لم يكن ملتزما بالتعبد ومواظبا على الصلاة لكنه يحب الله ويعلم أنه أيضا يحبه، فالله أكرم من أن يقابل حبا ببغض، ثم لماذا لا يحبه الله؟ هو لم يؤذ أحدا، لم يكذب ولم يسرق ولم يزنِ، لم يأكل حراما ولم يركض وراء الدنيا ومفاتنها، لم يعترض يوما على أمر قضاه، فصبر على الفقر والضيم وفقد الأحبة وقابَل كل مصيبة شاكرا حامدا، والله حبيب كل الضعفاء والفقراء، يستعينون على الأيام بقوته وغناه، ويقبلون على لقائه مستبشرين لأنهم دفعوا ثمن جنته صبرًا.

حين وقعت عيناه على البيت الحرام بكى حتى سمعه كل من حوله، ترك جسده تُسيّره الجموع الهادرة، ووجد روحه معلقة على أسوار الكعبة، اكتشف أنها لم تكن معه أصلا بل تقيم هنا من قبل وجوده هو على الأرض، ربما ساعدت إبراهيم في رفع القواعد، وأرشدت الطير الأبابيل على فيل أبرهة، وكانت على يمين محمد وهو يثبت الحجر الأسود، لم يشعر بالرهبة التي تحدث عنها كل من زار البيت الحرام، بل على العكس شعر بسكينة وصفاء لم يشعر بهما في حياته، وربما لذلك بكى، لأن خمسين عاما ويزيد مرت من عمره قبل أن يجرب هذا الإحساس.

طوال تأدية المناسك لم يعد يشعر بوجود فهمي ولا يهتم إن كان بجانبه أو لا، وهو الذي كان يتصور أن كارثة ستحدث إذا ابتعد عن كتفه، قضى الأيام كلها في الصلاة والعبادة، وكلما سجد اجتهد في الدعاء لمراد بالرحمة وحسن المنزلة، ثم دعا لنفسه بالصبر على فراق مراد وبحسن الخاتمة، لم يشعر بحاجة إلى أي دعاء يخص الدنيا، كل ما كان يهمه أن يحسن الله

أخرتـه حـتى لا تفسـد كمـا فسـدت دنيـاه. إذا أراد الجلـوس اختـار أحـدا يقـرأ القـرآن بصـوت مرتفـع وجلـس بجانبـه، لـو كان ينـدم عـلى شيء ممـا فـات فهـو أنـه لـم يتعلـم ليقـرأ القـرآن، يحلـق في السـماء كلمـا سـمع آياتـه، كأنـه يـرى الله يُقرئهـا جبريـل في مـكان فسـيح تحفـه الملائكـة ويسـيطر اللـون الأخـضر عـلى أجوائـه، حيـث لا عـين رأت ولا أذن سـمعت.

في المدينـة المنـورة جاهـد وزاحـم حـتى يلمـس بيـده سـور قـبر الرسـول، تشـبث بـه حـتى لا تدفعه الجمـوع الطامعـة في مكانـه بعيدا عنـه، نظـر مـن فتحاتـه حـتى تقـع عيناه عـلى مرقـده الشريـف، ثـم انهمـرت الدمـوع مـن عينيـه مجـددا، طلـب مـن النـبي أن يتوسـط لـه عنـد ربـه ليرحمـه ويغفـر لـه زلاتـه وتقصيره، أن يخـبر الله كـم يحبـه ويتمـنى لقـاءه وأن هـذه الدنيـا بمـا فيهـا ومـن فيهـا لا تسـاوي عنـده جنـاح بعوضـة، أنـه لا يـشرك بـه شـيئا حـين يتعلـق قلبـه بمـراد، فهو مـن قـدّر لـه ذلـك وهـو لا يفعـل شـيئا سـوى الرضـا بقـدره، فهـل يمكـن أن يحاسـبه الله عـلى رضـاه بمـا قـدره لـه؟

طلـب مـن النـبي أن ينفـذ وعـده، فقـد سـمع مـن خطيـب الجمعـة ذات يـوم أن الفقـراء يدخلـون الجنـة قبـل الأغنيـاء بأربعـين خريفـا، وأن فقـراء المهاجريـن أول مـن يشربـون مـن حوضـه، أقسـم إنـه لـو كان موجـودا في عـصره لـكان حتمـا أول المهاجريـن، وهـو بالفعـل مـن الفقـراء، تلـك الأمـوال الـتي ورثهـا عـن سـيده لـن تغـير حقيقـة أنـه فقـير وسـيظل فقـيرًا، لا يمكـن أن تُـنزع عنـه هـذه الصفـة بسـبب عـدة أشـهر امتلـك فيهـا أمـوالا لا تخصـه ولـم ينفـق منهـا سـوى تكاليـف زيارتـه. تلقـى دفعـة شـديدة أبعدتـه عـن السـور، لكنـه قبلهـا كان قـد عـبر للنـبي عـن أملـه في ميتـة سـهلة وبعـث جميـل،

فأكثر ما يخيفه وأمثاله أن تكون آخرتهم بسوء دنياهم.

شيء واحد كان يثير استغرابه، حضور مراد معه طوال الوقت، طبيعي أن يتذكره لكن الذي يحدث أنه لا تمر ثانية دون أن يسترجع له ذكرى، أو يحكي له موقفا، أو يدعو له، كان يراه يسير إلى جانبه بملابس الإحرام ويتعكز على عصاه صاعدا جبل الرحمة، وحتى عندما كان ينام في هذه البقاع الطاهرة يحلم به. سمع كثيرًا قبل ذلك أن البعيد عن العين يبتعد تدريجيا عن القلب، وأن كل شيء يُنسى بمرور الوقت، فلماذا كلما مر وقت أطول صار حاضرا في قلبه وعقله أكثر؟ ولماذا يسيطر عليه لهذه الدرجة؟ هو لا يريد أن ينساه ولا يحاول، لكنه يريد أن يترك له بعضا من يومه دون أن يكون طرفا فيه.

- مش معايا انت خالص ياعم «يوسف».

قالها فهمي بينما هما يجمعان أغراضهما استعادا للعودة في اليوم التالي، فرد بنظرة خجولٍ أتبعها بقوله:

- آه أكيد. هو اللي ييجي الحتت الحلوة دية يهمه حد غير ربنا؟

- بس انا كنت فاكرك عجزت يا راجل بس ما شاء الله عيني عليك باردة صحتك طلعت زي الفل آهه، وكنت بتمشي أسرع مني كمان وبتتعبني في الجري وراك. أنا باقول بقى نجوزك بعد ما نرجع علشان تجدد شبابك، والحج ومن بعده العروسة ينسوك اللي بالي بالك.

- الله يجازيك يا أستاذ فهمي. جواز إيه بس يا راجل، يلا حسن الختام. شوية الصحة اللي فاضلين يا دوب على قد

المشي، ماينفعوش لحاجة أكتر من كده. وبعدين خلينا مع الله أحسن.

- ماشي. هاسكت دلوقتي بس بعد ما نرجع لينا كلام تاني ومش هسيبك غير لما تعملها.

- سيبها على الله.

سكت لثوان ثم سأله:

- هو انت كنت بتحب مراد بيه يا أستاذ فهمي؟

فوجئ بالسؤال لكنه أجاب:

- أنا كنت المحامي بتاعه سنين، وبيننا عيش وملح، ووسع عليا كتير في حياتي ورزقي. بس موضوع الحب والكره ده أنا ماليش فيه قوي. أنا قدمت له خدمات وخدت قصادها فلوس، زيك كده بالظبط، قدمت له خدمات وخدت في مقابلها فلوس أو سكن أو حماية. ماينفعش نوقف حياتنا على شخص عدا علينا كام سنة وسابنا. وقبل ما تقولي إنه ماعداش عليها كام سنة وانك فتحت عينيك عليه، فأنا برضه فتحت عيني على أبويا وكان هو مصدر حمايتي اللي مش متخيل إني أعيش من بعده، لكن الراجل أدى رسالته وعلمني وكبرني ومات، وكملت حياتي ولقيت فيها حاجات تانية حلوة تستحق نعيش عشانها، ولو الحاجات الحلوة دي سابتني برضه هادوّر على حاجات تانية حلوة. دي سنة الحياة يا عم يوسف. ناس بتيجي وناس بتروح، وبكرة احنا هنروح وناس تانية تيجي. الموضوع بسيط جدا بس انت اللي مصمم تعقده.

-٣٣-

وقـف كل العاملـين في مدخـل الـسراي لاسـتقبال يوسـف، بمجـرد توقـف السـيارة أمـام البـاب أطلقـت هانـم زغـرودة طويلـة تداخلـت معهـا زغـرودة أخـرى لسـعدية، نـزل فـرج درجـات السـلم مسرعـا وفتـح البـاب ليوسـف وعندمـا نـزل احتضنـه بقـوة:

- حمدلله على السلامة يا حاج.

- الله يسـلمك يـا فـرج، عقبالـك لمـا تـزور المصطفـى وتقـف عـلى بابـه.

- يا رب يا عم يوسف يا رب.

قالهـا وقـد بـدأ في إنـزال الحقائـب مـن السـيارة بمسـاعدة إبراهيـم وعبـد المعبـود بعـد أن جـاءا وسـلما بحفـاوة أيضـا، أمـا جابـر فجـاء وسـلم بفتـور ووقـف يتابـع المشـهد دون أن يسـاعدهم، ثـم اقـترب مـن أذن يوسـف وهمـس باسـما:

- أظـن وحشـتك القعـدة معايـا عـلى الدكـة. هـي موجـودة أهـي ومسـتنياك.

ضحـك دون أن يصـدر صوتًـا، وأومـأ برأسـه ثـم دخـل الـسراي فوجدهـم قـد أعـدوا لـه وليمـة ضخمة قالـوا إنهـا للاحتفـال بقدومه، وشـعر بأنهـا احتفـال بعودتهـم إلى «الزَفَـر»، فعندمـا سـافر إلى الحجـاز منـح فهمـي كل العاملـين إجـازة باسـتثناء الخفـير والجنايـني، صحيـح أنهـا كانـت إجـازة مدفوعـة الأجـر، لكـن الأكيـد أنهـم حُرمـوا خلالهـا مـن الطعـام الفاخـر الـذي أصبحـوا يأكلونـه يوميـا منـذ آلـت

ملكيـة الـسراي إليـه.

جلـس معهـم وأكل بشراهـة عـلى غـير العـادة، فالطريـق الطويـل والمجهـود الـذي بذلـه طـوال رحلـة الحـج جعـلا شـهيته مفتوحـة ليـأكل أي شيء. فتـح الحقائـب وأخـرج الهدايـا الـتي أحضرهـا لهـم مـن أرض النـبي ووزعهـا، سـبح ومصليـات وعطـور ومسـاويك وقطـع أقمشـة، طالعوهـا بفـرح وشـكروه لأنـه تذكرهـم، فمـراد حـج ٦ مـرات ولـم يهادهـم بـأي شيء، وكان يعـود مـن الحـج في كل مـرة ليعاملهـم أسـوأ ممـا كان يعاملهـم مـن قبـل.

صعـد غرفتـه ليسـتريح مـن عنـاء السـفر، سـحب فرشـته كالمعتـاد واسـتلقى عـلى الأرض لكـن النـوم لـم يـزره، يغـيّر وضعـه أكـثر مـن مـرة ويسـتجلب النـوم فـلا يـأتي رغـم التعـب الـذي يعتـصر عظامـه. تفطـن إلى سـبب الأرق، قـام فارتـدى ملابسـه ثـم نـزل مسرعـا في طريقـه لمغـادرة المـنزل، لمحتـه كوثـر فسـألته:

- على فين يا عم يوسف.

لم يجبها، لكن إبراهيم أجاب:

- يعني مش عارفة رايح فين؟

قطـع الطريـق سريعـا، كانـت أنفاسـه تتسـارع فوضـع كفـه عـلى صـدره ضاغطـا قلبـه المضطـرب، حـتى وصـل أخـيرا إلى مقصـده، حيـث بـاب الحـوش، فتحـه ودخـل فألقـى السـلام عـلى صاحـب القـبر وحـكى لـه كل مـا رآه في رحلتـه، طمأنه بأنـه دعا لـه في الصلوات، واسـتغفر لـه بينهـا، ولـم ينسـه بعدهـا، وبينمـا هـو يحـكي ويحـكي أحـس بالتعـب، فوضـع جنبـه عـلى الأرض وغـط في نـوم عميـق.

في نومـه رآه مجـددا، كان في كامـل صحتـه وزينتـه هـذه المـرة، دار

بينهما حوار طويل كل ما تذكره منه أنه سأله:

- مبسوط مني يا سيدي؟

فأجابه وهو مستند على عصاه:

- مبسوط يا يوسف. بس هاتبسط أكتر لو خليتك معايا على طول وخدت بالك مني.

فتح عينيه فوجد المكان من حوله يغرق في ظلام دامس لا يكسره سوى ضوء خافت يأتي من ربع قمر، ورائحة الأموات تشوّه نسيم الليل، وأصوات الضفادع تزيد توتر الأجواء. أحس في نفسه رهبة تجاوزها سريعة، فمن بين الأكاذيب التي حاول البشر إقناع أنفسهم بها أن الأموات يُخيفون أكثر من الأحياء. أدرك أنه قضى وقتا طويلا على هذه الحال بعدما تذكر أنه هنا منذ انتصاف الشمس، قام فنفض ثيابه لإزالة أثر التراب استعدادا للرحيل، لكنه أحس بعدم الحصول على كفايته من النوم، فعاد إلى الأرض مرة أخرى وواصَل.

في الصباح أيقظته طرقات شديدة على الباب الحديد، فتح عينا واحدة فإذا به أبو عبده التُربي ومن خلفه يقف إبراهيم وعبد المعبود وهانم، قام وهو يفرك عينيه ففتح الباب وعاد سريعا ليجلس في محل نومه، كان أول الداخلين إبراهيم، عاتبه قائلا:

- إنت نايم هنا يا عم يوسف واحنا قالبين الدنيا عليك؟

- قالبين الدنيا عليا ليه ان شاء الله؟ عيل تايه؟

- مش القصد. بس انت عمرك ما بت قبل كده برة السرايا.

- اللي حصل بقى. راحت عليا نومة وماصحيتش غير دلوقتي.

قالت هانم:

- وحد ينام في التُرب برضه؟ مش خايف حاجة تلبسك؟

تجاهلها فواصل إبراهيم:

- أنا جه في دماغي في الأول نيجي ندور هنا. بس لما الوقت اتأخر قلت مش ممكن هتقعد في التُرب لحد متأخر كده. روّحت ولما رجعت السرايا الصبح بلغوني إنك مارجعتش من امبارح.

كان أبو عبده ينظر بعجب شديد لحال يوسف الذي يغطي التراب وجهه وشعره ملابسه، كأنه خارج للتو من مقبرة دُفن فيها بالخطأ، ثم سأله:

- إيه اللي عاجبك في المقابر كده يا حاج؟ ده الواحد لولا أكل العيش ولا كان حتى عدى من جنبها.

- هو انتم كلكم عاملين موضوع ليه؟ كنت جاي أزور قبر البيه وغلبني النوم وخلاص. اللي عنده كلمه بقى يوفرها لنفسه.

قالها ثم قام فنفض ملابسه وتحرك ناحية الباب، فتحركوا بعده وساروا خلفه حتى وصل السراي، وصعد ناحية غرفته مباشرة دون أن يتحدث مع أحد.

استقبلت سعدية إبراهيم وهانم قائلة:

- كان في التُرب. صح؟

هزت هانم رأسها إيجابا، فواصلت سعدية:

- أنا قلت لكم. الراجل خلاص مخه اتلحس ومابقاش نافع، وبكرة يمشي في الشارع يحدف العيال بالطوب كمان. صحيح، يدي الحلق للي بلا ودان.

ردت هانم:

- اسكتي بقى والله الراجل صعبان عليا. أكيد اللي هو فيه ده غصب عنه، انتو عارفين البيه بالنسبة له كان إيه، انتو بالنسبة لكم الموضوع كان شغل وخلاص، لكن هو مولود على إيده وعاش حياته كلها مافارقهوش ولا يوم.

- أنا قلت موضوع الحج ده هيفرق معاه ويشغله عن اللي في دماغه ده، لكن الظاهر كده مافيش فايدة.

فتحدث إبراهيم في ضيق:

- خلاص بقى فضونا من السيرة دي. كل حي ينام على الجنب اللي يريحه.

دخل فهمي من الباب فوجدهم مجتمعين ويسيطر عليهم الوجوم، سألهم:

- عم يوسف فين؟

رد إبراهيم:

- فوق في الأوضة، اطلعي يا سعدية قولي له إن الأستاذ فهمي مستنيه تحت.

لكن فهمي قاطعه:

- لا لا. أنا هاطلع له الأوضة.

لكنه أحس أن بهم شيئا غريبا، فتساءل:

- انتو مالكم كلكم كده؟ فيه إيه؟

أجابت سعدية سريعا:

- أصله بات امبارح في التُرب.

استفسر:

- مين؟

فأجابت:

- عم يوسف.

جـز عـلى أسـنانه وبـدا الامتعـاض عـلى ملامحـه، وصعـد درجـات السـلم سريعـا، توقـف أمـام الغرفـة الـتي اختارهـا يوسـف لنفسـه، أطلـق تنهيـدة سـاخنة، ثـم طـرق البـاب

- عاوزين إيه؟

هكذا جاء الرد، فقال:

- أنا فهمي يا عم يوسف.

فتح الباب على الفور قبل أن ينتهي من ارتداء الجلباب:

- أهلا أهلا. اتفضل. تعبت نفسك وطلعت ليه؟

- إنت صحيح نمت امبارح في المقابر؟

أكمل ارتداء جلبابه، وقال:

- كنـت عـارف انهـم سـاعة مـا يشـوفوك هيقولـوا لـك علشـان يقلبـوك عليـا.

- ولما انت عارف إنه يزعّل بتعمله ليه بس؟

- الموضـوع مـش كـده. أنـا ماكانـش قصـدي أنعـس هنـاك، أنـا بـس بعـد مـا جيـت رحـت أزور قـبر البيـه علشـان كان بقـى لي كتـير مازرتـوش، ومـن كـتر التعـب راحـت عليـا نومـة هنـاك. بـس هـي دي الحكايـة.

- طيـب وليـه أصـلا تبقـى راجـع مـن بيـت ربنـا وأرض النـبي وتيجـي

جـري عـلى الـتُرب؟ اقعـد خـد نفسـك وريـح جسـمك والقـبر موجـود مـش هيطير.

- إنـت صـح وانـا غلطـان، ولـو عـاوزني أبـوس إيـدك كمـان أبوسـها، إنـت مـش عـارف انـت غـالي عنـدي ازاي.

- أسـتغفر الله العظيـم ماتقولـش كـده، أنـا كل الـلي يهمـني مصلحتـك وإنـك تعيـش كويـس وماتخليـش الـلي يسـوى والـلي مايسـواش يألّـس عليـك.

- بـس تعـرف؟ أنـا مانمتـش مرتـاح مـن سـاعة مـا البيـه مـات زي مـا نمـت ليلـة امبـارح، مادريتـش بالـلي حواليـا غـير لمـا جُـم صحـوني الصبـح، وصحيـت في نـص الليـل وكملـت نـوم تـاني، يـا سـلاااام، كانـت متعـة.

هز فهمي رأسه يائسا فانتبه يوسف لتململه، ولحقه بسؤال:

- إنمـا انـت إيـه الـلي جابـك بسرعـة كـده؟ أنـا قلـت هتقعـد كام يـوم ماتجيـش علشـان تشـوف شـغلك وتقعـد مـع أهلـك.

- علشـان بافكـر فيـك يـا سـيدي، وفيـه حاجـة جـاي آخـد رأيـك فيهـا.

- خير ان شاء الله.

- إحنا اتفقنا في الحج إننا بعد ما نرجع نشوف موضوع الجواز.

- لا ماتفقنـاش. إنـت الـلي قلـت. بـس انـا قلـت لـك اني قافـل الموضـوع ده بالضبـة والمفتـاح.

واصل وكأنه لم يسمع تعقيبه:

- فيـه واحـدة قريبـة مـراتي معديـة التلاتـين وفايتهـا قطـر الجـواز، بـس غلبانـة ومنكسرة وبنـت نـاس كويسـين ومالهـاش صـوت، ده غير

انها كمان شكلا مش وحشة، لما اتكلمت مع مراتي في موضوعك قالت لي انك ممكن تتجوزها وتبقى كسبت فيها ثواب وستّرتها من ناحية، ومن ناحية تانية تاخد بالها منك وتراعيك وتلاقي حد يسليك وينسيك اللي في دماغك ده، وأدينا كمان يا عم نبقى نسايب.

سكت طويلا بينما المحامي يحاول قراءة تعبيرات وجهه، ثم قال:

- ما تعفيني يا أستاذ فهمي بالله عليك من الموضوع ده. أنا راجل كبير والجواز ماعادش يلزمني، وحرام أجيب واحدة أظلمها معايا.

- طيب بالله عليك انت تبطل موضوع أنا راجل كبير ده، علشان انت صحتك ما شاء الله زي البمب، وبعدين انت دايما بتشتكي إنك حاسس بالغربة ومافيش حد قريب منك وبيحبك، ليه بقى لما تجي لك الفرصة ترفضها؟

- لا والله ما هو أنا ماعدتش بازهق زي الأول، وبقيت باخرج وبافك.

- بتفك في المقابر، صح؟

سكت مجددا، فتابع فهمي حديثه:

- بص يا عم يوسف. أنا مش شغال معاك علشان الفلوس، أنا شغال علشان بجد والله حاسس بمسؤولية ناحيتك، وعلى فكرة أنا شايل عنك بلاوي ومش باقول لك كل حاجة، اللي انت ماتعرفوش ان قرايب البيه مثلا رافعين ضدنا قضايا وعاوزين ياخدوا الفلوس، ولما موضوع التُرب ده اتعرف في البلد وصل

لهـم، وعرفـت إنهـم بيفكـروا يطعنـوا في قـواك العقليـة علشـان يبوظـوا الموضـوع مـن أساسـه، وموضـوع الجـواز ده هيفـرق كتـير لصالحنـا. خليـني أحـس إن ليـا لازمـة وباعـرف أقنعـك بالصالـح، وإلا بقـى أسـيب الشـغل معـاك واعمـل الـلي انـت شـايفه صـح لنفسـك.

أحس بحرج بالغ فقال:

- بـص يـا أسـتاذ فهمي. أنـا مايهمنيـش الفلـوس أصـلا ولـو راحـت كلهـا مـش هازعـل لحظـة، بـس انـا هاعمـل الـلي انـت عـاوزه علشـان مـش عـاوز أزعلـك بعـد كل الـلي عملتـه معايـا.

تهلل وجه المحامي وقال:

- كـده يبقـى اتفقنـا. هارتـب معاد قريب علشـان تشـوف العروسـة، لـو عجبتـك نحـدد معـاد الفـرح ونتـوكل عـلى الله، ولـو ماعجبتكـش نشـوف غيرهـا، والبنـات عـلى قفـا مـن يشـيل.

ثم قام مستعدا للرحيل وربت على كتفه قائلا:

- مبروك يا عريس.

خـرج مـن البـاب تـاركا الرجـل كأن عـلى رأسـه طـيرًا، يشـعر بأنـه وضـع نفسـه في ورطـة بموافقتـه هـذه، لكنـه أيضـا مـا كان لـيرد طلـب الرجـل الوحيـد الـذي يقـف بجـواره ويسـدي إليـه الخدمـات تباعًـا منـذ وفـاة البيـه، ناهيـك بـأن الفتـاة الـتي يرشـحها قريبتـه ولذلـك سـيكون الرفـض مهينًـا. في الموعـد المحـدد اصطحبـه فهمـي إلى حيـث تسـكن أسرة الفتـاة في قريـة أريمـون القريبـة مـن قريتـه، جلـس مـع والدهـا الـذي يبـدو في نفـس عمـره واضعـا رأسـه في الأرض لا يعـرف مـا يمكنـه قولـه في مثـل هـذا الموقـف، دخلـت الفتـاة تحمـل الشـاي ومـن خلفهـا والدتهـا، خجـولاً هادئـة الملامـح

مقبولة الشكل، وضعت الصينية على المنضدة وألقت السلام ثم خرجت سريعا.

تعلق بصر فهمي به ليقرأ المكتوب على وجهه، وعندما التقت العينان هز له رأسه مستفهما ليعرف رأيه، فهز هو رأسه إيجابًا، ظهرت على وجه المحامي ابتسامة عريضة، ثم قال لوالد الفتاة:

- باقول لك يا حاج غيث. الحاج يوسف كان عاوز يفاتحك في موضوع كده يخص سعاد.

ضغط بيد على الأخرى ليتماسك ثم خرجت منه الحروف بصعوبة:

- إحنا ان شاء الله جايين نتقدم للمحروسة بنتك ونطلبوا إيدها، وبإذن الله ربنا يكتب لنا الخير.

انصرفا بعدما طلب الوالد مهلة للتفكير يعرف أنها مجرد مهلة صورية، لأن فهمي بالتأكيد أخبره بكل شيء. هذا يعني أنه سيتلقى الموافقة خلال أيام قليلة وسيصبح عليه أن يتعامل مع هذا الواقع، لكن لا يعرف كيف، فعلاقته بالجنس الآخر أصلا محدودة للغاية قد تصل لدرجة العدم، لا يذكر حتى إن امرأة أثارته جنسيا لأن حياته التي كانت كلها داخل السراي لم تسمح له بخوض مغامرات مع النساء ولا حتى مجرد رؤيتهن. يتذكر جيدا عندما كان في السادسة عشرة من عمره وكان الباشا الكبير يستضيف أسرة أحد أقربائه ومنهم فتاة عشرينية شديدة الجمال، اختلس بعض النظرات إليها لكن لسوء حظه رآه الباشا فقام أمسكه من أذنيه وصفعه على وجهه وأدخله إلى والده قائلا:

- علـم ابنـك عينـه ماتتشـالش مـن عـلى الأرض طـول مـا عندنـا ضيـوف، ولـو كان فاكـر نفسـه خـلاص بقى راجـل أنـا ممكـن أخصيه.

ثـم خـرج وتركـه لوالـده الـذي انهـال عليـه ضربـا ولكمـا وتـرك عـلى جسـده علامـات بألـوان حمـراء وزقـاء، ومـن وقتهـا أصبـح التفكـير الجنـسي عنـده مرتبطـا بهـذه الواقعـة وأصبـح يـصرف نظـره تلقائيـا عـن أي فتـاة زائـرة، معرفتـه الأخـرى بالنسـاء تقتصر عـلى العاملات في الـسراي وجميعهـن كـن متزوجـات، بجانـب أن ملامحهـن وأجسـادهن لـم تكـن تشـجع عـلى التفكـير فيهـن جنسـيا. الأمـر إذن صعـب مـن كل الاتجاهـات، سـن لا تسـمح، خـبرة تقـترب مـن الصفـر، ذكريـات سـلبية، وقلـب يسـكن المقابـر.

بعـد أيـام حمـل إليـه فهمـي خـبر الموافقـة المتوقـع، وأخـبره بـأن عقـد القـران سـيكون بعـد ١٠ أيـام، والدُخلـة بعـد شـهر. تظاهـر بالسـعادة، وأخـبر المحامـي كل العاملـين في الـسراي بالخـبر ليجهزوهـا لاسـتقبال العـروس، هنـأوه وأطلقـت الخادمـات الزغاريد، وهـو مضطـر لرسـم ابتسـامة كاذبـة عـلى وجهـه حـتى لا يلحـظ أحـد اضطرابـه. في الزيـارة اليوميـة للمقابـر أخـبر سـيده بـكل شيء، تذكـر عندمـا عـرض عليـه الـزوج في الحلـم فقـال لـه: «الجـواز لـلي في سـني فضيحـة»، وكأن سـيده استشـعر مـا هـو مقبـل عليـه وكان يحـذره منـه، حدّثـه عـن ورطتـه الـتي بـات فيهـا، فالتراجـع عـن الاتفـاق يجعلـه يخـسر محاميـه للأبـد، وإتمامـه يجلـب الفضيحـة ويضـع في عنقـه مسـؤوليات هـو في غـنى عنهـا، والأهـم أنـه يجعـل التزامـه بالمجـيء إلى هنـا يوميـا محـل شـك.

في اليـوم الموعـود جـاء فهمـي ليأخـذه مـن الـسراي ويذهـب به إلى بيـت العروسـة لعقـد القـران لكنـه لـم يجـده، أخـبره الخـدم أنهـم

صعـدوا إليـه صباحـا لإيقاظـه فلـم يجـدوه في غرفتـه ولا في المـنزل كلـه، اتجهـوا جميعـا نحـو المقابـر، لكنهـم لـم يجـدوه فانصرفـوا، خـرج هـو مـن خلـف مقـبرة كان يختـبئ خلفهـا لأنـه يعـرف أن أول خطـوة سـيقومون بهـا هـي المجـيء إلى هنـا للبحـث عنـه، وبعـد أن غابـوا عـن الأنظـار تمامـا خـرج ففتـح بـاب الحـوش، دخلـه، وأغلـق البـاب خلفـه.

- بس يا سيدي. ومن ساعتها فضل قاعد في الحوش. جاله فهمي بعدها هزأه طبعا لأنه خلّى رقبته زي السمسمة قدام أهل البنت، فقاله إنه مش عاوز حاجة من الفلوس اللي سابها له البيه، وقاله إنه بس عاوز يبني منها جامع على أول طريق التُرب، والباقي وزعه على الخدامين اللي شغالين في السرايا وقال إنهم أولى بالفلوس منه علشان يعيشوا حياتهم الجاية مرتاحين ويدعوا له، وكتب حاجات كتير باسم المحامي علشان يكافؤه على اللي عمله معاه ويعوضه عن الكسفة اللي كسفها له.

ومن ساعتها فضل زاهد وعايش في حوش البيه بيرعاه وبيسقي الزرع وبيكلم البيه كأنه قاعد قدامه، وبقى اللي يروح التُرب يعطف عليه بلقمة عيش وحتة جبنة ولا شوية قرص، لحد ما مات بعدها بـ٨ سنين واندفن في التُربة اللي انت شفتها جنب الحوش.

قالها عمي مبديا تأثره وضامّا شفتيه، فسألته:

- طيب وإيه اللي بيخلي أهل البلد متعلقين بيه كده وبيزوروا قبره وعاملينه كأنه مقام؟

- علشان زاهد وولي من أولياء الله. ساب الدنيا باللي فيها والفلوس المتلتلة اللي كانت عنده، وبعد ما عاش حياته كلها صابر على الابتلاءات والمصايب نهاها وهو مع الله.

- مع الله ولا مع مراد؟

- لا يـا فالـح مـع الله. مـع الآخـرة. مـراد بالنسـبة لـه كانـت حاجـة بتفكـره بالآخـرة وبـإن الدنيـا فانيـة. وعلشـان كـده مـن سـاعة مـا راح الحـوش عـاش حياتـه كلهـا في صـلاة وعبـادة، وحفـظ سـور كتـير مـن ترديدهـا ورا المقرئـين الـلي بيروحـوا يقـروا عـلى الميتـين.

- مـا هـو ده الـلي جايـب البلـد دي لـورا ومخـلي مـبروك راكبهـا ومدلـدل رجليـه، فاكريـن العبوديـة زهـد، عاملـين مقـام لواحـد مـا قـدرش يعيـش حياتـه كويـس فوهبهـا كلهـا لواحـد تـاني وهـو حـي وهـو ميـت!

- أنـا عـارف انـك هتقـول كـده، أصـل جيلكـم ده فاكـر الحيـاة كلهـا مـادة وبـس، ماتعرفـوش حاجـة عـن الروحانيـات وماتفهموهـاش. ماتعرفـوش يعـني إيـه واحـد يبقـى عنـده ولاء لواحـد لـه فضـل عليـه ويفضـل مخلـص لـه حـتى بعـد مـا يمـوت.

تدخل هيثم في الحوار قائلا:

- سـيبك مـن ده كلـه، أنـا بقـى ليـا عنـدك مفاجـأة هتذهلـك. إنـت عـارف زكريـا إبراهيـم نائـب الدايـرة الـلي قلـت لـك قبـل كـده إنـه بيسـاعد العمـدة وبيغطـي عـلى كل بلاويـه؟

- آه فاكره. ماله؟

- أهو ده بقى يبقى ابن إبراهيم طباخ البيه.

- إنت بتهزر؟

- لا والله زي مـا باقـول لـك كـده. بعـد مـا أبـوه خـد الحاجـات الـلي كتبهالـه يوسـف سـاب البلـد وراح بلـد تانيـة جنبنـا بـنى بيـت كبـير واشـترى أرض وعـاش عيشـة الأعيـان، وابنـه ورثهـا عنـه ونجـح في الانتخابـات بعـد مـا صرف فيهـا فلـوس مالهـاش عـدد. ومـش هـو

بـس، كل ولاد الخدامـين دول وأحفادهـم كمـان بهـوات دلوقـتي، منهـم الـلي عايـش في مـصر ومنهـم الـلي في كفـر الشـيخ، بـس مافيهمـش ولا واحـد عايـش هنـا في البلـد.

- طبعا. مش عاوزين حاجة تفكرهم بالماضي.

- الله ينور عليك.

- بس صحيح السرايا بقت بتاعة مين؟

رد عمي:

- لا مابقتـش بتاعـة حـد. يوسـف مـن كـتر إخلاصـه للبيـه مارضيـش يبيعهـا ولا يكتبهـا لحـد، وفضلـت مقفولـة سـنين لحـد مـا طلعـت إشـاعات إنهـا مسـكونة بالعفاريـت وبقـت النـاس تخـاف تعـدي مـن قدامهـا. وبعـد مـا مـات يوسـف بسـنين الأوقـاف خدتهـا ولسـة يـا دوب هدّاهـا مـن كام سـنة بعـد مـا بقـت حتـت بتقـع منهـا.

في غضـون شـهور أصبحـت عيـادتي مزدحمـة بالمـرضى، ذاع صيـتي في القريـة والقـرى المجـاورة كطبيـب ممتـاز، حـتى إن مـرضى كثيريـن أصبحـوا يأتـون خصوصًـا مـن مدينـة كفـر الشـيخ رغـم أن بهـا عـشرات الأطبـاء في تخصـصي، بـل وطلبـوا مـني أيضـا أن أفتـح عيـادة جديـدة بجانـب عيـادتي تلـك عـلى أن أقسـم الأيـام بينهمـا، غـير أني لـم أحبـذ فكـرة تـرك القريـة يومـين كاملـين إضافـة إلى اليـوم الآخـر الـذي أقضيـه في القاهـرة. كنـت أراقـب العمـدة وهـو يتحـرك في القريـة بـين خفـره ورجالـه مختـالا، زاده مـا فعلـه مـع سرحـان ثقـة في نفسـه وأصبـح يشـعر بأنـه قـادر عـلى أن يفعـل مـا يشـاء فيمـن يشـاء وقتمـا شـاء.

بـات تعاملـه مـع النـاس أكـثر فجاجـة وعُدوانيـة مـن ذي قبـل، كان

يسير في أحد الشوارع حين رأى فلاحًا يمتطي حمارًا ويمر بالقرب منه، أمر خفره فأنزلوه عن الحمار وجاءوا به إليه، مسكه من قفاه وقرّب رأسه منه وقال:

- لما تعدي من قدام العمدة من باب الاحترام إنك تنزل من على حمارك وماتعديش قدامه راكبه.

- بس يا حضرة العمدة احنا طول عمرنا بنركب حميرنا قدامك عادي وعمرك ما طلبت مننا طلب زي ده.

- وأديني باطلب آهو. ومش انت بس، أهل البلد كلهم لازم يعرفوا كده، اللي يكون راكب حمار ويشوفني ينزل من عليه، واللي راكب عجلة أو موتسيكل برضه ينزل من عليه لحد ما أعدي أو هو يعدي، ولما مايبقاش شايفني خالص يبقى يركب الحمار الحمار يركبه هم أحرار مع بعض.

كتم الفلاح غيظه لأن إظهاره مخاطرة غير مأمونة العواقب، ثم ابتلعه وقال:

- اللي تشوفه يا عمدة.

أثارت هذه الواقعة استياء الناس وأحسوا بأن جنون العظمة تمكن من مبروك، لكنهم رغم ذلك التزموا بتعليماته وأصبحوا بالفعل يترجلون متى رأوه، زوار العيادة لم يعد لهم حديث سوى أفعاله، الغريب أنهم كانوا يشتكون فقط دون أي تفكير في تغيير الوضع، وأنا كنت أسمع فقط دون أن أصارحهم بما في نفسي تجاههم قبل أن يكون تجاهه. يوسف عبد الميت أيضا كان ضيفا دائما على العيادة، سيرته تأتي على لسان كثير من المرضى كلما بحثوا عن شيء يبرر استسلامهم لهذا الوضع،

يعتبرونـه ابتـلاء كابتـلاء يوسـف، ويمكـن التغلـب عليـه بالزهـد في الدنيـا كمـا فعـل هـو.

أصبحـت لقـاءاتي بأصدقـائي في العيـادة في غـير أوقـات عملهـا دوريـة ومتكـررة، يزيـد المشـاركون مـرة تلـو الأخـرى، تحولـت إلى مـا يشـبه ملتقـى شـبابي يجمـع كل شـباب القريـة المتعلمـين، وهـم بخـلاف أهلهـم كانـوا لا يشـتكون فقـط مـن جنـون مـبروك بـل يفكـرون في طريقـة يواجهونـه بـه، وتؤلمهـم إهاناتـه المتكـررة لآبائهـم وأقاربهـم.

لكـن المواجهـة أيضـا لـم تكن سـهلة ولا واضحـة المعالـم، فالرجل فعـلا يملـك نفـوذا كبـيرا يقـوّي قلبـه، ويملـك إلى جانـب النفـوذ مسـاحات كبـيرة مـن الأراضي تتجـاوز نصـف المسـاحة الكليـة لأراضي القريـة، وهـي مصـدر الـرزق الأول لمئـات الأسر ممـن يعملـون فيهـا أو يسـتأجرونها منـه، كمـا لا يرغـب السـواد الأعظـم مـن الأهـالي في المخاطـرة بمعاداتـه أو الدخـول في خصومـة معـه، وهـذا يجعـل يـد الشـباب مغلولـة لأنهـم لا يسـتطيعون فعـل شيء وحدهـم.

- إيـه رأيكـم نعمـل صفحـة عـلى فيـس بـوك نعـرف النـاس فيهـا بقصـة سرحـان؟ ودي ممكـن تسـمّع بـرة دايرتنـا الصغـيرة بتاعـة البلـد، زائـد إن مـش سـهل يتعـرف مـين الـلي عاملهـا.

اقـترح وليـد الطالـب بالفرقـة الرابعـة بكليـة الهندسـة علينـا ذلـك في اليـوم التـالي لصـدور حكـم ضـد سرحـان بالحكـم المشـدد عـشر سـنوات، لاقـت الفكـرة استحسـان الجميـع وذكّرتهـم ببدايـات صفحة «كلنـا خالـد سـعيد» قبـل الثـورة، وإن كان بالطبـع هنـاك اختـلاف كبـير بـين الحالتـين. في نفـس الجلسـة أخـرج وليـد هاتفـه المحمـول وأنشـأ الصفحـة بالاسـم الـذي توافقنـا عليـه «حـق سرحـان»، وكتبنـا

فيها قصته كاملة وما فعله العمدة به وتلفيق اتهامات باطلة إليه بمشاركة وصمت من جهات مسؤولة، وإجباره على الاعتراف بها بعد تهديده بأهله.

اتفقنا على ألا نقوم بمشاركة أي شيء من الصفحة على صفحاتنا الشخصية حتى لا نلفت نظر مبروك، وأرسلناها إلى أصدقائنا في العمل والدراسة لكي يبدأوا بنشرها على صفحاتهم، كما أرسلناها لعدد من النشطاء الذين تحظى صفحاتهم بمتابعة كبيرة ونشرها بعضهم بالفعل، وخلال أيام حظيت الصفحة بآلاف الإعجابات والمشاركات والتعليقات، وبدأت حملات للتضامن مع سرحان باعتباره رمزا للظلم اليومي الواقع على الفقراء والمجهولين.

انتظرنا بشغف ردود الأفعال من جانب العمدة، لكن أول رد فعل جاء من النائب زكريا، تقدم بطلبات إحاطة في البرلمان لوزراء الاتصالات والداخلية والعدل، يستنكر فيها السماح لصفحات مشبوهة بالإساءة لجهات التحقيق واتهامها بالتلفيق دون دليل، وزعزعة ثقة المواطنين في منظومة العدالة، وطلب من وزارة الاتصالات سرعة التحرك لتحديد المسؤولين عن الصفحة، ومن الداخلية القبض عليهم لمحاسبتهم على هذه الأكاذيب، وزعم أنه حضر هذه القضية من أول يوم لأنها حدثت في دائرته، ويعرف كل تفاصيلها ويثق تماما في أن كل إجراءاتها اتُخذت بشفافية وحياد.

أثار ذلك توتر الأصدقاء، شعروا بأنهم قد وقعوا في خطر حقيقي وقد يلحقون بسرحان في زنزانة مجاورة بدلا من أن يخرجوه، واقترح محمود وهو طبيب بيطري شاب التحق بجلساتنا مؤخرا إغلاق الصفحة، لكن الجميع رفض ذلك لأنه

سيؤكد مزاعم زكريا وفي نفس الوقت لن يمنع الوصول للمسؤولين عنها. وليد كان الأكثر هدوءا رغم أنه من أنشأ الصفحة من على هاتفه الشخصي، أكد أن الأمر سيتوقف عند هذه النقطة ولن يتم اتخاذ أي إجراء بعدها لأن مطالب النائب ليست جادة ولا حقيقية، هو أراد فقط أن يخلق توازن رعب ليكون الناس أمام روايتين ومع الوقت تتوه الحقائق وتتداخل الشهادات، وإمعانا في إثبات وجهة نظره أخرج هاتفه وكتب منشورا جديدا كذّب فيه رواية زكريا وقال إنه لم يكن موجودا في كفر الشيخ كلها في الأيام الثلاثة الأولى لحدوث الواقعة، ودخل على صفحته وأخرج صورا نشرها النائب لنفسه من داخل المجلس خلال هذه الأيام.

مرت الأيام تباعا دون أن يحدث أي تطور جديد، فلا أحد تحرك لإعادة التحقيق في قضية سرحان، ولا أحد تحرك لمعرفة القائمين على الصفحة كما طلب النائب، وفتر اهتمام الناس بالقضية مع الوقت، وانشغلت مواقع التواصل الاجتماعي بأشياء أخرى في السياسة والرياضة والفن، تسبب ذلك في إحباط شديد للأصدقاء الذين تحمسوا بشدة عندما رأوا رد الفعل الكبير في البداية. من جانبي حاولت التهوين عليهم بالتأكيد على أنها معركة طويلة الخصم فيها ليس سهلا، وبأنهم خرجوا بمكاسب كبيرة من هذه القضية أهمها أن الناس عرفوا اسم القرية وعمدتها وما حدث فيها، لذلك سيفكر مبروك كثيرا قبل أن يفعل شيئا كالذي فعله مع سرحان لأنه سيتم الربط وقتها بين الحادثتين، وهو ذكي وسيدرك ذلك جيدا.

-٣٥-

بعـد أسـبوع قضيتـه في القاهـرة، للاحتفـال بـزواج آيـة، عـدت وأمي إلى القريـة لأجـد خـبرا سـيئا في انتظـاري، سـيارة مسرعـة صدمـت وليد بعـد نزولـه مـن سـيارة الميكروبـاص عـلى مدخـل القريـة، تـم نقلـه إلى المستشـفى مصابًـا بكسـور وجـروح عديـدة ثـم عـاد بعـد ثلاثـة أيـام إلى المـنزل، عاتبـت هيثـم بشـدة لأنـه لـم يبلغـني بمـا حـدث، فقـال إنـه لـم يـرد إفسـاد فرحـتي بـزواج أخـتي. ذهبنـا معـا لزيارتـه في منزلـه فقابلهنـا بابتسـامة عريضـة دون أن يقـدر عـلى القيـام مـن فراشـه، احتضنتـه بشـدة ثـم جلسـت عـلى المقعـد المجـاور لـه وسـألته:

- إيه اللي حصل يا وليد؟

رد ضاحكا:

- زي ما انت شايف، اتروقت.

- هو طبعا اللي وراها.

- ممكن، وممكن قضاء وقدر.

- قضاء وقدر ازاي يعني؟ اشمعنى دلوقتي وانت بالذات؟

- في كل الأحـوال كويـس انهـا جـت عـلى قـد كـده. أي نعـم رجـلي اليمـين بايظـة وكلهـا شرايـح ومسـامير وهبقـى الباشـمهندس الأعـرج، بـس عـلى الأقـل أديـني لسـه عايـش.

- يعني هنسكت؟

- وفي إيدينا إيه نعمله؟ هنعمل صفحة تانية نسميها «حق وليد»؟

- لأ، بس على الأقل نحاول نرد له القلم بحاجة توجعه.

- مش هينفع نحارب لوحدنا يا دكتور، مش هينفع نعرض حياتنا كلنا للخطر علشان ناس مش فارق معاها اللي بيحصل وعارفين يكيفوا حياتهم عليه.

- لأ، إنت عارف كويس إنهم متضايقين، بس عندهم مِيت سبب يخليهم يرضوا باللي هم فيه أو يخافوا يحاولوا يغيروه.

قاطعني هيثم:

- خلاص بقى يا خالد. زي ابويا ما قال لك، مش بطولة انك تقف قدام قطر.

- ولا بطولة إنك تبقى شايفه جاي عليك وتفضل واقف، مش هتعرف تنقذ نفسك إلا إذا اتحركت.

- بالظبط، يعني تجري منه.

- مهما جريت منه هو أسرع منك، إنت عارف كويس انه ماكانش بيفتري قبل كده على الناس علشان محتاج فلوسهم ولا أرضهم، هو بيعمل كده لأنكم لما جريتوا عليه علشان يحميكم من بعض وسكتّوا على ظلمه لناس منكم عجبته اللعبة وبقى بيظلم لمجرد الظلم، وعلشان يستمتع وهو بيمارس سلطته عليكم، وأخطر حاجة لما السلطة والمال يبقوا في إيد شخص واحد.

- طيب والحل إيه؟

- نحرر الناس من خوفهم منه لأن كل ما خوفهم بيزيد كل ما

جنانـه كمـان بيزيـد، نعرّفهـم إن يوسـف عبـد الميـت مـش ولي ولا زاهـد، ده واحـد كان عبـد غصـب عنـه، ويـوم مـا لقـى فرصـة يتحـرر ويبقـى سـيد، رجـع بمحـض إرادتـه واختـار يكـون عبـد لشـوية تـراب.

- وهتعرفهم ده ازاي؟

سـكت لأنـني فعـلا لـم أكـن أعـرف كيـف يمكـن أن نفعـل ذلـك، فعـاد وليـد ليشـارك في الحـوار وقـال:

- صعب يا دكتور، صعب جدا، على الأقل دلوقتي.

- إيـه يـا ابـني انـت اتعديـت مـن هيثـم؟ ده انـت كنـت أكـتر واحـد متفائـل فينا.

- وأديـني خـدت جـزائي. أصلهـم في بلدنـا ممكـن يسـامحوا القاتـل، لكـن مسـتحيل يسـامحوا المتفائـل.

هززت رأسي في ضيق، فتابع وليد:

- مـش باقـول انـه مـش هيحصـل، مِيّـة في المِيّـة هيحصـل، لأن الوضـع ده مسـتحيل يكمـل، بـس أكيـد مـش دلوقـتي

سـلّمت عليـه واسـتأذنته في الانـصراف وخرجـت مـع هيثـم، فقابلنـا عمّـي عاطـف في الطريـق:

- شفتوا الراجل المجنون؟

- مبروك؟

- وهو فيه غيره؟

- ماله تاني عمل ايه؟

- سـحب الأراضي مـن كل النـاس الـلي مأجـر لهـم وسرّح كل الفلاحـين الـلي شـغالين عنـده باليوميـة وهيجيـب عمالـة مـن بـرة

البلـد.

- وازاي يسحب أراضي مأجرها لناس؟ مش المفروض فيه عقد؟

- لا يـا حبيـبي ماحـدش يسـتجري يطلـب مـن مـبروك عقـد إيجـار، هـو بيأجـر الأرض بكلمـه، ودلوقـتي سـحبها بكلمـة، والنـاس كلهـا هتتجـنن مـش عارفـة تعمـل إيـه.

- وليه كل ده؟

- قـال لهـم أصـل انـا وحـش ومـش بحترمكـم، روحـوا بقـى لحـد حلـو يحترمكـم ولا أكلـوا ولادكـم احـترام، فـكل الفلاحـين راحـوا لـه وقعـدوا يبوسـوا في إيـده ورجلـه عشـان مايقطعـش عيشـهم ويقولـوا فيـه شـعر كأنـه عمـر بـن الخطـاب، وقالـوا لـه الـلي يقـول عليـك كلمـة وحشـة نقطـع لسـانه.

نظر هيثم إليّ ضاحكا وقال:

- خللي بالك بقى من لسانك الفترة الجاية.

أشحت له بيدي ثم واصل حديثه إلى عمه:

- والبيه بقى عمل إيه؟ عفى عنهم ولا لسه؟

- قـال لهـم هابقـى ارد عليكـم خـلال أسـبوع. عـاوز يأدبهـم ويـدوس بجزمتـه عـلى رقبتهـم أكـتر وأكـتر. إنـت رايـح فـين كـده؟ مـا تيجـي تـشرب معايـا الشـاي.

- لا ماعلـش يـا عمـي، بقـى الي كتـير مافتحتـش العيـادة وعنـدي كـذا حجـز النهـارده.

- ماشي يا ابني، ربنا يقويك.

انـصرف عمـي، ثـم تركـني هيثـم أيضـا لقضـاء بعـض المشـاوير،

وذهبت إلى العيادة التي كان بها عدد من المرضى. دخلت غرفة الكشف وأدخَل أحمد المريض الأول، وبعدها بخمس دقائق سمعت صوت فوضى بالخارج، ثم اقتحم الغرفة ضابط برتبة رائد ومعه عدد من العساكر طلب منهم تفتيش الغرفة، سألته عن السبب فقال إنهم تلقوا بلاغا ضده ومعهم إذن نيابة بالتفتيش.

خرج جميع المرضى من العيادة باستثناء المريض الذي أكشف عليه بناء على طلب الضابط، استخرج العساكر من الدولاب كمية كبيرة من الأقراص والأمبولات المخدرة وضعها الضابط على المكتب وسألني: إيه ده يا دكتور؟ وقبل أن أجيب سمعت صوت طرقات على باب العيادة، ودخل مبروك متسائلا ببراءة:

- خير يا دكتور فيه إيه؟ خير يا حضرة الظابط؟

- لقينا عند الدكتور مخدرات يا عمدة.

- مخدرات؟ ده كلام برضه يا دكتور؟ يعني بدل ما تعالج الناس تإذيهم؟ لا لا مايصحش خالص والله.

تابعت الحوار مبتسما، ثم أمر الضابط العساكر والمريض بالخروج وإغلاق الباب خلفهم:

- طلباتك يا عمدة.

قلتها وأنا محافظ على هدوئي وابتسامتي، فرد مبروك ضاحكا:

- ياه أخيرا قلتها وماعدتش بتقول لي يا حاج؟ بس والله طالعة من بقك زي السكر.

ثم صمت لثوان ليزيل بقايا الضحك من على وجهه، واستكمل:

- امشي، امشي يا دكتور، ارجع مطرح ما جيت.

- ليه؟

- وده سؤال برضه يا راجل؟ احنا كان بيننا اتفاق وانت خالفته، جمعت لي شباب البلد وعملت لي العيادة مجلس قيادة الثورة وكنت عاوز تإذيني في موضوع سرحان وعملت لي صفحة على النت، مع إني شرحت لك الموضوع مرة واتنين وعرّفتك ده حصل ليه. أظن بقى مش هاستنى لما تطربق البلد على دماغي ومن حقي أدافع عن نفسي.

- بس معلوماتك غلط. مش أنا اللي عملت الصفحة.

- لا ما انا عارف كويس مين اللي عملها، ربنا يشفيه بقى ويقوّمه بالسلامة، بس اتعملت هنا عندك وانت خططت الموضوع وبعته لكذا مكان علشان يتنشر، أصل كان فيه اتنين من حبايبي معاكم في القعدة دي وعرّفوني كل واحد قال إيه وعمل إيه وهرش كام مرة ولا مؤاخذة هرش فين، ما هو أنا ليا حبايب برضه من سنكم، أومال إيه، لازم أشجع الشباب. بس انا طلعت أحسن منك، وباديك فرصة تختار أهو، تسيب البلد في ظرف أسبوع وتروح لحال سبيلك الله يسهل لك، أو حضرة الظابط يكمل إجراءاته وياخدك معاه؟ أظن دي فيها شطب من النقابة وسجن وبهدلة. فيها كام سنة دي يا حضرة الظابط؟

- لو قاضي حنين هيديله ٧ سنين بس.

- هيه يا سيد الناس، اخترت إيه؟

نظرت إلى الظابط ثم إليه، وقلت:

- إنت عارف يا عمدة اخترت إيه.

- الله ينـور عليـك، ده كلام العقـل، سـيبني أنـا وأهـل البلـد نتصرف مـع بعـض، أنـا راضي وهـم راضيـين، ماتبقـاش حـشري انـت بقـى وتحـط مناخـيرك في الـلي مالكـش فيـه.

أشرت إلى الأقراص والأمبولات، ووجّهت حديثي للضابط:

- طب والبلاغ والحاجات دي يا باشا هتعملوا فيها إيه؟

استبق مبروك رد الضابط وقال:

- بـلاغ كيـدي. حـد غـيران منـك وحـب يشـوشر عـلى العيـادة. أمـا الحاجـات دي فهاخدهـا دلوقـتي وأطلـع بيهـا في شـنطة ويـا دار مـا دخلـك شر.

- بس كان فيه عيان حضر كل حاجة

- لا ماتقلقش، ده تبعنا.

قالهـا ثـم ضحـك هـو والضابـط، وقبـل أن يهمـا بالانـصراف التفـت لي وقـال:

- أسـبوع يـا دكتـور، أنـا مـش محتـاج آخـد منـك ضمانـات، الـلي شـفته مـني أكـبر ضمانـة إنـك مـش هتخلـف وعـدك المـرة دي.

أشرت برأسي إيجابا، وقبل أن يخرج سألته:

- مش هتقول لي مين اللي حط الحاجة دي هنا.

التفت مجددا وأجاب:

- مـش هاقـول لـك، بـس هنصحـك نصيحـة تكمـل بيهـا حياتـك. ماتديـش ضهـرك لأي حـد، حـتى لـو كان بيـاكل معـاك في طبـق واحد.

-٣٦-

أخـبرت أمـي بأمـر عودتنـا إلى القاهـرة، غضبـت بشـدة مـن اسـتخفافي بهـا واتخـاذي قـرارات دون الرجـوع إليهـا، كأنهـا إحـدى حقائـبي، تركتهـا تنفـس عـن غضبهـا المسـتحق لأني أعـرف أنهـا في النهايـة سـتفعل مـا طلبتـه منهـا، لـم أخـبر أحـدا بمـا حـدث، حـتى هيثـم عندمـا سـألني عـن أمـر اقتحـام العيـادة أخبرتـه بأنـه كان بلاغـا كيديـا مـن مجهـول بـأني أعمـل دون ترخيـص وانتهـى الأمـر، لـم أرغـب في أن أكـون سـببا آخـر لمزيـد مـن الخـوف في قلوبهـم، فشـلت في مسـاعدتهم عـلى التخلـص مـن عمدتهـم المجنـون لكنـني عـلى الأقـل جمعتهـم وأثـرت في أذهانهـم أفـكارا مـا زارتهـم قبـلا، حتمـا سـتتحول هـذه الأفـكار يومـا مـا إلى واقـع بتبـدل الظـروف أو بتغـير الجيـل، وسـتطوي القريـة صفحـة مـبروك آجـلا أو عاجـلا، فلـن يكـون عمـدة قريـة صغـيرة بكفـر الشـيخ أعـز عـلى التاريـخ مـن هتلـر وجنكـيز خـان.

أبلغـت أعمامـي وأصدقـائي بأمـر عـودتي إلى القاهـرة، أرجعتـه لمشـكلات عائليـة تخـص إخـوتي البنـات تسـتدعي بقـائي بجانبهـن، رفضـت اقـتراح عمـي ببيـع البيـت والاسـتفادة بثمنـه، كنـت عـلى يقـين بأنـني سـأعود إليـه في زيـارات دوريـة وسأسـتقر فيـه بعـد أن تعـود البلـد ملـكا لأهلهـا وتنتهـي هـذه الحقبـة السـوداء.

طلبـت أمـي أن تـزور قـبر أبي قبـل أن نسـافر، تركتهـا تقـرأ وردهـا أمـام القـبر وسرت حـتى وصلـت إلى قـبر عبـد الميـت، توقفـت أمامـه وتحدثـت إليـه:

- إنت مدرك انت عملت في البلد دي إيه؟ خليت بلد كاملة فاكرة إن العبودية زهد. لأ، العبودية ضعف، إنت ضعيف، ماقدرتش تصدق إن المكان اللي كنت بتتضرب وتتهان فيه بقى بتاعك، حنيت للماضي وللذل واخترت تقضي أيامك الأخيرة متهان والناس بتعطف عليك، مع إن كان في إيدك تعيش عزيز لحد آخر يوم في عمرك.

اقتربت من باب الضريح ونزعت القماشة الحريرية الخضراء التي تطوّق بابه ودست عليها بقدمي، ثم نظرت إلى باب القبر مجددا وقلت:

- إنت مش ولي، إنت عبيط.

عدنا إلى البيت لوضع حقائبنا في السيارة فوجدت هيثم وأصدقاءه في انتظاري، أدخلت أمي ووقفت معهم بجوار مدخل العيادة، عاتبوني على السفر المفاجئ وأكدوا أنهم سيشتاقون لجلساتنا ونقاشاتنا، وسينتظرون زياراتي بين الحين والآخر لعقدها، طلبت منهم ألا يربطوا ذلك بشخصي، وأن يفعلوا ذلك في بيت أي واحد منهم لأجل مستقبلهم، وحتى لا يأتي أبناؤهم ويستنكروا صمتهم، كما يستنكرون هم صمت آبائهم الآن.

تحدثوا كثيرا عن مبروك وقالوا إن أحوال القرية لن تتغير ما دام هو فيها، أكدوا أن يومه اقترب وأن طريقته الأخيرة ستؤلب الناس ضده وتكتب نهايته، ساءني أنهم ما زالوا لم يحددوا معركتهم الحقيقية بعد كل ذلك، فنظرت إليهم وقلت:

- عدوّكم مش العمدة. عدوّكم عبد الميت.

في **كيان للنشر والتوزيع**، هدفنا نشر كل إنتاج إبداعي، جودته عالية، وأفكاره أصيلة، في مختلف مجالات الأدب والسياسة والصحافة والفن، باللغة العربية والإنجليزية. نهتم بالمواهب، ونرعاها، ونتيح لها فرصة الوصول للقارئ العربي، مع مراعاة أفضل معايير الجودة والاحترافية في النشر.

رسالتنا في كيان، تشجيع حب القراءة والكتابة في مصر وعالمنا العربي، وتطوير مهارات الإبداع، وتعزيز ثقافة التميز والابتكار. كُتَّابنا موهوبون، متمرسون، مصريون، ومن جميع أنحاء الوطن العربي، وإصداراتنا متنوعة، متميزة، مختلفة. دائمًا نرحب بالكتاب الشباب، والمواهب الجديدة، ونعطي فرصة متساوية للجميع؛ لأن مرادنا هو الارتقاء بفنون الأدب العربي ككل، والوصول بالإنتاجات الابداعية العربية إلى العالمية .

لو تحب **تراسلنا**، لو عندك استفسار، لو حابب ترسل لنا إنتاجك الأدبي، سواء كان رواية، أو شعر، أو مقال، باللغة العربية أو الإنجليزية، ما تترددش. ابعت لنا على:

kayanpub@gmail.com

info@kayanpublishing.com

أو زور موقعنا:

www.kayanpublishing.com

وللاتصال الهاتفي:

هاتف أرضي: **0235611772 -0235688678**

هاتف محمول: **01000405450 / 01005248794 /01001872290**

ويمكنك التواصل معنا إلكترونيًا على الروابط التالية، للاطلاع على كُتُبنا، ومتابعة إصداراتنا الجديدة، وأنشطتنا وأنشطة كُتَّابنا الثقافية:

Kayan.publishing

kayan_publishing

Kayanpublishing

kayanpublishing

+KayanPublishing

KayanPublishing